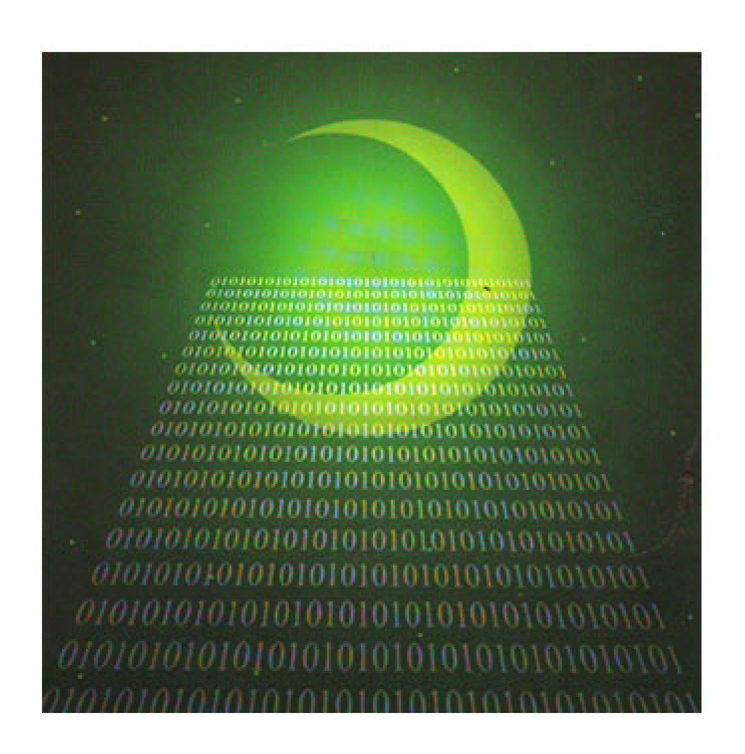
عبد السلام ياسين



الإسلام والحداثة

دار الآفاق

الإسلام والحداثة



الطبعة الأولى مارس 2000

رقم الإيداع القانوني 2000/280

الإسلام والحداثة

عبد السلام ياسين

توطئة

توطـئـة

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾[1].

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم. وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

كتبت لحد الآن بالعربية، متوجها إلى جمهور محدود من المستعربين. أستبدل اللغة لكي أكتب بالفرنسية، اللغة الغربية التي تقاوم من أجل البقاء داخل المشهد اللغوي حيث تتنازع على العالمية اللغات القومية كالإنجليزية المهيمنة واليابانية المزهوة في محيطها والصينية الغنية بتاريخ باهر ومستقبل لا حد لطموحه.

اللغة العربية، لغة القرآن، تبقى وستبقى اللغة الوحيدة القادرة على حمل رسالة الله إلى الإنسان.

وآمل ألا يكون للفراغ الروحي الذي تتخبط فيه اللغات الدنيوية تأثير

(1) سورة الإسراء، الآية 111.

على خطابي غير الحاذق نظراً لتغربه في اللغة المستعارة التي أراني مضطراً إلى استعمالها.

عندما تتغير اللغة يتغير التنوير كما تتغير طريقة التصدي للمشاكل، السياسي منها والاجتماعي والاقتصادي، ويحتل الكلي الصدارة. أرجو أن لا يحجب التأكيد على حوادث هذا العالم همي الأول، ألا وهو إسماع الرسالة القرآنية، رسالة السلام لعالم عنيف، رسالة المعنى لعالم ضائع، رسالة الروح للإنسان المريض بحداثته.

يطمح هذا الكتاب، في همه الثاني، إلى تقديم مساهماته المتواضعة في التفكير لمستقبل الإسلام، أي لمستقبل هادئ ومستريح من الاضطراب الجنوني الذي يحرم الناس من العيش في سلام، متصالحين مع الله، منفتحين بالمودة والرحمة بالإنسان، مهمومين باجتياز إعصار الحداثة الصاخب، وبالعبور من هذه الدنيا إلى الدار الآخرة وكلهم رجاء في السعادة الأبدية.

أتحدث إذن عن الله واليوم الآخر لحداثة أصمها الصخب العصري، وأعماها بريق الصورة الملونة، وفتنتها الأضواء، أضواء الآني، وأغواها سحر الطرق السيارة الإلكترونية، وأذهلها عالم الفرضيات. أتحدث عن الله واليوم الآخر للحداثة الذاهلة المذهلة مستعدا لتحمل سخرية الكفر الحديث واستهزائه.

سأكون سعيدا إذا وجَدَت في هذا الكتاب روح متعطشة للحق البرهانَ لإخراس صراخ الشك الذي تثيره الحداثة في العقول.

سعيدا أكون لو أن نفسا قلقة وجدت في هذا المكتوب مادةً تقوي عزماتها الضعيفة وتزيل عنها الظن والريب الحديثين للإقدام على الرحلة إلى الله بخطى مطمئنة وحازمة.

إنارة الطريق إلى سعي روحي فردي وشخصي هو همي الأول. وأن نضع في الاعتبار الظرف التاريخي والسياسي والاجتماعي والعلمي والبيئي والإنساني الذي يحكم ويقود الحداثة مرخيا لها العنان هدف مهم جدا لكنه ثانوي، على كل حال، بالنظر إلى مصيرنا النهائي بعد الموت الفردي والشخصي.

* * *

أظن أني كنت أول من استعمل منذ ما يقرب من عشرين سنة، صيغة «تسليم الحداثة». العبارة أخذها آخرون منذ ذلك الحين. أعيد الكرة لا لاجترار شعار، ولكن لأواجه الحداثة بالأسئلة التي لا تهتم بها إطلاقا، وليس لأتباعها الوقت لطرحها على أنفسهم : من أنا ؟ وما أكون، وإلى أين أسير؟ وماذا أصير إذا مت وحنطت جثتي في تابوت من سنديان أو ركمتها الجرافة في حفرة جماعية في البادية الجزائرية أو الغابة الرواندية؟

أرجو أن يجد من همته الله والباحثون عن الحق ما يتقون به قلقهم ويقوون به بحثهم. أما المنكرون والملاحظون والمحللون الآخرون الذين أغلقوا نوافذهم كيلا يهب عليها تيار فكرة مخالفة، تيار تفكير مغاير، فإني أتمنى لهم ساعة لاستراحة الضمير، لحظة صدق فكري، ومضة صراحة مع الذات لإعادة

طرح مسألة الإسلام وقضية الحركة الإسلامية في العا لم، ليس باعتبارها شقاقاً بين البشر، ولا بوصفها عدوا مطلقا للغرب أو تصادما بين الحضارات، ولكن بكونها يدا متوددة للإنسان، مُحبة للإنسان، حاملة رسالة الإنصاف والعدل للإنسان.

لكي تُبَلَّغَ وتُفْهَمَ الفهم الصحيح فإن رسالة الإسلام تتطلب من المبلِّغ والمخاطَب كثيرا من الصبر واللطف في بيئة يسود فيها رفض الآخر، وتسود فيها المغالطة الإعلامية.

إن الله عليم حكيم. والحمد لله رب العالمين.

سلا، السبت فاتح ذي القعدة 1418

موافق 28 فبراير 1998.

.

مقدمة

التواصل

التواصل بين أهل الشمال وأهل الجنوب صعب. يكاد يكون ذا اتجاه واحد: تفرض قوة الشمال استبدادها عبر بنود إلزامية، ويواري الجنوب خجله مسميا خضوعه «تعاونا وديا».

التواصل مع حداثة غربية شمالية مشحونة ضد الإسلام يصبح مستحيلا عندما نكون ملتحين ونتحدث عن الله وننحدر من الجنوب. يُحكم على الإسلامي المتحدث عن الله مسبقا بأنه متعصب وظلامي ومتخلف وإرهابي ومُدان فوراً دون محاكمة.

إذا كان المسلم المنشغل بالسياسة يحتاج إلى جهد وصبر لايني لكي يُسمِع صوته في محيطه، فهو محتاج إلى مصابرة وإصرار أكبر لاجتياز العقبة وإثارة فضول عدائي ومرتاب لغرب يقف بالمرصاد للغليان الإسلامي الذي تتصدر أخباره الصحف اليومية. أدنى حركة تُعرَض بمهارة وتحلل ويعلق عليها للتوضيح والبرهنة على مدى عنف هذه «السحنات الإجرامية»، سحنات «القتلة المولهين بالله».

لا بد من جهد جبار ومثابرة ومصابرة لإزالة الغشاوة التي تضعها على العيون، كل يوم وبشكل متزايد، حَمْلةُ التحقير العدائي للإسلام التي يقوم بالدعاية

لها صناع الصورة الـمُدعمة بـ «الرأي الموثوق به» للعلماء المتخصصين.

للتواصل مع الحداثة التي تحكم عليك بأحكام مسبقة ومضادة، ينبغي بلوغ أذن متحررة ومستعدة للاستماع إلى صوت الآخر. كم هو عزيز وجود هذا الاستعداد وسط العقول المتمترسة وراء اعتقادات جاهزة وإصرار عجيب على عدم الاستماع.

إسماع الحق لإنسان حديث لا يعرف لوجوده معنى خارج الرغبة الرهيبة للاستمتاع بـ «السعادة» الاستهلاكية يعتبر رهانا. إن سلطة الدعاية العدائية وطَرَقاتها اليومية صنعت ذهنية موجهة ضد كل من يتحدث بلغة أخرى غير لغة الرضوخ «المتعاون» مع الوصاية الثقافية والهيمنة السياسية الاقتصادية للغرب. تخطي الجدار للوصول إلى الآخر يبدو مستعصيا.

بعيد المنال هو التواصل المتبادَل بين حداثة مُنَعَّمة، لا يزعجها بؤس المستضعفين الذي يظهر على شاشات التلفزة كل يوم: إبادة رهيبة في الجزائر ومذابح وحشية في رواندا، بؤس ووحشية دموية يتبرأ منهما المواطن العادي والمسؤول السياسي باتهام «الإرهابيين الإسلاميين المتوحشين» أو بتنظيم مساعدة إنسانية تمكنهما من تسلية ضمير يتألم.

كيف السبيل إلى التواصل مع عالم متخم بالمتع المادية التي ينطبع ترفها المخزي على لوحة المجازر اللاإنسانية التي يرتكبها محميو الحداثة اللاييكية والديمقراطية في الجزائر وفي غيرها من البقاع؟

كيف السبيل إلى إسماع صوتك وإقناع عالم متخم وأنت تنتمي إلى عالم جائع؟ لا مكان لصوتنا في عالم حديث ينمق الكلام، عندما نكون مدفوعين إلى الجهر وإعلان اقتناعنا بفكرة مناقضة للأفكار الواردة والمقبولة في الغرب.

ماذا تستطيع الفكرة ؟

ماذا تمثل فكرة عزلاء أمام غرب مدجج بالسلاح ؟

الفكرة الواضحة والموضوعية مرفوضة من طرف حداثة عدوانية إن لم تخضع هذه الفكرة للمنطق اللاييكي الذي يحظى وحده بالقبول. مهما كانت الفكرة مسالمة والاقتراح سمحا ومنفتحا للحوار فهي منبوذة بين مواطني ثقافة وذهنية وقوة اقتصادية وسياسية وعسكرية مستعلية صعبة المِراس، متجاهلة لكل نظرة مضادة تدعي أنها قادرة على فتح العيون العمياء، عيون الحداثة، لكي ترى نور النهار.

صعبٌ تذكير الإنسان الحديث أن الله هو خالقنا لا الإله الدولار، لا الإله الفائدة الربوية ولا القوة العسكرية لفرعون اليوم، ولا الهيمنة الاقتصادية لقارون هذا الزمان. إعلان فكرة والجهر باقتراح حالم معبر عن الأماني المكبوتة يعتبر غير مناسب أمام الواقع الحديث الملموس.

ماذا تستطيع الفكرة؟ وما هي قيمة الاقتراح أمام الواقع الحديث؟ الواقع العلمي التكنولوجي يوسع بسرعة رهيبة الهوة بين فلان صاحب الأفكار السخيفة وبين حداثة متمكنة من قوى ضخمة.

ماذا تستطيع الفكرة الحافية والاقتراح المتشرد ضد واقع جبروتُه ملموس؟

ماذا تستطيع القيمة الروحية والأخلاقية التي تنادي بها وتعرضها الإسلامية العاجزة في السوق العالمية لمواجهة القيمة التجارية التي تضمنها الورقة الخضراء؟

الإسلام غير مرغوب فيه في الحلبة السياسية العالمية، الإسلام الحاضر والراهن والـمُصر الذي يطرق أبواب الحداثة حاملا رسالة المصالحة مع الله ومع الناس، رسالة العدل والأخوة بين الناس. ما دام ظرف الإسلام والحداثة على ما هو عليه فسيظل الصوت الإسلامي مدة من الزمن غير مسموع، والفكرة الإسلامية مرفوضة. لكن سيأتي اليوم الذي سيلقي فيه عالم حديث متعقل سمعه ليصغي إلى رسالة الإسلام وكله استعداد وانفتاح لتقبل اقتراح الإسلام، وكله سعادة للاسترشاد بحكمة الإسلام. إن شاء الله.

العالم المتعقل سيفهم أن الإسلام هو خضوع لله. سيتعلم كيف ينظر بعيدا وكيف يرفع الأشرعة لبداية إبحار إلى بلاد الحرية : بلاد يكون فيها الإنسان عبدا لله لا يعترف بأي سيادة مناقضة لسيادة البارئ الواحد، ولا يخضع لأي شريعة مخالفة لشريعة الله رب العالمين.

* * *

هذا الكتاب يطمح إلى عرض العقيدة الإسلامية والشريعة الإسلامية. طموحه الآخر هو دعوة حداثة متمردة على الله إلى الاتعاظ حتى لا يصيبها ما أصاب قوم نوح المتمردين على الله المغرقين بالطوفان.

المقصود أن نتأمل الأمثلة التي يرويها لنا القرآن، والتي يجب على الحداثة الاعتبار بها، لأنه إذا كان التاريخ يتغير فإن طبيعة الإنسان الذي يصنع التاريخ تبقى خاضعة لنفس العوامل. الأزمنة تتغير على عكس نفسية الإنسان.

درس جوهري يمكن الاعتبار به من رسالة إبراهيم عليه السلام الذي حطم الأصنام ولم يعتبر قومه بعجز الآلهة المنحوتة بيد الإنسان. نيران النمرود المسعرة المُعَدَّة لتحول إلى رماد نبيَّ الله المحمي بقدرة الله انكشف عجزها. إن النماردة المعاصرين المأجورين لا يشعلون الحطب لإحراق كل صـــادع بالحق، لكن ينصبون محارق على نطاق واسع ورهيب. إذا كانت المحارق الحديثة لا تنقص وحشيتها عن وحشية محاكم التفتيش في القرون الوسطى فإنها تباشر مشروعها حسب مراسم وبواسطة وسائل أخرى أكثر فعالية و«نقاوة».

تقلبات التاريخ رفعت إلى السلطة في هذا العراق، الذي نصبت فيه من قبلُ المحرقة لإبراهيم في زمن بابل القديمة في عهد النمرود الكبير، طاغيةً تحت تصرفه وسائل جهنمية يبدو أمامها اللهب القديم كأنه لعبة أطفال. صدام، اسم على مسمى، رمز كل الشبهات، البطل الممجد والطاغية الممقوت، يحرق في طرفة عين القرية الكردية حَلبجَة، ويبيد بنار القنابل الفوسفورية جيوشا كاملة تنتمي إلى إيران الإسلامية المسلط عليها العقاب الأمريكي.

النمرود البابلي بوسائله البدائية لم يخطر بباله أنه في يوم ما سيكون في خدمة

خلفائه في العراق أو في بلدان أخرى آلات جهنمية قادرة على صب النيران الكيماوية على رؤوس شعوب بأكملها، ألا وهي هذه الطائرات الكابوسية التي تخترق السماء بسرعة البرق.

التوراة، المعين الذي لا ينضب للثرثارين الكبار والصغار، تنعت النمرود مؤسس الإمبراطورية البابلية بـ«الصياد الباسل أمام الله». النمرود رغم بسالته المفرطة ودهائه ووحشيته لا يستطيع تصور فظاعة الأسلحة التي صنعتها، بعد آلاف السنين من عهده، التقنية الحديثة. المطاردات القاذفة الأشباح التي تبيعها القوى الحديثة للطغاة المعاصرين الوارثين الجديرين و«الصيادين البواسل» ستنجز مآثر جهنمية جديرة بعصر معدني وكيماوي وإلكتروني.

لكل نمرود نمرودٌ ونصف ! صدام تجاوز الحدود المرسومة من طرف دركي العالم لما احتل إمارة الكويت مستودع الثروة والبترول ورمزهما. الرئيس بوش استشاط غضبا وألب قوى العالم ضد المتمرد المتغطرس نمرود بابل الجديدة البعثية التكريتية. والشعب العراقي هو الذي احترق وليس صدام، الشعب العراقي هو الذي سيستمر في معاناة عواقب عرض القوة الأمريكية المرعبة الرهيبة.

المستر وليام كلينتون الملقب بيل كلينتون المتورط في فضائحه المخدعية، كان بدوره على وشك إشعال حريق كبير في الشرق الأوسط في نهاية شهر فبراير من سنة 1998.

جولته ضد صدام، المسماة «رعد الصحراء» قبل ولادتها أجهضت، ولا يمكن لها أن تطمح إلى الدناءة التاريخية لعاصفة سلفه الذائع الصيت «الرجلِ المهذبِ» الآتي من تكساس : جورج بوش.

صدام بسياساته الدونكشوطية وخططه المؤدية إلى الهاوية عرَّض نفسه وأعطى الذريعة للرئيس بوش الذي أشفى غليله من العرب المسلمين سنة 1991. نفس الخطة كادت تبيح للرئيس كلنتون أن يقذف بدوره حممه ضد بغداد، بغداد الشهيدة.

مررنا بجانب الكارثة التي رأيناها آتية، وغطى العالم أجمع، باستثناء الإدارة الأمريكية، وجهه حتى لا يشاهد وقوعها. المعارضة الحازمة لروسيا والصين والموقف الذي اتخذه الرئيس شيراك هيأ الميدان للتدخل الشجاع والحكيم للكاتب العام للأمم المتحدة الإفريقي كوفي عنان. هل هو تحول في الدبلوماسية العالمية وصفحة جديدة في تاريخ الأمم المتحدة الباهت لحد الآن؟ هل التفكير المتعقل للحساب الاستراتيجي المنسجم مع موجة السخط على عقلية راعي البقر صاحب الزناد السريع والذي يرمي بسرعة أخف من ظله هما اللذان أحبطا مناورة دركي العالم وأنقذا العرب والشعب العراقي من مأساة ثانية؟

على كل حال فإن وحش بغداد الذي خرج مرفوع الرأس من القبضة الحديدية لايزال هناك، متمتِّعاً بمكانته وأمواله وقصوره وشراسته. على أي حال

فإن جنون العظمة للزعيم البعثي، وحش العنف، سيتسع نطاقه، وإن الشعوب العربية التي هزتها، لحظة، الضربة الأمريكية المرتقبة الفاشلة، سرعان ما ستسقط في اللامبالاة، متفرجة لاهية بالإنجازات المسرحية للرؤساء المستكبرين الذين يكشرون في وجه العدو أمام الناس لكي يخرّوا رُكّعا أمام حذاء الأقوى في الكواليس. الرئيس الأمريكي يقبل التسوية المحبوكة من طرف الكاتب العام للأمم المتحدة. الجيوش وحاملات الطائرات تبقى في عين المكان تراقب المشهد جيدا، ناصبة سلاحها، مستعدة لضربة انتقامية خاطفة انفرادية في حالة ما إذا حاول صدام أن يظهر أدنى مقاومة لإرادة الولايات المتحدة الأمريكية المرعبة. مستعدون لتدمير بغداد، بغداد الشهيدة، لتلقين معنى الكلام للمستبدين ذوي الرؤوس اليابسة. الحلفاء العرب للولايات المتحدة الأمريكية رغم انقيادهم وسخائهم ليسوا أهلا للثقة، ولاهم قادرون على حماية «المصالح الوطنية» لأمريكا. ألم يبدأ الشارع العربي في التحرك والهيجان مع اقتراب الحدود الحاسمة للمشروع المجهَض؟

الواقع المر هو أن إسرائيل، الولاية الأمريكية الحادية والخمسون، تبقى المحور الواحد والوحيد الذي تدور وستدور حوله، ولسنوات، إستراتيجية القوة العالمية العظمى. أي هيجان في الشارع، وأي علاج تكتيكي مؤقت لا يستطيع زعزعة استيلاء الولايات المتحدة الأمريكية على بترول العرب ما دام العرب لم يعلنوا عن إسلامهم، وما داموا لم يعترفوا بيتمهم على الساحة العالمية ما

داموا لا يعتمدون على المساندة والنصرة والتطوع الفعال لإخوانهم في الإسلام.

* * *

تقنية التسلح الحديثة، مثل التكنولوجيا بصفة عامة، بعيدة كل البعد عن كونها وسيلة في خدمة السلم في العالم أو أداة للدفاع عنه وعن حرية الإنسان. صارت تقنية التسلح أكثر تطوراً ليزيد تدميرها للإنسان وإرهابها للبشرية. الألغام المضادة للأشخاص، هذه المنتجات الجهنمية المدسوسة تحت الأرض، تبتر رجل الطفل الذي يلهو وهو في طريقه إلى المدرسة، أو تبقر بطن الفلاح المشتغل في حقله. أدوات الموت هاته والتي تباع بثمن بخس لا يمكن إبطال مفعولها إلا بواسطة نفقات باهظة يرفض الغرب دفعها.

ألغام قاتلة تحت التراب وطيور نارية محلقة في السماء : لم يكن قط تحت تصرف العنف البشري هذا القدر من الأسلحة الباهظة الثمن والتي يتفضل بها على خُدَّامه غرب حديث مُتاجر عالمي في المدافع.

* * *

أيتها الديمقراطية الحديثة العزيزة علي! أنت الحياة، أنت الموت!

أنت الموت الخفي الذي اعتقدت البشرية رؤيته على شاشات تلفازها لما حلقت فوق بغداد الطائرات الخفية (والوهمية حسب الشهادة العمياء والبكماء لرادارات بغداد). بغداد الشهيدة! يا لتعاسة سكان بغداد !يا لتعاسة الثوار

بجنوب بغداد، المسحوقين بعنف طاغية بغداد بعد حريق بغداد!

أنت الحياة عندما لا تكتفين بالكلام وعندما ينتظم أبناؤك وبناتك من الغرب ومن أماكن أخرى في منظمات غير حكومية للتنديد بإرهاب الدولة، وللدفاع عن حقوق الإنسان والبيئة. نحن معك، أيها الشعار المتعدد الألوان، عندما تحفز أبناءَك وبناتِك مثاليةٌ نبيلة فيحتجون ويعبرون عن غضبهم مجندين موارد غنية معنوية ومادية لمساعدة ضحايا الحداثة القاسية.

نحن معكِ أيتها النفوس الخيرة عندما تنتفضين ضد منفذي الأعمال الوضيعة التي تحرض عليها قوى العصر أو تثيرها القوى الصغرى المحلية الشيطانية. نحن معكِ، نحن الأوفياء للإسلام، وسنكون معكِ أكثر فأكثر، نحن الأتباعَ المؤمنين إيمان أبينا إبراهيم محطمِ الأصنام الصادعِ بالحق. نمد لكم اليد، أيتها النفوس المتآخية في الإنسانية، مهما كانت اعتقاداتكم ما دامت الرحمة الإنسانية والمحبة لبني البشر تنعش قلوبكم وأعمالكم.

إننا وسنبقى دائما على استعداد، وكلنا عزم وثقة في رحمة الله عز وجل، لمد اليد إلى الرجال والنساء ذوي الإرادة الطيبة والاستعداد النبيل. سنبقى كذلك حتى نعقد ميثاق عدم الاعتداء على الإنسان وعلى كرامة الإنسان، ميثاق رفق شامل بالإنسان وبأمن الإنسان، ميثاق رفق فعال ونشيط وباذل. إننا كذلك حتى نقضي على الإقصاء والحقد العنصري واحتقار خلق الله عز وجل والعنف على الإنسان والوسط الحيوي للإنسان.

المقصود أن نعقد ميثاق تعاون بين الناس من خلال المؤسسات المكونة من طرف الدولة أو عبر قنوات لا تتحكم فيها السلطات الرسمية. تلك هي غايتنا الإحسانية المرتبطة ارتباطا وثيقا بغايتنا في الكمال الروحي. هذه الغاية المزدوجة والمتماسكة في رسالة الإسلام تأمر بها شريعة الإسلام بوضوح، شريعة دعا إليها وتحرك من أجلها بقوة أهل الله بامتياز: رسل الله عز وجل.

إن مشروع حلف إنساني عالمي يبقى حلما وهذيانا في حال عدم التوازن الفاضح الحالي بين الشمال والجنوب. ويظهر أن القضية المقدسة لحرية الإنسان والحفظ الجميل والنبيل لكرامة الإنسان ستبقى أمرا غريبا عندما يدافع عنها إسلامي متهم مبدئياً بمسؤوليته عن المجزرة التي لا توصف المقترفة في الجزائر. إذا لم تجن يداك فقد جنت يدا أخيك[1].

إن الدفاع عن حرية الإنسان وكرامته مشروع المستقبل وقضية مقدسة. وسِّعوا مجال الآمال ومدِّدوا المثال الأعلى على المدى البعيد وعلى مسار واسع وستُطلون على الأفق الذي رسمه رسل الله، كل واحد لقومه ولزمانه، ورسمه محمد عليه الصلاة والسلام للعالمين وإلى يوم القيامة. الرسالة النبوية يتردد صداها عبر الزمن لدعوة الناس وتذكيرهم أنهم إخوة ومخلوقات لله وحده. رسالة تُرَجَّعُ وتتمدد عبر الزمان والمكان لتنبِّه إلى الأخطاء المعادة والذنوب المتكررة

(1) حتى لو كان هذا الأخ المزعوم مجرد مرتزق في خدمة العصابة الحزبية العسكرية أو مجرد جزار وحشي متنكر في لباس محارب، حليقا كان أو ملتحيا بلحية مستعارة.

والانحرافات الخطيرة والاضطرابات المعنوية والأمراض الاجتماعية.

إنَّ تبليغ رسالة الإسلام ونشر قيمه على المدى البعيد والأفق الواسع لمسار البشرية هو مطمح هذا الكتاب. لعله طموح مجنون لكفاءة متواضعة ومجهود محدود ومحجوز تحت الرقابة !؟

ننوي مع ذلك توضيح المفاهيم والغايات التي يمكن أن يشارك فيها المسلمون فيما بينهم ويشاركوا فيها الناس ذوي الإرادات الطيبة، وننوي كذلك تعيين المكان والحدود التي يمكن أن ينمو فيها الوفاق وتتبدد فيها أسباب الشقاق بين الإسلام والحداثة. هذا إذا تكرمت الحداثة المغربة بإلقاء السمع للإصغاء إلى وجهة النظر غير الغربية. كم عانينا من صورة الإسلام التي تبثها وسائل الإعلام الغربية. آن الأوان، والحاجة ملحة، وفي وقت تفقد فيه الإنسانية إنسانيتها، أن تحل الكلمة الصادقة محل الشتائم، وأن تتوقف الدعاية المغذية للضغائن. ما الخلاف في الغالب إلا مولوداً غير شرعي لكلمة غامضة أو لنية سيئة.

* * *

فليأذن لي القارئ هنا بفتح قوسين لنشرع في كلام واضح صالح لتواصل خال من كل تشويش.

يصبح الخطاب هجينا حين نلزم كلمات لغة معينة حمل معاني لغة أخرى وعواطفها وقيمها. قد تكون اللغة المستعارة، اللغة الغربية التي يستعملها

أحد إسلاميِّي نهاية القرن العشرين مثلا، عاجزة كل العجز عن التعبير عن البعد الروحي : إذا لم يكن ذلك ناتجا عن القصور الدلالي الأصلي، فقد يكمن، بكل بساطة، في ابتذال لغة معلمنة فقدت كفاءتها التعبيرية.

لتفادي كل غموض أو سوء تفاهم، ينبغي تحذير القارئ ولفت انتباهه إلى أن التفكيرَ في الإسلام والتعبيرَ عن مضمون الإسلام ورسالته بواسطة لغة معلمنة يعتبر مغامرة ثقافية غير سهلة. أما إذا كان الوسيط غير حاذق وغير متمرس باللغة المضيفة، فإن الأمر يصبح أكثر هشاشة. أن تأتمن على رسالة الإسلام لغةً يعرف عالَمُها الدلالي والثقافي فرقا صارخا بل معارضا للإسلام هو في حد ذاته شروع في عدم التفاهم وعدم التواصل. إن القيام بهذه المهمة دون تنبيه الطرفين إلى ضرورة التحلي بقدر كبير من التسامح يؤدي حتما إلى قطع خطوط الاتصال وإلى رفض الاستقبال[1].

لذلك فمن الصواب إعداد هامش من الثقة وفضاء من التسامح ابتداء من

(1) أوضح مثال للخطر المحدق بالحوار بين الإسلاميين واللاييكيين المسلمين وبالتواصل بين الثقافات هو محاكمة اللاييكي للإسلامي كلما حاول هذا الأخير البحث عن معبر أو انتقاء كلمة. ينسب الأول للثاني جميع أنواع النوايا السوداء إما بسبب جهله بلغته الأم أو بسبب نية مبيتة وتحامل سياسي. حقا، لقد خاطبت بشيء من الصراحة المثقفين الديمقراطيين في بلدي ناعتا إياهم بـ«الفضلاء». «فضلاء» في عربية كل العصور تعني متعلمين، علماء، مثقفين. كلا ! إنك تشتمني، وتمرغني في الوحل، وتلوث شرفي، وتعتدي على كرامتي كمناضل وعلى وطنيتي حين تخاطبني بـ«فضلاء» !!!

هذه المقدمة. من الحكمة احتمال سلامة الطوية لدى الإسلامي عندما يستعمل كلمة قوية وربما ليست في موضعها نظرا لعدم ثباته على أرضية دلالية وثقافية غربية. لماذا يكون بالضرورة ضد الأشخاص والأمم والشعوب عندما يتحفظ على الحداثة؟ ربما لا يخفي العنف اللفظي إلا شفقة لا حد لها أمام الأضرار التي تلحقها الحداثة بالإنسان!؟

إنه من قلة النزاهة الفكرية عدم ترتيب هذا الهامش من الثقة وعدم افتراض الاستقامة والنزاهة لدى الآخر. إنه برهان على الوهن الفكري إلباس الآخر نقائص أودعها في مخيلتنا ضيق صدرنا وأحكامنا المسبقة.

حذار من فخ الاشتقاق اللغوي غير الدقيق خاصة، إنه قبر التواصل ! إن الكلمات التي يساء استعمالها أو فهمها أو كتابتها أفخاخ قاتلة !

أحتفظ في هذا المكتوب على الإملاء المستعمل في الفرنسية للإشارة إلى الشخصيات المقدسة : نوح، إبراهيم، موسى، هارون وعيسى، على أنبياء الله تعالى الصلاة والسلام، رغم أنني أعلم أن هذا الإملاء يحمل علامة ودلالات التوراة التي تسللت قديما إلى اللغة الفرنسية خلال القرون التي كانت لاتينية الكنيسة الكاثوليكية المرجع الوحيد لبنت الكنيسة البكر فرنسا. أكتفي بالإملاء دون أخذ الدلالات التوراتية المنسوبة إلى هذه الشخصيات العظيمة. هذه الدلالات التي لا تمت بصلة إلى الوحي القرآني. هذيان اليهود وإضافات الحاخامات تقبع في مكانها. ونحتفظ بالإملاء لتيسير التواصل. إن

الشتائم التي كيلت لأنبياء التوراة لا تستحق التوقف عندها. إن اليد التي صورت نمرود بأوصاف «الصياد الباسل أمام الإله الخالد» هي نفس اليد التي تروج الشتائم في حق أنبياء الله المحاربين الاستبدادَ النمرودي والمحطمين الأصنام.

* * *

أما القرآن فيقدم لنا أنبياء الله عز وجل في صورة نماذج عليا للفضيلة وقدوات ينبغي اتباعها، وتجسيد متكرر للكمال الروحي، كما يليق بمن ائتمنهم الله عز وجل على رسالة نبيلة، وسطاءَ بين الخالق والناس. هؤلاء الرسل بشر لا ينسلخون عن بشريتهم، لكن قلوبهم وأرواحهم وأفعالهم تهتدي بنور الله. لا علاقة لهم بالصورة التي تعرضها العقيدة النصرانية وتعاليم الأناجيل التي تؤله عيسى بن مريم العذراء عليها وعلى نبي الله عيسى بن مريم أزكى السلام.

قصة موسى تتكرر في القرآن الكريم وتستحق منا التدبر. هو أحد الأنبياء الخمسة أولي العزم. الأربعة الآخرون هم : نوح وإبراهيم وعيسى ومحمد، على أولى العزم من الرسل الصلاة والسلام. نجَّى الله موسى من اليم بعد أن ألقته أمه فيه خوفا من أن يذَبِّحه فرعون كما كان يذبح أبناء بني إسرائيل. التقطته امرأة فرعون وتربى في قصر فرعون. اصطفاه الله منذ الأزل لمهمة عظمى، وتلقى بركة الوحي وتميز عن الأنبياء بتكليم الله له على طور سيناء.

بلغ موسى رسالته إلى فرعون، فكذب واستكبر. لم تكن مصر فرعون

الفيلسوفة والمثقفة تشبه آنذاك بلاد ما بين النهرين ذات النظام العسكري الخشن، نظام نمرود. كان نمرود حارس لوحات القانون الصارمة، طبق الصرامة الإدارية والقانونية بإشعال المحرقة لإبراهيم، أما فرعون فكان أبعد نظرا من نمرود حين حشر مثقفي عصره الملتفين حول البلاط السحرة الأطباءَ المحنِّطين الكهنةَ لإفحام موسى. فهزم موسى الجمع بإلقاء العصا المعجزة التي أمدته بها العناية الإلهية. فسجد السحرة أجمعون وآمنوا بموسى وبمعجزته التي عَرَّت زيف البشر. وكان على فرعون أن يشرب كأس الغم حتى الثمالة. فرعون الذي نصب نفسه إلها على مصر وسيدا للنيل يشهد أوامرَه يُستهزأ بها وسحرتَه تقطع أيديهم وأرجلهم ويصلبون في جذوع النخل ولا ينقضون بيعتهم لموسى ولرب موسى. هذه مذلة لا تحتمل !

يقص علينا القرآن الاستعلاء والاستكبار الفرعوني والاستكبار النمرودي المهلك الذي واجهه رسل الله تعالى، ناصرين دين الرب القوي العزيز الذي يلهمهم يقينا مطلقا في حمايته تعالى لهم. إنه نفس المشهد الذي يتكرر على مر عصور التاريخ القديم والذي يقصه القرآن العظيم وبتفصيل دقيق حتى يعتبر به المؤمنون عبر العصور التي تأتي بعد زمن الأنبياء.

* * *

فلتُعتصَر قلوب المرتابين الذين نهشهم الشك ! ويبقى المؤمنون ثابتين أمـام التهديد بينما ينفق «المرنون» كل ما ادخروا من لباقة أو يبالغـون في الركوع

لنيل رضى عظماء هذا العالم.

للاقتداء والاهتداء قص علينا كتاب الله تعالى، وبتفصيل، عزم أنبياء الله وأهل الله وصبرهم. كان فرار موسى على رأس قومه انسحابا اضطراريا ولم يكن ضعفا ولا خيانة للأمانة. كانت الهجرة التي طالما احتفت بها التوراة واحتفى بها القرآن حدثا تاريخيا بالغ الأهمية بالنسبة لشعب إسرائيل، عظيم المغزى لتجلِّي القدرة الإلهية بشكل معجز : البحر الأحمر الذي انفلق أمام الفارين وأغرق بعد ذلك فرعون وجنوده هو في اعتقادنا حدث تاريخي ثابت لا مجرد مثال ورمز للرحمة الإلهية والعناية الربانية برسل الله العلي القدير.

كانت السفينة خشبة النجاة لنوح وللفئة القليلة التي اتبعته من المؤمنين. نجا إبراهيم من النار بمعجزة بينة. عبر موسى وقومه البحر الأحمر مشاة. وأنقذت عناية الله محمدا صلى الله عليه وسلم أثناء هجرته متمثلة في عنكبوت نسجت بيتها وغطت بنسيجها الشفاف مدخل الغار حيث كان يختبئ النبي صلى الله عليه وسلم عن مطارديه. لا أدري أي استثناء جعل عيسى بن مريم مخلِّصا لا مُنقَذا ! الحقيقة تتلى في القرآن. يخبرنا الله أن شبها لعيسى حل محل عيسى عليه السلام بشكل معجز أمام المتآمرين اليهود الذين اعتقدوا أنهم يصلبون عيسى.

أنقذه الله كما أنقذ إخوانه، ورفعه إليه. لكن قطعا للجدل، فلأهل الكتاب نصيب من تسامحنا المكتوم.

نذكر بإلحاح بمعرض رسل الله الذي يرسمه أمامنا النص القرآني ليلفت مخيلتنا إلى رمزية الشجاعة والفداء. هذه الرمزية الغنية بالمعاني سند معنوي لنا كي لا ننحني بسبب ضعفنا البشري أمام التهديد، ولكَيْلاَ تتزعزع بالشك ثقتنا في الله. إن أحداث التاريخ النبوي المروية في القرآن العظيم دعوة إلى التدبر والاقتداء والعمل. إما أن نتأسى بهذه القدوات المؤثرة أو نختار الغرق في غثاء الحياة والذوبان في التفاهة. إما أن نؤدي واجبنا كإنسان حر ومسؤول أو نعاني كالعاجز المنغمس في حياة الخمول.

تمر الأجيال، وتمضي الحضارات، وينقضي تاريخ الحروب والإمبراطوريات، وسيمضي العصر الحديث، عصر الخوف الأكبر والحيرة الكبرى، عصر أكبر الإنجازات العلمية والتكنولوجية! ماذا سيحدث لي أنا التعس الفاني ؟ ما مصيري بعد الموت ؟ ما مغزى رحلتي العابرة في الدنيا ؟ هل تكون لي القدوات المؤثرة لعباد الله تعالى الكمل نقطة ارتكاز أو أعرض عنها تاركا أيامي تنفرط في التفاهة اليومية؟

يبدأ تسليم الحداثة بصرخة تحذير موجهة للإنسان الحديث الذي يبترُّ هم الفانية جزءا من حياته. تسليم الحداثة يعني إيقاظه من سباته ومنعه من التعثر والسقوط في حضيض العبث الذي يتربص به كل حين. إن الضحية المسكين يتعثر بالفعل ويسقط ويغرق في الحضيض.

إن يد النجدة للقدوات الكاملة عباد الله الكمل رسل الله تمتد للإغاثة :

هذه اليد الرمز، هذه اليد المثال التي ينبغي الاقتداء بها في سلوك حياتنا الفردية والجماعية، في موقفنا الأخلاقي وموقفنا السياسي هي الملاذ الوحيد القادر على أن يكون حبل النجاة للسفن الغارقة.

* * *

لتسقط إذن الكلمات المفخخة الشوهاء، الكلمات المزيفة مثل لفظة «رولجيون» التي تفوح منها رائحة الكاثوليكية المعلمنة. إن النصيحة بأن ندع لقيصر ما لقيصر، المنسوبة حقا أو باطلا لعيسى عليه السلام، لَحِقَ بها شعار الثورة الفرنسية «لنشنق آخر نبيل بأمعاء آخر قسيس». حتى نصفي حسابنا مع كلمة «رولجيون» نحتاج إلى حذر شديد من هذه الكلمات التي أفرغتها من مضمونها العلمانية الأوروبية واللاييكية الفرنسية.

ليس الإسلام «رولجيون» بالمعنى الناقص والسافل للكلمة، لكنه استسلام لله خالقنا. ليس الإسلام «رولجيون»، بل هو خضوع للشرع المنزل. الإسلام مشاركة كاملة وعازمة في الحياة الإنسانية، في التاريخ الإنساني وفي الحدث الإنساني. الأنبياء الأعمدة، الأنبياء القدوات، الأنبياء الرموز، الأنبياء الخاضعون لله المهيمن طائعين له ساهموا في التاريخ البشري بثقة وتحت رعاية الله عز وجل.

هؤلاء الأنبياء كانوا مشاهير تاريخيين لامعين. لنتأكدَ من ذلك نقرأ القرآن ولو مرة واحدة في العمر إن استطعنا أن نظفر بلحظة من الراحة وسط

الضجيج الحديث. لنقرأه إن استطعنا اختلاس فترة عزلة من فضول وسائل الإعلام الحديثة. لنقرأه إن تركت لنا لحظةَ حريةٍ شبكاتُ الإنترنيت وأفلتنا من اكتظاظها المعلوماتي وسمحت لنا باستنشاق النسيم العليل وبالسير في حياتنا كما نريد لا على هوى الحداثة المجنونة التي تبرمجنا كما تبرمج الربوط الآلي.

لنقرأ القرآن حتى نرتاح من الهذيان العلماني اللاييكي الذي يعلم الناس أن الإسلام لا علاقة له بالسياسة. القرآن العظيم يقول لنا عكس ذلك، ويصور لنا نوحا وإبراهيم وموسى ومحمدا صلى الله عليهم وسلم وهم في جهاد مع قضايا عصرهم. يظهرهم لنا وهم في مواجهة مباشرة مع الحدث السياسي في عصرهم، في صراع وعراك منظم ضد الاستبداد والظلم في عصرهم. هؤلاء هم الإسلام، الإسلام هو طاعتهم للواحد الأحد، الإسلام هو حركتهم، الإسلام هو نياتهم وأعمالهم، الإسلام هو وفاؤهم وتعظيمهم لشرع الله الموحى به إليهم.

القدوة الكاملة، خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، يبلغنا الرسالة التي تتضمن الشريعة النهائية والخاتمة التي وقعها الله العليم على سجل الخلق طابَعاً معتمداً، جوازَ نجاةٍ للفرد والمجتمع البشريين العابرين على متن هذه السفينة المبحرة التي هي عالمنا وأرضنا ووقتنا وحضارتنا.

القرآن، هذه الوثيقة التي لا تماثلها وثيقة في أصالتها، دُونت في حياة النبي وبإملائه. وجُمع ثم خضع لدراسة نقدية أثناء جمعه. القرآن حاضر، كلمة

ربانية حية، رسالة وشريعة، تاريخ ومساهمة، عدل وإحسان، سياسة وجهاد[1].

تمر الأنماط والنماذج البشرية، ويبقى القرآن محفوظا.

تنقضي الأقوال البشرية والثقافات الشعبية، ويشهد القرآن بالحق المطلق. تتلاشى اللغات وأساليب التعبير، ويبقى الخطاب القرآني يخاطب دائما قلوب البشر وعقولهم.

تُنسى أفراح الإنسان وأتراحه، وينقش القصص القرآني في ذاكرة المؤمنين ذكرى التاريخ المقدس الذي لا يمحى : تاريخ الرجال الذين يرسلهم الله ليشهدوا في الأرض على وحدانيته تعالى في حياتهم وبعد مماتهم، طائعين لله، مشاركين في المغامرة الشاقة على الأرض.

تتتابع وتمحى وتزول الأفكار والمفاهيم الإنسانية، ويعلن القرآن الحق مجيبا وحده عن التساؤل العميق والأساسي للعنصر البشري : من أنا ؟ إلى أين أسير ؟ ما هي الحياة؟ ما هو الموت؟

تغيب وتظهر التحولات، و«تتفتح مائة زهرة» في البستان الثقافي للفنون والآداب، توضع ألف نظرية فلسفية تدحض الواحدة منها الأخرى، ولا شيء من كل هذا يحمل جوابا عن السؤال الجوهري حول سر الوجود، الجواب الذي تبحث عنه الحداثة بشوق وبدون جدوى، والذي يحمله القرآن وحده.

(1) للمزيد من الاطلاع، اقرأ كتاب موريس بوكاي : «التوراة والقرآن والعلم»، دارSeghers للنشر، 1976.

تتطور العلوم بخطى عملاقة، وتغزو التكنولوجيات، بنات العلوم، حياة البشر حاملة معها ألعاب السوق العالمي الصاخبة والمرعبة، لكن الإنسان يغرق أكثر فأكثر في الجهل بمعنى وجوده، والقرآن وحده قادر على انتشاله.

الأدوات التقنية، نسل التكنولوجيا المتكاثر، والآلات الرهيبة بين يدي الناس، لم تسمح لهم حتى بضمان حياة مادية لائقة ونظيفة للجميع، ولم تساعدهم على شق طريق نحو معنى الحياة الدنيا. القرآن وحده، الكنز المجهول، قادر على الهداية إلى سبيل النجاة.

* * *

تطير التكنولوجيا من ثورة إلى ثورة. الأنترنيت، الأداة الثمينة للتواصل ونشر المعلومات العلمية، هو كذلك وسيلة لنقل كل أنواع الأذى.

تقلص شبكات الاتصال المتعددة حَيِّز التساؤل الجوهري إلى نصيب ضئيل لتثقل حياة الناس بالتوافه، لتقبرهم تحت ركام من المعلومات التافهة ولتغرقهم في سيل جارف من الأفكار الجاهزة.

هذه الشبكات المتطورة جدا، والتي يسهل أكثر فأكثر ولوجها، تميّع المعارف وتضع في خدمة الناس ما به يخدع بعضهم بعضا بواسطة تبادل المنوعات الجاهزة ذات الأصوات المتنافرة وبسعر رخيص. هذا إن لم يُلقِ مواطن عالم الإنترنيت، البحّار الملهوف، حبال سفينته في إحدى حفر الخلاعة أو في أحد أوكار المافيا.

الإنسان الحديث يجْهَد في خدمة ما يستهلك أمواله ووقته وزبدة حياته بعينها. يوفِّر أمواله أقل فأقل، ويُبذِّرُ وقته أكثر فأكثر. ألم يعلنوا عن أساليب ثورية تمكن الإنسان من تبديد حياته وتفتيت أيامه ولياليه في دقدقة الجهاز السحري الذي يقتصد في وقت الجميع بواسطة تبذير وقت كل واحد منهم؟ يبدو أن الهاتف المحمول سيقوم بدور الحاسوب وسيوزع الإنترنيت على الخط الكهربائي. وماذا بعد؟

أغنياء الشمال يمتلكون كل التسهيلات لتقديم حياتهم قربانا للشهوة، زبائن خاضعين للسوق الاستهلاكية أو مدمنين على إحدى وسائل التخدير. ضحايا آخرون للحداثة، ضحايا الجنوب، لهم من هذه الوسائل التي تتكرم بها عليهم الحداثة ما ينهك رأسمال حياتهم في البؤس الأسود. يموت منكوبو الجنوب في الحقد والبغض وهم يتخدرون بثمن بخس أو يقيسون حقارتهم بالتأمل في ثروات المترفين المعروضة.

إن حياة الإنسان الحديث مشتتة وبئيسة. بؤسه ملموس ومحسوب رغم أنه في بعض الأحيان يبقى مخفيا وخارج نطاق الوعي. أعظم أنواع البؤس لدى الناس ضحايا الحداثة العيش في المغالطة و«الحقائق» المزورة.

القرآن، الكلمة الربانية، هو الحق في خدمة من يريد بل من يقدر ويجرؤ في هذه الأزمنة القاحلة روحيا على فتح المصحف الكريم ويحاول قراءته. الإسلام ضدٌّ للجهل.

قد يصعب عليك بالتأكيد فعل ذلك، أخي الرجل، أختي المرأة، كيفما كان وفاؤك الإيديولوجي ودينك وانتماؤك السياسي، لأنك موزع بين ألف انشغال، شارد الفكر دائما، حزين باستمرار، متحرر من المشاغل نادرا. أتمسك باقتراحي عليك فتح القرآن، فقد يصادف فتحك المصحف الكريم وقتا مباركا أو يطفو على السطح ذلك القلق الذي يسكننا جميعا وندفعه حتى نستسلم لعدم المبالاة. قد يدفعك ذلك إلى إلقاء السمع وإلى الإصغاء إلى الرسالة. اقرأ منه صفحة، صفحة واحدة ! قد تجد فيها جوابا عن سؤال يطرحه عليك بانتظام صوت حميم.

* * *

يعالج هذا الكتاب هذه الأسئلة بالضبط التي يطرحها هذا الكائن الحميم على كل واحد منا. سيسائل الحداثة أيضا عن نظرتها إلى العلم وإلى المال وإلى الحكم. لكن قبل ذلك فليساير بعضنا البعض في المشترك بيننا حتى نتواصل جيدا. فلنشترك، سعيا لتواصل مثمر، في الإصغاء بخشوع إلى صوتنا الحميم وإلى استعدادنا الفطري لتَلقِّي الرسالة الإلهية التي تخبرنا عن النبإ العظيم.

لنكتشف حقيقة الوجود في سورة الروم. هذه السورة، وكسائر السور، تضع الإنسان على مسرح الحياة، حيث تتلاحق المشاهد حسب إيقاع أيام كل واحد منا ولياليه. كل واحد حر في أن يختار كيف يحقق خسرانه أو فلاحه. ينادي القرآن في مقدمة المشهد الممثل النموذج (أنا، أو أنت، كما

هو الحال هنا، أو هو أو هي) موضحا له حريته في الاختيار بين دورين، مقترحا عليه إمكانية، مانحا إياه جزاء، ملخصا له حياته الشخصية: الحياة ثم الموت ثم وراء ستار الموت المرخي عالم آخر، حياة أخرى: الحياة الحقيقية.

يقول الخالق سبحانه :

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُون يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُون وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً

مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

* * *

بعد أن عرضنا الأمثال التي هي أساس ثقافة المحاور الإسلامي للحداثة، قضينا وقتا من الصفاء في سماع فطرتنا للرجوع إلى النبع بغية تواصل عميق. نواصل سعينا في التفاهم المتبادل على امتداد هذا الكتاب الذي أرجو أن يساهم في تأسيس حوار بين عالمين : عالم الحداثة وعالم الإسلام. من الضروري الإجابة إذن عن أسئلة نراها ضرورية في هذا الإطار.

ما معنى تسليم الحداثة ؟

كيف تسليم الحداثة ؟

(1) سورة الروم، الآيات 17 إلى 28.

الفصل الأول

إسلام وحداثة

المعارضة لإثبات الذات

ما هي الحداثة؟

حداثة رأسمالية مسلحة

ما بعد الحداثة

حداثة وهوية

المعارضة لإثبات الذات

أليس علامة ضعف أن يكون إثبات الذات مرادفاً للمعارضة؟ أم أنه سمة من سمات الطبع البشري المهيمنة على سلوك الفرد المحركة لعجلة التاريخ؟ يخفي التحامل الغربي على الإسلام موقفا استراتيجيا لغرب مذعور من احتمال مواجهة تحالف إسلامي كونفوشي في الغد القريب. أم أن جلبة الاستعمار الخسيس لايزال صداها يتردد في ذاكرة أوربا التي تجتهد أن تنفخ في رماد الذكرى لعلها توري من جديد نار الفتنة؟

إن تعاهد الخلاف بين الغرب الحديث والإسلام ليس سوى تجل حديث لحقد قديم منصب على الشعوب المتحررة. بل إنه قد يعني إعدادا إيديولوجيا لصراع الغد الذي يتمناه الغرب والذي سيحل فيه «الخطر الأخضر» محل الخطر الأحمر رمز الشر المطلق. بهذا يتنبأ الأستاذ الموقر صمويل ب.هنتجتون في أطروحته ذائعة الصيت: «صدام» حتمي بين كتلتين سيكون أهمهما الإسلام. مؤامرة إيديولوجية وتصلب تزيده الأيدي الماكرة تعنتاً.

هكذا ينهل المُنظِّر المبجل للصدام بين الحضارات من واقع إسلام يغلي، من واقع جنوب آسيوي شرقي يتطلع إلى الهيمنة على السوق العالمية، من حال صين تشهد تطوراً مذهلا. لكن تغلب الأستاذَ أوهامُهُ الغربيةُ المذعورةُ بحق أو بغير حق، حين يصوغ براهينهُ.

هذا الـمُتَنَبِّئ الحديث بالكوارث المستقبلية ذو تكوين أكاديمي متين وسمعة علمية مشهود بها. لكن ذلك لا يكفي. يجب عليه أيضا أن يتقن فن التحريش، أن يدل قومه على كبش فداء، على ضحية تمكنهم من التنفيس عن حنقهم الناتج عن ضياع المستعمرات القديمة، عن الاندحار الأمريكي في فتنام، عن فشل السياسة الأمريكية الرعناء في احتواء الثورة الإيرانية.

لابد إذن من مواجهة الخطر الإسلامي الكنفوشي القادم بصناعة الخبر المشوه واستغلاله إيديولوجيا لتعبيد الطريق أمام الحملات القادمة على الإسلام، الهادفة إلى إفناء قوة الشرق الأوسط الكبرى. منطقة حل نعتها الجغرافي محل اسمها الإسلامي.

فالمصطلح الأمريكي «النبوءة ذاتية التحقق» /«المتحققة ذاتيا» يرسم ملامح البناء الممنهج لأطروحة الصدام: أتنبأ بالحدث ثم أراوغ وأجتهد لكي يتحقق كما تنبأت به فينخدع الجمهور. ولأن الذاكرة عليلة والعمق التاريخي منعدم فإن الهوس الأمريكي يلقي بمخاوفه على شاشة المستقبل لتتجسد في النظرية الهنتنجتونية بل في الأحداث الواقعية. فحرب الخليج الأولى ضد إيران، والثانية أيضا، تعبران عن مدى ضراوة الهجمة على إسلام منبعث، ضربات وقائية خوفا من وقوع سلاح فتاك في أيد عربية مسلمة ولو كانت أيدي حلفاء الأمس التي سُلحت بحماس لضرب الثورة الإيرانية.

لكن حين تُشَرَّحُ النظرية، تبتدئ الدوافع الخفية للسخط الغربي الذي يتجاهل مبادئه الديموقراطية ليجهض المسار الانتخابي يوم كاد التيار الإسلامي المندفع في الجزائر يقطف ثماره.

يتجلى الخلاف الثقافي والحضاري بين الإسلام والغرب في الاختلاف بين تاريخين، بين عقليتين، بين تصورين للإنسان والكون. لكن التهويل الإيديولوجي الخطير يصاحب الإثارة التي تتميز بها وسائل الإعلام الغربية الجشعة المأجورة، المتلهفة يوميا على الجديد الكفيل بتخفيف سأم جمهور أتخمه الهذر.

لا جدوى إذن من التنديد، من مقارعة الأحكام المتحيزة. ولامناص من التفكير المتأني المتئد الذي يفرضه الإسلام. لابد من رفع الحجب لتتبدى الدوافع القابعة خلف التصريحات العدائية والتنظيرات المُغرِضة لدحر المؤامرة المجتهدة في تشويه صورة الإسلام وتضليل الرأي العالمي.

فلقد أضحى فن التلاعب بالرأي العام علماً قائما بذاته يمتهنه المحترفون المنعَم عليهم بسخاء و«المتخصصون» المتشدقون بالهذر المعقد: دفعات من الخطباء المتلاحقين المنكبين على تشريح «ظاهرة إسلامية» تم حصرها في «المظاهر الغريبة» لهؤلاء البله المقمصين الملتحين، ولهاتيك المحجبات اللواتي يثرن البلبلة ويؤلبن عليهن «أمَّ الحرية». حتى إذا تكرم أحدهم واستشهد بقول أحد الإسلاميين استفرغ جهده في تقطيع بضع جمل وفصلها عن سياقها، أو تصيد تصريحا حادا لأحد «الزعماء» الفولكلوريين الذين تخضع صورتهم للمواصفات التي يريد

الصحفي أو المحلل تمريرها، بينما يُجهض صوت الفكرة الجادة المسؤولة التي تنطق بها أفواه الإسلاميين، ويعتم عليها لإضفاء المشروعية على الأحكام المتحيزة الرائجة.

إثبات الذات عبر المعارضة لا يتم إلا بالإشارة إلى الآخر، بالاستعانة بالرسم الساحر الذي يصور تميزه: غرابة الأجنبي، وقاحة البلدي السابق الذي يجرؤ على محاولة إثبات هويته.

هكذا تُضخَّم المميزات الثقافية والاجتماعية وتوضع تحت المجهر، ليتم تمريرها عبر القناة السياسية التي تحكم على الاختلاف الثقافي والاجتماعي بما يقمع المتمرد ويلزمه العودة إلى «الجادة» بإعلان طاعته ورضوخه للهيمنة الغربية.

ما هي الحداثة؟

لنحاول الإفلات من قبضة الجدل الحاد الذي تثيره الحملة الشعواء على الإسلام. لنحاول طرد التأويلات المتعجلة التي يولدها ويغذيها الجدل المضاد.لنلق السمع بأناة إلى الحداثة وهي تخبر عن نفسها، وهي تعرف ذاتها، دون أن يمنعنا ذلك من أن نسمح بين الفينة والأخرى للنظرة الخارجية أن تدلي بدلوها.

لقد أصبحت لفظة الحداثة رائجة في فرنسا الظافرة منذ الخصام الأدبي بين أنصار الجديد وأنصار القديم في القرن السادس عشر. منذ ذلك الحين، أضحت الحداثة الضاربة بجذورها في عصر النهضة التي أيقظت أوربا من

سباتها الوسطي منهج الحياة والتفكير والحكم، معلما يسترشد به الإنسان الأوربي، أسلوبا اجتماعيا وثقافيا للحياة مناقضا لعصر وسيط أصيل ولعالم خارجي محكوم عليه بالهمجية ثم بالاستعمار والتخلف والإذلال. فتجاوز العالم الخارجي واحتقاره بل الاعتداء عليه عواطف حركت ولاتزال تحرك الحداثة ضد عالم منبوذ لا يستحق التمتع بالكرامة الحديثة.

لقد كانت الإنجازات العلمية والتقنية –ولا تزال– الحجة الدامغة على تفوق الحديث على العتيق الآخر، دليل قاهر على الضحالة الثقافية للآخر، بل عصا غليظة تبرر الاستعمار العسكري والاقتصادي لعالم الجنوب الذي أضحى سوقاً ومزبلة تستقبل منتجات الحداثة[1]. ركام من المنتوجات المادية والثقافية والفضلات: نفايات ملوثة للبيئة.

أستشهد هنا بعالم الاجتماع الفرنسي الشهير ألان تورين الذي يحلل وينتقد الحداثة فيعرفها بأنها ثورة الإنسان المستنير على التقاليد، بأنها تقديس للمجتمع، خضوع لقانون العقل الطبيعي. الحداثة حسب نظرته الغربية هي «إنجاز للعقل، للعلم خاصة، للثقافة والتربية. لذلك يجب أن تنحصر أهداف السياسات الاجتماعية التحديثية في تعبيد الطريق التي يسلكها العقل بإلغاء التقنينات

(1) A.Touraine, Critique de la modernite, éditions Fayard, Paris.
نقلا عن: D.Wolton, Penser La Communication, Flammarion, Paris 97, P.384

والموانع الحِرَفية والحواجز الجمركية». هكذا نجد أنفسنا أمام إيديولوجية حَداثية تدعو إلى «إخلاء الطريق» لكي يبدد «الإنسان المستنير» ظلام «التقاليد» التي تتمثل عند الغرب في «المستنيرين» من أبناء الإسلام الظلامي.

وحين يتحدث تورين عن العتيق ويقابله بالحديث، يفكر أبناء الحداثة -الدين الجديد- الطيعون المطيعون في إسلام يجب تجاوزه ولفظه باعتباره أمراً باليا يجلب العار على أهله.

«تقديس» إذن وخضوع لقانون العقل الطبيعي، مما يستلزم لدينا التمرد ضد المقدس الإلهي والكفر به إذا أردنا أن نكون من أتباع الحداثة. فالحداثة الإيديولوجية لاهم لها إلا إخلاء الطريق: محاكمة عنيفة لغير العقلي من طرف العقلانية، حجة قاهرة تدمغ بها التقنية العلمية المسلحة الثرية التقاليد الرثة. هيا! أخلوا الطريق! تفرقوا ! في الحين، يخفي الحداثيون الأهليون المرحبون بالاستعمار المُستَعْمَرون وجوههم خشية أن تفجأهم عين الضابط متلبسين بالعصيان، مخالفين للتعليمات.

أما الإسلام فخضوع لله عز وجل، خضوع مسالم لا يعْنُف على الآخر، لا يستكبر، لا يمحو هوية الآخر لتخلو الساحة فيمر الموكب المهيب المتفرد.

هنا تختلط المفاهيم بسرعة. فما دام في القضية خضوع، فلنخضع للعقل الذي أزهر وأثمر الديموقراطية. ففي المجتمع الديموقراطي، أخضعُ لقانون ساهمتُ في صياغته بدل أن أستسلم لكاهن مستبد أو لاستبداد يستمد شرعيته من

الحق الإلهي. والواقع أن مطالعة التاريخ المضطرب للمرحلة التي خضعت فيها الشعوب المسلمة ولاتزال لجور الأنظمة الإقطاعية قد تغري بتبني هذا الاستدلال.

لكن الحق إن إسلام الرسالة، إسلام الشريعة العادلة، إسلام الخضوع لله وحده تم السطو عليه والانحراف به من أجل قهر المسلمين طيلة عدة قرون.

أما الحداثة فتزحف على الساحة الدولية بحماس علها تفرض فكرها الوحيد، واثقة بنفسها، واسمةً كل معارض لها بالتخلف المعترض سبيل التقدم. فلتسقط التقاليد البالية! وليعلُ المنطق الجميل، المنطق المهيمن: أنا أفكر إذن أنا... وحدي أفكر، أنا الفكر الوحيد ! لقد مارس الغرب الحداثة فكرا وسلوكا باعتبارها ثورة على ماضيه المقيت، ماضي مؤامرة حاكتها الكنيسة والأمراء الخاضعون لها، الحريصون على الامتيازات التي منحها لهم النظام الإقطاعي المستعبد للبشر، المسخِّر لهم أقناناً في خدمة السيد النبيل.

وتمكنت الثورة البورجوازية مسترشدة بأنوار القرن السابع عشر الموسوعي العقلي الطبيعي من مَحق المكتسبات الكهنوتية الإقطاعية لتحتفظ بالقيم المبنية على البرهنة العلمية الخالصة، ليستنتج عالمنا الاجتماعي «أنها [الحداثة] تمحو المعتقدات وأشكال التنظيم الاجتماعي والسياسي»[1].

هكذا برز فكر سياسي جديد يستبدل بالإله المجتمعَ الذي أصبح مبدأ الحكم الأخلاقي، وأضحت «هذه الفكرة مبدأً أساسيا من مبادئ

(1) نفسه، ص 384.

الإيديولوجية الحداثية: أن المجتمع مصدر القيم أي أن الحسن ما كان نافعا للمجتمع، والقبيح ما أضر بانسجام المجتمع وفعاليته»[1].

ازدادت أهمية الدور الثوري للفكر الحداثي بعد النجاحات الباهرة التي حققها في المجال العلمي والتقني، ليستمتع بنضجه الهادئ خلال القرن التاسع عشر العلموي المستكشف، وليصرخ بانتسابه النهائي إلى الطبيعانية والتطورية، جاحداً كل إله سوى العقل، معلنا ولاءه المطلق للطبيعة.

لذلك «يؤكد الفكر الحداثي –حسب تورين– أن الكائنات البشرية تنتمي إلى عالم تحكمه قوانين طبيعية يكتشفها العقل ويخضع لها في نفس الآن. ومن ثم يصبح الشعب مرادفا للأمة، لجسدٍ اجتماعي يخضع اشتغاله هو أيضا لقوانين طبيعية، مما يلزمه بالتخلص من الأشكال التنظيمية غير العقلانية التي تحاول كسب الشرعية بالتمسح بوحي أو بقرار غيبي»[2].

حداثة رأسمالية مسلحة

كل ما لم يكن موافقا لنظرة الفكر الأوحد إلى العالم كان باطلا مناقضاً للقانون «الطبيعي» فوجب تنحيته عن الطريق ليفسح المجال للحق. عتيق يستبدل به الجديد.

(1) نفسه، ص 384.
(2) نفسه، ص 384.

ذلك أن الحداثة لم تكن مجرد فلسفة محلقة في فضاء التصورات المجردة، مجرد استدلالات تتضارب في منتديات المتأدبين، بل كانت منذ ولادتها ثورة مُطوِّرة تهيج الواقع المُحَس وتزعجه، فتاكة بالقديم، مجهزة عليه.

هكذا، ببطء في مستهل عصر النهضة لتتسارع العجلة فيما بعد، لتزحف العلوم والتقنية، فلسفة الأنوار والحركية الاجتماعية، تغذيها إيديولوجية حادة عنيفة.

تحركت الثورة الفرنسية ومن بعدها الانقلاب القاتل الذي قام به الإمبراطور نابوليون لتسري حمى التغيير الجارف في أوصال أوربا. وتحركت عجلات ثورة أخرى أعمق أثراً: الثورة الصناعية التي مكنت أوربا من الإثراء والتسلح لتخوض الدول/الأمم الأوربية حروبا أكثر حداثة، أي أشد ضراوة من المجازر اليدوية التي مثلتها الحروب النابوليونية. كانت الرأسمالية المصنعية ثم الصناعية، المُمكننة، في حاجة ماسَّة إلى فضاء حيوي. لذا كان من الضروري اللجوء إلى إخلاء الطريق، لأن أهداف السياسات الاجتماعية التحديثية تنحصر حسب تورين في إخلاء السبيل أمام العقل، بإلغاء كل القوانين، كل الموانع الحرفية أو الحواجز الجمركية. وذلك لا يتم حسب عالمنا الاجتماعي إلا «بمَدِّ المقاول بالسلامة والتوقعية اللتين يحتاجهما، وبتكوين مدبرين وفاعلين أكفاء ومسؤولين»[1].

(1) نفسه، ص 384.

فمنذ ولادة الحداثة الفيلسوفة، الثورية، المتاجرة والمروجة، برز الاهتمام بخدمة المقاولة وتحطيم الحواجز التي تمنع من فتح أسواق لها. لم تكن دوافع الحروب التي تواجهت فيها الدول/الأمم الأوربية وحملات الاجتياح الاستعماري استراتيجية فقط، هدفها الدفاع المشترك بل كان ولا يزال اقتسام الموارد الاقتصادية وفتح المنافذ لتصريف المنتوجات الصناعية رهان المنافسة المسعورة التي ما فتئت تهز العالم وتشعل الحرائق. لم تكن الحروب الأوربية الداخلية والهجمة الاستعمارية رغم ضراوتها سوى مقدمة للحروب الاقتصادية الحالية والقادمة، فالحداثة الإيديولوجية والآلة الطاحنة لحداثة الكتلة الإنتاجية لم تستنفذ بعدُ ما في جعبتها من سهام العدوانية.

الآن بعد أن اتسعت رقعة الهيمنة ما بعد الحداثية وتجاوزت حدود العالم الغربي، يتسلم النظام العالمي الجديد اللواء ليتابع السياسة الرأسمالية التوسعية، هذا الوليد المتوحش للحداثة، المتقمص لباس العولمة، المزداد سعارا يوما بعد يوم.

جاءت الحداثة لتسحق بنيات إقطاعية كانت تحتضن تنظيمات إنتاجية حرفية في إطار هيئات تمثل أُسَراً حِرفية ترعى في ظل أرستقراطية مترفة الرابط الإنساني الذي يجمع المتعلم بالمعلم والعامل بصاحب المعمل.

فجأة، حلت القاعدة الرأسمالية الخارجة من رحم عقل يسعى قبل كل شيء إلى الفعالية وفائض القيمة ليتلاشى التضامن بين الحرفيين الأحرار وبين الجمعيات المحكومة بالقانون العرفي، لتُمحى هذه المفاهيم من سجلات العهد الحديث.

فرغم اعتراف الحداثة بلسان ذويها من الاجتماعيين أنها جرافة تخلي الطريق أمام التقدم، محت الثورة الصناعية من المشهد الاجتماعي التضامن الحرفي والضيافة القروية المسالمة. وهكذا، اضطر الريفي الذي كان يعيش عيشة الكفاف المطبوعة بالمودة الإنسانية إلى مغادرة حضن أرضه الدافئ قاصداً المدينة حيث يغذي صناعة جماعية شرهة إلى اليد العاملة. هكذا ألقي بملايين الأشخاص بين مخالب البؤس البارد المخيم على الضواحي الصناعية لتزدهر رأسمالية تدين بدين الربح،دين حل تدريجيا محل اللاهوت الثوري (كائن روبسبير الأعلى) الذي طرد الكنيسة.

شغَّلت عبادة العجل الذهبي حركيةً عملت أولا على تفصيل المجتمعات الأوربية لتنكب بعد ذلك على العالم تقسمه إلى إمبراطورية استعمارية. تداعى إذن مخططون غازون –مدفوعين بالرغبة في كسب الأمجاد لدولهم– على خريطة العالم ليُفَصِّلوها على هوى مصالحهم الاستعمارية مدعومين بمهندسين حاذقين مُسخَّرين لخدمة العلم حسب رغبات القوى الاستعمارية.

حربان عالميتان في هذا القرن العشرين أظهرتا مدى القوى المخربة التي تملكها الحداثة. عجزت الأمم الأوربية الحديثة أن تتقاسم أسلاب الشعوب المستضعفة فضحَّت بأجيال كاملة على نصب المنافسة الضارية بين القوى الاستعمارية الشرسة المتسابقة على خطب ود من يخترع أشد الأسلحة فتكا وتدميراً.

لم تكن المغامرة الهتلرية الدامية الباحثة عن المجال الحيوي سوى التجلي الحاسم للتطور الحديث المبني على العقل والمسخر لتحقيق الفعالية. هكذا سُخرت دبابات هتلر التي كانت تمثل قمة التقنية آنذاك، للهيجان المسحور المستبد بمُنَظِّر إيديولوجي مجنون ممتلك لأحدث الوسائل، فأضحت منذئذ الهتلرية المقترنة بالحرب العالمية الثانية المدمرةِ أفدح جائحة أصابت الإنسانية.

لقد تميزت هذه الحرب الحديثة عن المغامرات التي تنتمي إلى الصنف النابوليوني والتي كانت الأسلحة اليدوية البدائية توزع الموت فيها بالتقسيط، باعتمادها على وسائل التنظيم والاختراع والصناعة والاستراتيجية العسكرية المطبوعة بطابع العقلية. فالحرب الهتلرية ليست سوى الابنة الشرعية لحرب 1914 الضارية: بنوة بشعة وصيرورة جهنمية للعنف الحديث، الرأسمالي، الإمبريالي، المنكب على عبادة الفعالية والربح. لكن هذه الحروب ليست سوى انفجارات مؤقتة لبركان ينخر أعماق المجتمع الحديث ويفرغ بدون إخماد حممه الملتهبة على المحيط البيئي والحياتي.

ثلاثة أسلحة إذن تتكون منها ترسانة الحداثة الحداثية: سلاح النقد الذي تُشَغِّله الإيديولوجية الحداثية، والسلاح الرأسمالي الذي يعبد صنم الربح، والسلاح المادي لإخلاء الطريق أمام الرأسمالية والأفكار التي تبنيها.

فالنقد الإيديولوجي -أفتك الأسلحة الثلاث- يهاجم كل قديم ويحكم عليه بالبدائية لأنه يقوم على الغيب الذي يجب لفظُه باعتباره

خداعا يستند إلى «وحي» أو قرار «متعال على البشر». بذا يكون الإسلام مستهدفا مباشرة من طرف الحداثة ما دام يقوم على وحي مقدس وما دامت مرجعيته هي رسل الله عليهم السلام.

لابد لنا هنا من التنبيه إلى أن نَعْتَ أمر إلهي بأنه «متعال على البشر» يشكل قطيعة في المستوى التجسيمي حيث نحط من قدر المقدس حين نمنحه نسبة من التفوق على ما هو بشري. فهذا النعت «متعال على البشر» ليس مجرد صيغة لسانية بل هو تعبير عن إيديولوجية تضرب بجذورها في التربة الوثنية لتبلغ العقائد الهلينية المؤمنة بجبل أولمب الآهل «بآلهة» و«ببشر خارقين» يتسافدون مع البشر ويقاسمونهم أهواءهم وعاداتهم وتقاليدهم.

إن سلاح النقد الذي تحركه الإيديولوجية الحداثية يقطع ويفصل عقول عدد من مواطنينا الذين استلبتهم كلياً أو جزئياً الأليكة المنهجية بواسطة الهجمة الثقافية، ونحن ندرك أن الدعاية الحالية المناهضة لحضارة الإسلام ولعقيدة الإسلام لن يكون لها أي وزن تاريخي لولا أن البهتان يصدر عن الشك والشقاق والكفر التي زرعتها الحداثة في العقول.

إننا نؤمن أن التصفية الجسدية لم تأت قَطُّ على الأفكار وأنها لا تستطيع أبداً اجتثات الإيمان من القلوب والاقتناع من العقول. لكننا ندرك في نفس الحين أن إعادة تربية الناس وتخريب نفوسهم ببث الشك فيها ووصف الوحي بالكذب والافتراء، تعني اقتلاع أسس الشخصية، والقيام بالتدمير الغادر الذي يَعجز عن

بلوغه النهب الاقتصادي والاجتياح العسكري. فترويض أجيال على استجداء غِذائهم الثقافي من السيد المفكر، السيد الذي رفعته حداثته إلى مقام التقديس، يعني تهييء حلفاءِ ثِقاتٍ سيتجندون دون شرط لتنفيذ تعليمات السيد، كما يعني القفز بهم إلى مواقع الحكم، أُجراء طيعين رغم أنهم يصدحون بشعارات وطنية طنانة.

هؤلاء العُملاء، المنتدبون في بلدانهم، المُرْتدون الأقنعة المحلية، أفظع من المحتل الرأسمالي المُطِلِّ على الساحة، المستقر بسهولة في بلدك لنهب اقتصادك.

ليس السلاح العسكري إذن وسلاح الرأسمالي سوى أداة للاكتساح الحضاري: إنها الحرب الشاملة.

ما بعد الحداثة

كانت المدفعية الاستعمارية والرأسمال الاستعماري مسخرة لإيديولوجية غلبت في ديارها فأيقظت وسلحت النوايا التوسعية، وخضعنا للحداثة. وما زالت الحداثة تُمارس علينا بشكلها المتطور المسمى ما بعد الحداثة، أما توازن هذا الشكل من السيطرة الحادة فيضبطه التنافس العالمي والتسابق نحو الأسواق السهلة المفتوحة.

نحن مستهلكون للحداثة، أشياء تسخرها طوعا أو كرها الحداثة، مزابل رخيصة تلقي فيها الحداثة بنفاياتها الملوِّثة، حيوانات مختبر تجري عليها الحداثة

تجاربها. ألا تُكْتَشَفُ باستمرار فروع سرية –سواعد إجرامية للمختبرات الأوربية– تُجرِّب منتوجات صيدلية على الأفارقة وعلى شعوب جنوبية أخرى مباشرة بعد تجريبها على الفئران والقردة؟

كل هذا ليبقى الرجل الأبيض في مأمن من التقلبات الصحية.

لم تعد عملية اغتيال حياة الشعوب الفقيرة المستضعفة محصورة كما كان من قبل في المجازر التقليدية، بل أصبح حيوان المختبر الجنوبيُّ – المسلم غالبا– ملزما دون أن يدري بافتداء حياة وصحة سيده الغربي بحياته وصحته. أصبحنا رهائن لعهد ما بعد الحداثة ذي الأيدي الأخطبوطية المجرمة. دمُنا، بعد أن كان يهدر، أصبح الآن يُمتص، يُلَوَّث، يُستنزَف.

لكن هذه الحال يجب أن تنتهي. يجب أن نستنقذ قَدَرنا ونقفَ على قدم المساواة مع الحداثة. يجب أن نمتلك المكتسبات الإيجابية للحداثة دون أن تخدعنا طنطنة ما بعد الحداثة، دون أن تبهرنا الدعاية الحديثة التي ستجهد لبيعنا بضاعتها الزائفة بالثمن الخيالي.

حينئذ سنكون زبناء للحداثة لكن بشروطنا، إذ يجب أن نتصرف باعتبارنا مشترين يقظين للحداثة، لأن المشتري الحاذق يفحص جيداً البضاعة ويحاول أن يكتشف التلف ويكشف عن الزيف.

لهذا الغرض، نطرح على الحداثة هذا العدد من الأسئلة، نحاسبها على الماضي. ولأننا ننوي مطالبة الحداثة بالعدل والمساواة، لابد أن يبدأ مشروعنا لتسليم الحداثة بطرح الأسئلة واستكشاف الأرضية عَلَّنا نكتشف مواقع نلتقي فيها.

إن مدَّ اليد ببلاهة ليعلم الآخر أننا زبناء مسامحون كرماء لا يجدي شيئا مادام كل واحد يغتال في الخفاء الأسئلة المزعجة. ولا أمل في لقاء الإسلام والحداثة يوماً من الأيام دون أن يكونا طرفي تعارض دائم أو نقاش متصارع أو صراع دون نقاش إلا إذا كانت هناك صراحة متبادلة، «شفافية» عزيزة المطلب نادرة الوجود.

يوما ما، بعد أن تمر تقلبات الرفض الغربي، سيكون إسلام الاقتناع والإسلام العددي (أربعون في المائة من البشرية منتصفَ القرن القادم حسب أصحاب الدراسات المستقبلية) الحدث الأهم والرقم الذي لا يمكن تجاوزه. سيكون العالم الإسلامي غداً -بإذن الله- أفقاً فسيحا منفتحا للتفاهم والسلام، لاحترام الثقافات المختلفة وتقدير الطبيعة التي تلوثها حداثة العهد الصناعي وعهد ما بعد الصناعة.

يوما ما سيكون عهد ما بَعْدَ البَعْدِ إسلامياً لأن الإسلام رسالة الله عز وجل، ولأن الأزمة الدائمة لما بعد الحداثة ستصل أخيرا بسكان هذا الكوكب المريض إلى الطريق المسدود بعد أن يصطدموا بالظلم الذي سيستحيل على

ثلاثة أخماس البشرية أن يتحملوه، وبعد أن تنتقل المنافسة الاقتصادية من مرحلة حروب الأسواق إلى مرحلة التهديد النووي، آخر سهم في جعبة العمالقة المسحورين.

أي نظام عالمي، أي انضباط دولي، أي نظام قانوني، أي منظمة للأمم المتحدة، أي «دركي للعالم» يستطيع أن يحول دون وقوع حروب اقتصادية تدور اليوم في الخفاء لتنفجر غداً في يد من يدير خيوطها اليوم؟

لكن في انتظار ذلك، مازال هذا العملاق المتمثل في عالم ما بعد الحداثة واقفا على قدميه لحين من الدهر، فأعراض الانحلال الخلقي تعلن عن نهاية دورة حضارية معينة وإنْ كان أجلُها يبدو بعيداً. والله وحده هو الرب، وحده الحاكم، وحده العليم عز وجل.

في انتظار ذلك، لم يعد أحد يصغي إلى أمثال سبينجلر وتوينْبِي، فالآذان أصبحت تتجه نحو أمثال هنْتِجْتون الذين لا يبصرون أبعد من أنف تحليلهم الأحول الحساس.

في انتظار ذلك، لاجدوى من مناقشة احتمال تسلم الإسلاميين قريبا للسلطة. فالنضج المتزن لن يتحقق إلا بعد سنوات أو في غد قد يمتد عقديْن أو ثلاثة عقود من الزمن. وحده الله عز وجل يعلم ويحكم.

في انتظار ذلك، لاجدوى من الحديث عن اقتصاد يحكمه العدل، عن تنمية غير متوحشة، عن نمو صديق للإنسان والطبيعة إلا من حيث أن تحقيق هذه المطالب

رهين، بعد التمسك بشرع الله، بامتلاك المهارات العملية التي يقدمها عصر ما بعد الحداثة.

في انتظار ذلك يجب التشمير عن ساعد الجد، لأن مشروع تجاوز ما بعد البَعْد لن يتم إلا بامتلاك الموجود والتحكم فيه. سيكون علينا أن نُكيف تدريجيا الممارسات الاجتماعية الغابوية بتليينها، بنفخ الروح الإنسانية فيها، بتدجين ضراوة العولمة التي تستميت في تدمير البيئة وصنع البؤس المصدر إلى أربعة أخماس البشرية حتى تظل أقلية محدودة تتمرغ في النعيم وتسترخي في فراش الاستهلاك الدوابي المترف. سيبقى عهد ما بعد الحداثة لحين من الدهر وسيقاوم الاستعمار الجديد العالمي نمو حضارة إسلامية جديدة. سيدفعه تكالبه على الربح وحاجته المتزايدة إلى الطاقة التي يملكها المسلمون إلى المعارضة والعرقلة، لأن السياسيين الغربيين حين يجعلون المصلحة الفورية معيار تفكيرهم، لا يعلمون أين تكمن مصلحتهم الدائمة.

أوقات عصيبة تنتظرنا، لكن الله عز وجل ربنا وحامينا هو وحده القهار.

فمنطلق التاريخ يُحتم بروز حضارة إسلامية جديدة، وتوحيد عالم إسلامي غني بموارده الطبيعية التي يجب تثمينها وبخزان بشري فتي وحيوي. هاهي ذي إحصاءات ساكنة غربية شائخة تنحدر نحو الفناء، وتكاثر مذهل لشبيبة إسلامية خصبة تعلن تداولا حضاريا جديدا لن يفلت الغرب– إذا ما استمرت الأسرة والزواج في الاندثار– من الاختفاء التام. لن تستطيع الساكنة الهزيلة —

عدداً– أن تتحمل الدور المهيمن الذي يزعم الغرب القيام به في الساحة الدولية، فالشذوذ المعلن المصحوب بالأمراض التي كانت من قبل مُخزية والتي يُعترف بها اليوم بسذاجة سيقصم ظهر هذه الحضارة المستكبرة المتفاخرة.

لابد إذن أن تبدأ دورة حضارية جديدة وسيادة حضارة إسلامية جديدة تقوم على الوحدة الإسلامية. ذلك هو منطق التاريخ بل هو ما أعلنه الرسول صلى الله عليه وسلم حين تكلم عن الخلافة الثانية على منهاج النبوة.

أقف هنا لأدع التوقعات المستقبلية تنحني أمام الوحي، وإلا كانت تحليلاتنا مجرد لغو وثرثرة.

حداثة وهوية

ذلك هو واجب الحسابات البشرية التوقعية: أن تنحني أمام الوحي النبوي. واجبها الثاني أن تستعد وتقتحم العقبة بخطى ثابتة غير متعجلة، فالهدف ليس هو اللحاق بالحداثة الحائدة عن سكتها أو تحقيق حلم اللذة الاستهلاكية الذي يعدو خلفه عهد ما قبل الحداثة وعهد مابعدها. بل هو امتلاك الوسائل العلمية والتقنية التي يستمر عا لم التكنولوجيا المتطورة في تطويرها من أجل تكييفها لغايتنا الاجتماعية : العدل، وغايتنا الشخصية: الإحسان.

هناك قانون للعبة يجب أن ندركه جيداً: أن الغرب لن يدخر وُسعا في زرع الألغام في طريقنا وفي محاولة إجهاض خططنا. لكن أي وزن للغرب باعتباره

طاقة علمية وكفاءة تكنولوجية في مستقبل بدأت تباشيره تلوح؟ بل أي وزن له حاليا في عا لم التكنولوجيا المتقدمة إذا ما قارناه بالإنجازات والآمال المشروعة التي تتحرك في ضفاف المحيط الهادئ؟

فالغرب —مهد الحداثة– يتخلف عن الركب ويحاول أن يتحصن بمواقع دفاعية تمكنه من مواجهة المنافسة الصفراء ذات اللون الأهلي والمنافسة الأصيلة والهوية الصاعدة المعتزة بمميزاتها. انتهى به الحال إلى أن أصبح يمد عنقه ويغرس مراكزه التجسسية لمحاكاة كل ما يتم صنعه في الضفة الأخرى وما يُطَوَّر في أصقاع أخرى. أصبح يُثبت بصره على أصداف الجواهر التكنولوجية التي تحتويها المختبرات اليابانية وينقل الأسلوب الياباني.

تنظيم العمل والتفاهم السلمي بين أرباب العمل وقوى العمل. ولا عجب ! فعصر ما بعد الحداثة اليوم آسيوي، وغداً ستُتم الصين يقظتها، فالصين ترعب أتباع هنتجتون بحجمها الضخم، ورصيدها الهائل، ومعدل نموها فائق السرعة، المتزايد، يُثير غيرةَ وطمعَ غرب لا تتجاوز توقعاته التنموية الأكثر تفاؤلاً نسبة ثلاثة في المائة.

أما تنينات جنوب آسيا أتباع النموذج الياباني فتثير الدهشة بمرونتها وفعاليتها وبالسرعة التي تجتاز بها المراحل وتفرض وجودها حتى على سيليكون فالي الكاليفورنية ذائعة الصيت.

ورغم أن اقتصادات بلدان الجنوب الآسيوي تعرف أزمات مالية ناتجة عن الرشوة وقلة الثقة فإن ذلك لايفت في عضدها؛ أزمات نمو فتي يسارع الغرب المذعور إلى تصريفها حتى لا تنتقل العدوى إلى الاقتصاد العالمي المتأثر حتما بما يجري في بلدان التنينات الصغيرة التي لا يمكن الاستغناء عن مساهمتها المتنامية.

أصبح من الواضح أن ثقافة الحذر والرفض، بل الاحتقار المستعلي، التي كانت الحداثة الغربية تغذيها وتوجهها نحو المستعمرات السابقة الآهلة بالبلديين العاجزين بدأت تستسلم للأمر الواقع. وبدأت البلدان الساعية نحو الكرامة –مثل ماليزيا ذات الأغلبية المسلمة وأندونيسيا بمسلميها الممثلين نسبة تسعين في المائة من السكان– تتمتع تدريجياً إن لم يكن بمودة سادتها السابقين فعلى الأقل بالاحترام الذي تفرضه الأمم القادرة على نزع ما تفرضه الحداثة من تفوق علمي وتقني وتنظيمي مع الاحتفاظ بهويتها الثقافية.

كما أن بروز التقدم الاقتصادي الذي تعرفه الهند والفتنام على الساحة ومشاركتهما في السباق التنافسي لابد أن يلزم الثقافة المتعجرفة بمواقف أكثر تصالحية وأقل احتقارية. أما باكستان التي لاتزال تسير ببطء، وبتصميم أيضاً، فيزعج تقدمُها هذا الغرب المتذبذب بين الهلع الناتج عن احتمال امتلاك بلد إسلامي للسلاح النووي وهمِّ المحافظة على التوازن في هذه المنطقة الاستراتيجية. ندرك أيضا أبعاد اغتيال الجنرال ضياء الحق، الرجل النزيه المعلن عن مبادئه الإسلامية، حين استبدلوا به بنازر بوتو المرأة المنتمية إلى «النخبة

المُغربة»، الحليفة المخلصة دائماً، رغم نصف الخمار الموضوع على الشعر المصفف والوجه المُلَمَّع.

لكن التشنج المَرَضي للأمريكان يتخذ غرضاً له إيران الإسلامية -مصدر تخوفاته- التي تعتبرها أوربا زبونا غنيا يجب الرفق به ومعاملته بـ«دبلوماسية حذِرة» ليتبين لنا مدى حَرج الغرب الموزَّع بين موقفين متعارضين: دبلوماسية حَذرة تتعامل مع دولة قوية ثرية تكذب باستمرارها واستقرارها كل التوقعات الغربية التي كانت تحكم عليها بالفشل والفناء. فهؤلاء المعممون، المرتدون هذه الأزياء الغريبة، آيات الله هؤلاء، ينبذهم الذوق الغربي ويحكم عليهم بالعجز عن التفكير وتدبير الحداثة كما يفعل عملاء الغرب المحبوبون.

لكن الدولة الإيرانية برزت للوجود لتبقى، وخاب أمل الذين يجهدون لزرع الشقاق بين السنة والشيعة، لأن الخلاف العائلي بيننا نحن المسلمين سيخبو بعد أن نتعاهد مبادِئَ التفاهم والتآزر الذين حثنا الإسلام عليهما، عاجلا أم آجلا، سيتم ذلك بإذن الله.

بقيت البلدان العربية مهد الإسلام ومحور تاريخ الإسلام.

لماضي حضارتنا -المسماة خطأ عربية- أثر هائل على حاضرنا. فنحن العرَب نحمل من ثقل إرثنا أكثر مما تحمله الشعوب المسلمة الأخرى التي شاركت بفعالية طوال قرون عديدة في البناء الإسلامي. ترزح ذاكرتنا

وذهنيتنا ومخيلتنا تحت ثقل التاريخ، فتصبح سداً يمنعنا من العودة إلى أصولنا لنتعرف من جديد على هويتنا كما تمنعنا من اقتحام أمواج الحداثة المتلاطمة نحو مستقبل نلتقي فيه بذواتنا الأصيلة، بدل أن نظل مجرد كائنات ذات هوية هجينة.

ذلك هو محور النزاع بين الإسلاميين، المتكاثر سوادهم، و«النخبة المغربة» المتعلقة بامتيازاتها؛ صيحة الهوية المفقودة، طلب الهوية الضائعة في دوامة الحداثة، البحث عن الهوية.

لقد سلكت أوربا العجوز طريقا طويلا لتتجاوز عصرها الوسيط وتمر إلى عهد الحداثة، لكن لا حقَّ لها في أن تنكر علينا سلوك سبيل آخر يمكننا من طرد الوسن عن أجفاننا وتحسين حالتنا. أفدح غلط يمكن أن يَرتكبه الغرب هو أن يتجاهل التيار العميق الذي يحرك العالم الإسلامي، عربه وبَربَرُه، فُرسه وتُركهُ...

أقبح خدمة يمكن أن تقدمها أوربا الجنوبية، أوربا اللاتينية، إلى مشروع اتحادها مع باقي أوربا هو إخلالها بالمسيرة الأوربية حين تُصِرُّ على صداقة الطبقة السياسية الهرمة التي تحتضر في الضفاف الإفريقية، وتستغيث بالوصي الأوربي. عملية إغاثة محفوفة بالمخاطر.

تتعالى تحذيرات بعض المفكرين والسياسيين الأوربيين الذين يملكون من بعد النظر وعمق التجربة ما يمكنهم من رؤية الصداقات الهرِمة قطيعةً مع المستقبل تستند إلى ذرائعية قصيرة النظر.فلقد كان اندحار الشاه وسقوطه

درساً سرعان ما لفه النسيان إن كان قد لفت الانتباه أصلا. تُكرَّرُ نفس الأخطاء، ويتَّبع السياسي الأوربي الدائر في فلك الهموم الانتخابية خطوات صناعة صحافية تملك الإثارة ولا تهتم إلا بمضاعفة مبيعاتها.

هكذا يتعاون السياسيون والإعلاميون على صناعة صورة «إسلامي» ذباح لاتوجد إلا في رؤوسهم، لتتماثل العصابة العسكرية الحزبية التي تدعو إلى العمليات البشعة في الجزائر مع تيار إسلامي كان يغلي حقا خلال الانتخابات المنظمة منذ ست سنوات، لكنه شعبي كفء مسؤول وبريء -وهذا هو الأهم- من حمامات الدَّم التي يريدون أن يُلقوا بمسؤوليتها عليه. أيُّ عبث، أي تلاعب إعلامي استطاع أن يغير المعالم النبيلة الوقورة لعباسي مدني ليصبح سفاحاً مجنوناً؟ أهي خدعة سحرية؟ أم أنها سريالية جامدة أو توهم ماكر؟

إنها ببساطة سوء نية وتغليط سياسي فاحش ! ! !

لا ينحصر الأمر في إهانة المستقبل حين نخدع شعوبنا ونمتثل لقاموس العنصرية المتطرفة: عرب إرهابيون، متطرفون، أصوليون...بل إننا نزري بالفطنة البشرية حين ننسب الفظائع التي يقوم بها قتلة مقنعون إلى منظمة أبانت عن كفاءتها وأدارت بفعالية وإتقان عشرات البلديات قبل أن تنهي العصابة تجربة واعدة هددت وضعها المريح.

لم يتوقف مؤسسو جبهة التحرير الوطني، أمثال ابن بلا والحسين آيت أحمد، عن التصريح باستحالة التعرف على المجرمين المسؤولين عن الإبادة اليومية التي تتم في

الجزائر. كيف يمكن إذن لصحافة أجنبية –منشغلة قبل كل شيء بعدد مطبوعاتها، عاملة في العتمةِ– أن تعلم عما يدور في الجزائر أكثر مما يعلمه الجزائريون الذين يعيشون الأحداث صباح مساء؟

من الذي يمكنه أن يوضح لنا مايجري في الجزائر أكثر من ابن بلاَّ، أول رئيس للجمهورية الجزائرية وأحد الزعماء الأوائل للانبعاث الجزائري؟ ففي يوم 16 نونبر 1997 صرَّح الرئيس ابن بلاّ لصحيفة البايس الإسبانية أن «هناك زمنا للحرب وزمنا للسلم. لكل شيء حد ونحن بلغنا الحد [...] لكن يجب أن يعود العسكر في لحظة أو في أخرى إلى ثكناتهم وأن يدعوا الشعب يتكلم. إن الجزائر بلد ثري يمتلك الفوسفاط والنفط والغاز والزئبق والذهب. والعسكر هم الذين يسيطرون على كل ذلك ويتقاتلون من أجل هذه السيطرة [...] أصبحنا لانعلم الآن من الذي يقتل ومن الذي لا يقتل. فالجزائر تحتوي الآن العديد من التنظيمات السياسية غير الرسمية التي تم تخليقها أثناء النضال من أجل التحرير [...] هناك سوق للجريمة لا يساهم فيها فقط أعضاء المجموعة الإسلامية المسلحة المتناحرين بل الشرطة أيضا والعسكر، إضافة إلى آخرين جنَّدهم النظام لنهج نفس أسلوب التقتيل بل بأسلوب أكثر بشاعة.

لكن هناك قاسما مشتركاً بين كل القتلة: أنهم لم يعودوا ينشطون وحدهم، إذ يوجد دائما جنرال يحميهم. خُصخِصَت الحرب والإعدامات

وأضحى الأمر حرباً قبلية وتطاحناً بين عصابات أخطبوطية تتنازع مصالح اقتصادية هائلة». انتهى كلام الرئيس.

أما إدانة الوزير الأول الأسبق عبد الحميد الإبراهيمي فأشد لهجة وأكثر دقة من تصريحات الرئيس ابن بلا ومن شهادات آيت أحمد المشارك في تأسيس جبهة التحرير الوطني والزعيم الحالي لجبهة القوى الاشتراكية. فالسيد الإبراهيمي الذي قضى عشر سنوات في الحكومة الجزائرية قبل سنة 1992 -أربعة منها كوزير أول- يدين «صناعة الذبح الثقيلة» للمدنيين. ويذكر أسماء ثلاثة جنرالات في الجيش الجزائري يتهمهم بارتكاب الجرائم. بل إنه يؤكد -مثل آيت أحمد وعدد كبير من المعارضين - أنه يملك الأدلة على صحة اتهاماته. ورغم أنه رُبِّيَ في سراي الحزب الوحيد الجزائري وخَبَر خفاياه فهو يؤكد أن عدد المليشيات التي يسلحها ويديرها الجنرالات الثلاثة يتجاوز المائتي ألف، وأن الفظائع التي يرتكبها أعوان النخبة العسكرية الحزبية تُنسَب إلى الإسلاميين لتشويه سمعتهم[1].

والسيد الإبراهيمي متابع قانونيا بتهمة القذف من قِبَل الحكومة الجزائرية المُسخرة للعصابة العسكرية التي تطالب بطرد هذا المتمرد الذي يذيع أسرار الدولة من أنكلترا حيث لجأ. لكنه مدعو إلى شتى أرجاء أوربا حيث تنتظره

(1) انظر مثلًا: LE MONDE , 11 Fevrier 1998

عقول حرة مستعدة لسماع شهاداته القيمة، باستثناء فرنسا وإسبانيا اللتيْن تعلنان تبنيهما المطلق لقضايا الحكومة الخارجة من عباءة النظام «الديموقراطي» للجنرال الرئيس ليامين زروال.

فالانتخابات التي أشرف عليها الجنرالات الثلاث والتي يدينها الإبراهيمي بشجاعة تدور على أرض المأساة اليومية. واليوم 26 فبراير 1998، يعلن وزير جزائري سابق اسمه مراني أن الحكومة التي شارك فيها سرَّحت مجرمين من سجناء الحق العام وزودتهم بوسائل تذبيح الشعب. هكذا أصبحت الجزائر بعد خيانة الفاسدين تشتعل ناراً.

وفي البلد المجاور، في المغرب، ليست المأساة يومية وليست فظيعة إلى ذلك الحد، لكنها ليست أقل وضوحا. ففي ديارنا، يتقدم إلى مقدمة الخشبة ممثلون يشاركون في الملهاة المسماة «تناوبا توافقيا». ما أعجَبَهُ من إغناء للمعجم الديموقراطي ! نفس الملهاة تتكرر لكن بممثلين جدد، مرفوقة بموسيقى جديدة.

فحكومة التناوب الاشتراكية التوافقية ذات الصيغة المخزنية تزامن تدشينها مع العلاج الذي طبقه الإسرائيلي إسحاق رابين على الأطفال الفلسطينيين، والذي تم تبنيه كبرنامج لإصلاح الجامعة، فأصبح الطلبة الملتحون والطالبات المحجبات يتعرضون لمجزرة منظمة: تهشيم للمرافق، تكسير للرُّكب، خَلع

للأكتاف، خَرق للصدور... باختصار، يُلقن الطلبة درساً في الديموقراطية المرفوقة بأعمال تطبيقية.

فما دامت المحاكمات المتعددة للطلبة الإسلاميين المتهمين بممارسة الأنشطة السياسية تلطخ سمعة «ديموقراطيتنا التوافقية» فمن الأجدر أن تسحق عظام عناصر الطلبة الإسلاميين القيادية، لأن جَمع الطلبة الإسلاميين لايستحق سوى الإقصاء التام من الجامعة.

أي مستقبل لهذا البلد بعد أربعين سنة من الاستقلال؟ أي مستقبل لبلد يعد سياسة العنف لضرب العناصر النشطة في الأمة؟

من أي جهة ينبع العنف؛ من طلبة مسالمين يدافعون عن حقوقهم، أم من سلطات تحول الأحياء الجامعية إلى ثكنات والمدرجات إلى مسالخ؟

تقود فرنسا وإسبانيا في البرلمان الأوربي سياسة دعم غير مشروط لنظام الجزائر الدموي، وتعتبر الأممية الاشتراكية وصول نظائرهم المغاربة إلى الحكم خطوة كبيرة نحو الديموقراطية، بينما هم يعلمون جيداً أن الانتخابات في بلادنا لاتزال ضحية تلاعبات مهنية وأن «التناوب التوافقي» المشهور ليس سوى حلقة من مأساة ملهاوية وقحة.

ماذا إذن؟

إذن على أوربا العجوز، جارتنا الدائمة، أن تتوقف عن تأسيس فرضياتها على أوهام واهية. فلن يعود الاستقرار –المهتز حاليا– إلى المنطقة، والذي تساند

خصومه حين تراهن على الحصان الخاسر غداً أو بعد غد، إلا إذا تم البحث عن الحقيقة والإعلان عنها. فوحده البناء القائم على الجلمود يدوم، أما الحصون المؤسسة على الرمال المتحركة، فسرعان ما تنهار.

أما اللائِكيون المحتمون بأوربا، حكام الجزائر الحاليون، فيدركون مدى هشاشة بنيانهم، ولذا كانوا دائما يرفضون أن تأتي لجنة تحقيق محايدة لتجلية ما يحدث.

هؤلاء المحميون، الذين أساءت جارتنا العزيزة اختيارهم، يَأبون أن يطلع العالم على فظائعهم السابقة وجرائمهم الحالية. لكن ألم يتقدم القتلة المقنعون في أيامنا هذه بوجوه سافرة يوم أن أوقفوا المسلسل الانتخابي؟

متى إذن ستُعَوَّض المهاراتُ المَكارة التي تطورها صحافة التشويه الإعلامي بلعبة صريحة نزيهة؟ يجب أن ترانا جارتنا أوربا كما نحن، لا كما تتمنى مركزية أوربية بالية أن ترانا. فلقد بيَّن النصر الذي أحرزته جبهة الإنقاذ في الانتخابات أن الشعب الجزائري، الذي طالما قمعه استعمار ضَارٍ وطبقة سياسية مستلبة فاسدة، لايثق إلا بهؤلاء الذين يجد فيهم ذاته: مؤمنين بالله عز وجل، مبشرين ببرنامج عدل وتقوى. فلتقبلنا أوربا العجوز كما نحن ولْنَلِجْ ساحة التعاون كما نريد دون أن تفرض علينا أي شروط لها. وحق الاعتراف المتبادل والاحترام التام كفيلان بتنحية الصعوبات وإتمام تبادل مثمر في جو تسوده الكرامة

وتأمين مصالح الطرفين، إذ لا يمكن للاتحاد الأوربي أن يطير إلا إذا كان جناح هذا الجانب من المتوسط صحيحا فعالاً.

أما نحن فمن العبث أن نحاول البحث عن تلبية حاجتنا إلى التحديث والتطوير في أصقاع بعيدة بينما توجد أوربا الموحدة، الجديدة، القوية على مرمى حجر منا.

الفصل الثاني

إسلام ولائيكية

لائيكية

«القديسة لائيكية»

الحملة الصليبية اللائيكية

الجمهوريات اللائيكية تتحرك

لائيكية

اللائيكية قلب الحداثة الفرنسية، أما العلمانية -الشكل الأخَفُّ والأكثر تصالحية لفصل الدولة عن الكنيسة- فتمثل الطريقة الحديثة لأن تكون ديموقراطيا ومتسامحاً في مذهب الأوربيين الآخرين.إقصائية لائيكية مناضلة في فرنسا وعلمانية مسالمة في البلدان الأوربية، ذلك أن الرفض العنيف للكنيسة الكاثوليكية تم منذ قرنين في باريس وليس في برلين أو لندن.

يعرف معجم روبير اللائيكية أنها «مبدأ الفصل بين المجتمع المدني والمجتمع الديني بحيث لاتمارس الدولة أية سلطة دينية ولا تتمتع الكنائس بأية سلطة سياسية».

وتمنح الحدة اللائيكية التي تتميز بها فرنسا تعلقَ هذه الأخيرة بمستعمراتها السابقة -خاصة الجزائر- أساسها المذهبي. أضف إلى ذلك أثر التحريض الإعلامي الذي يذكي نار الخلاف لتحصل على خطاطة الاضطرابات السياسية النفسانية التي تؤجج الحريق في الجزائر. إذا لم تتوقف فرنسا اللائيكية المطرودة شر طردة خارج الحدود من اجترار ذكرى «جزائر فرنسية» ضاعت إلى الأبد.

لا تتوقف اللاييكية الفرنسية عن تغذية آمال جاء هؤلاء الملتحون وهؤلاء المحجبات لتخْييبِهَا حين برزوا في الساحة السياسية المحظورة مبدئيا على الدين.

لكن يصعب تبرير هذا الغلط خاصة حين يصدر عن بلد احتل الجزائر مائة وثلاثين سنة. ألم يكفه هذا المقام الطويل ليدرك أن لا وجود في الإسلام للكهنوت، وأن الفصل بين الدين والدولة لا موضع له فيه، لسبب بسيط هو أن الولاء لله عز وجل لا يحتاج عندنا إلى وساطة من أحد؟ فالقضية كانت أبداً شخصية، والعلاقة بالله كانت دائما مباشرة. فالإسلام لايعترف بمفهومي العلمانيةواللائيكية.

ذلك هو السبب ببساطة، وهو سبب وجيه. لكن السبب الآخر (الرديء والمعقد تاريخيا)، والذي يمكن أن يَرِد، يتلخص في أنَّ الفقهاء عندنا كانوا دائما إما مجبرين على السكوت أو منضوين طوعاً أو كرهاً تحت لواء الأمير، الحاكم الزمني والروحي.

فبعد ثلاثين سنة من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم مارس خلالها خُلفاؤه الأربعة المُنتخبون الحُكم، تَمَّ السطو على السلطة، وأصبحت كلمة «خليفة» مجرد رَسْمٍ، مجرد لقب أجوف يتخذه المتسلط ليضفي على حكمه مسحة من مشروعية، لكنه لم يجهر قطُّ بعدائه للإسلام. بل إن اللائيكيين الذين يحكموننا حاليا يبادرون إلى الإشارة في دساتيرهم -إن كان لديهم دستور - إلى أن نظامهم إسلامي. فاللائيكية الفرنكفونية في ديارنا مثلها مثل العلمانية الأنجلوفونية في غير ديارنا تُمارس كمفهوم وكـ«ديانة» حديثة، لكنها لاتستعلن أمام شعب متشبث بهويته، رغم انحرافاته الفردية أو

الجماعية. أما في أوربا، فقد نتج عن مسلسل سلخ المجتمع عن مسيحيته انفصال تام عن كل دين عدَا دين الحداثة وما بعد الحداثة الذي سنتفحصه قريباً.

فلقد أفرز المسلسل الثوري الذي مهَّدت له فلسفة الأنوار واستهلته سنة 1789 الانتفاضة العامة التي أثارتها وقادتها بورجوازية «مثقفة» الأليكة التي وقع صكها نابوليون بونابرت والبابا بيوس VII في المعاهدة التي عقداها سنة 1801. بعد اضطرابات عديدة، هدأت الثورة الفرنسية المناهضة للإقطاع والكنيسة، ورضيت بتسوية يتفاوض بشأنها جنرال سيصبح فيما بعد إمبراطوراً وبابا يستميت في الدفاع عن مركزه. اعترف نص المعاهدة بكاثوليكية الفرنسيين (لا دولة الفرنسيين، ولكن الكنيسة حفظت ماء وجهها) وأصبح رئيس الدولة هو الذي يعين الأساقفة، أما البابا فيكتفي بتوزيع بركاته عليهم. وانتصرت إذن «القديسة لائيكية»!

كان مسلسل الأليكة مباغتا عنيفا في فرنسا، لكنه كان تفاوُضيّاً في غيرها من البلدان. فلقد أفرز الإصلاح اللوثيري في الإمارات الجرمانية في القرن السادس عشر «سلاما دينيا» يضمن لكل واحد حرية العبادة وهو ما يبدو جليا في اتفاق cujus regio religio (الاستقلال الديني لكل منطقة)، ولا تزال الدولة الاتحادية الألمانية تفرض ضريبة توزعها على مختلف الكنائس.

أما في أنجلترا، فقد عقد هنري VII معاهدة مع بابا روما تمنح بلاده الاستقلال عن سلطة الكنيسة الكاثوليكية، وتجمع في يد الملك السلطة

الروحية والسلطة الزمنية. فالأنجليكانية دين الدولة، والملك أو الملكة هو أيضاً رئيس الكنيسة الأنجليكانية. لكن الرأي العام في أنكلترا الذي يتأثر ويتحرك حين يشاهد فضائح أمرائه وأميراته يسلك حاليا ببطء سبيل العلمنة والفصل السلمي، بل الطلاق النهائي للمؤسسة العتيقة التي يرعاها العرش البريطاني.

تبقى حال أمريكا خاصة، سواء في شمالها حيث يُقسم رئيس الدولة أثناء تنصيبه على التوراة، أو في جنوبها حيث تزداد شعبية كاثوليكية تناضل من أجل حقوق الفقراء.

في زمننا هذا تعترف الدول الأوربية المُعَلمَنة سلميا في دساتيرها بالدين السائد في بلدانها. بل إن بعض هذه الدساتير تمنع الوظائف الرئاسية عمن ليس كاثوليكيا أو بروتستانتيا. كما يفعل الدستور البريطاني (الحي غير المكتوب) ودستور السويد والولايات المتحدة وسويسرا وإسبانيا وإيرلندة[1].

«القديسة لائيكية»

أستعير هذا التعبير من فرانسوا بورغا، المراقب اليقظ لمسيرة الإسلام، الذي تستحق مساهمته في هذه القضية اهتماما خاصا. فحين يقبع «المتخصصون» في

(1) انظر المؤلَّف الممتاز لطارق رمضان: (الإسلام، مواجهة الحضارات) منشورات التوحيد، 1995 ص129.

أبراجهم العاجية يرحل هو، بورغا، إلى موقع الحدث. وبينما يطنب الاجتماعيون المخمليون في وصف المجتمعات المسلمة وتصنيف الظاهرة الإسلامية، يباغث سائحنا الحال المرتحل القوم في «ورشاتهم».

نادرون هم الأوربيون الذين أفلتوا من تحيز مجتمعهم ضد «الظاهرة» الإسلامية، فرغم بعض الاستثناءات النادرة، مازال الصحافيون الفرنسيون يجترون عن وعي أو عن غير وعي الإحباط الفرنسي ويجترون مرارة تحرر الجزائر. بل إن المتخصصين الفرنسيين في دراسة الحركات الإسلامية والذين يهاجمهم بورغا بحدة يعتكفون في محراب «القديسة لائيكية» التي تعمي أبصارهم تمنعهم من التجرد الموضوعي.

أما بورغا العنيد المغامر المقتحم فيَكُرُّ على الوثنية المهيمنة، ويحطم أصنام اللائيكية بحماس ومنهجية. بل إن كشافنا الألمعي يرقى بفن التنقيب حين يخفي ملكاته ويستر عنك تمكنه من الحديث بالعربية-رغم أنه مستعرب قادر على الاحتكاك بالنصوص- ليدعك تقارع بالفرنسية حتى يتسنى له اكتشاف مواطن القصور الثقافي في خطابك أو هفواتك التعبيرية إذا ما عجزت قدراتك اللغوية عن إمدادك، أو اعترت لسانك عثرة تفضح نياتك السياسية.

فماذا يمكن أن يقول عن الإسلام وعن مشكل اللائيكية هذا البحاثة الذكي؟ يلاحظ بورغا البون الشاسع بين قراءة المسلم وقراءة الفرنسي اللائيكية ويتساءل قائلاً: «من القاهرة إلى الجزائر، مروراً بعمان أو صنعاء،

أصبحت الصفة القادحة التي يمكن أن تقدح بها خصومك هي اللائيكية. كيف أضحت هذه القيمة التي تعض عليها الثقافة الفرنسية بالنواجد مرادفة –عند جيراننا– للدناءة والانحطاط؟ أي سحر تاريخي استطاع أن يحول «خيرنا» إلى «شرهم»؟ أي طعم للفظة اللائيكية حين تنطق بها ألسنة اللاعنين لها، المنادين بإفنائها»[1].

الملاحظ أن كاتبنا يحكمه منذ البداية همٌّ اكتشاف الرأي الآخر. حذر منهجي يحميه من الوقوع في انطباعية زئبقية، من الانحراف المذهبي الذي يَتَمَلَّكُ من يضحون بالموضوعية وينظرون إلى الواقع نظرة قاصرة.

يضيف كاتبنا : «لكي نوضح جيدا لماذا اصطبغت عندهم هذه القيمة المركزية لدينا بهذه الصبغة السلبية، لابد أن نميط اللثام عن المنطق الذي صدرت عنه عند هؤلاء الذين يرفضونها بكل هذا الحماس»[2]، لأن القراءة المعزولة التي لا تأخذ بعين الاعتبار التطور التعاقبي لتصورات وقابليات مجتمع ما لا يمكن أن تحدد حاضر الآخرين إلا إذا انطلقت من ماضيها الخاص. إذ يفلت المغزى الدقيق للتاريخ من يد الملاحظ السطحي الذي قد يزيد الطين بلة بخضوعه منذ البداية لدوافع مَرَضية، فتكون النتيجة صداما أعمى وتمادياً في التعامي، «فحينما يُتَلفظ في الشمال بكلمة «اللائيكية»، يُقصد بها قُدرة المجتمع الفرنسي على إنهاء وصاية

(1) L'islamisme en face, éditions La Decouverte, Paris, 1995, P.70

(2) نفسه، ص 70.

رجال الكنيسة، وبروز السياسة المتحررة من «اعتباطية القانون الديني»، وضمان حقوق وحريات جديدة يتمتع بها الأفراد والأقليات. لكن آخرين يتذوقون نفس اللفظة بطريقة مختلفة تلقي بظلال التقهقر على دلالتها»[1].

هكذا، أصبح هذا المكسب التاريخي الإيجابي في فرنسا في أعين المسلمين سلاحا سخرته فرنسا لإلغاء حرياتهم في شمال إفريقيا. هذه اللائيكية التي استعملها المحتل الفرنسي من قبل هي التي يرفع لواءها اليوم اللائيكيون الجزائريون علها تحررهم. برهان إيديولوجي وسلاح حربي صُقلا لمقارعة الإسلام ومحاربة من يجعلون منه مصدراً للحقيقة.

فالإسلاميون يدركون أن الذئب لا يزال قابعا في الحظيرة، لذلك هم يستميتون في محاربة الذئب وذرية الذئب بمحاربتهم لمفهوم أصبح إيديولوجية تعاكس حركة التاريخ. وهم بذلك يضعون اسما للاضطهاد الذي مورس على المسلمين في الجزائر منذ مائة وثلاثين سنة ومنذ أكثر من ثلاثة عقود بعد الاستقلال. فـ«الإسلاميون المقارعون للائيكية لم يعتبروها أبدا ضمانا لحقوق وحريات جديدة، نظراً لأن قدومها صادف بالطبع انتصار الجيوش الغربية، ولأنها -حسب منطقهم المختزل أحيانا، الصائب نسبيا- سُخّرت لضمان حقوق الغرباء الذين استوردوها أو الأقليات غير المسلمة النصرانية أو اليهودية التي اعتمد عليها غالبا

(1) نفسه، ص 70.

هؤلاء الغرباء لتوطيد هيمنتهم»[1]. أي أن اللائيكية المُستَقدَمة إلى الجزائر في حقائب الغزاة، من الترسانة الاستعمارية التي مكنت الجيوش من اغتصاب البلاد وتمهيد السبيل لانتزاع الأراضي وانتهاك حرمة الثقافة والمقدسات الإسلامية.

هكذا تمت تنحية الشريعة الإسلامية المنظمة للحياة -فعليا أو رمزيا- حسب الأنظمة والعصور، لتعوضها القوانين اللائيكية المُعدَّة سلفا لتأطير الأمر الواقع الاستعماري قانونيا. تدخَّل بعنف جسم غريب متمثل في القوانين اللائيكية ليعمل أيام الاستعمار في كيان المسلمين تمزيقا وليعيش هؤلاء المحنة الأليمة، قوانين وإيديولوجية لايشعر الإسلاميون حين يُشَهّرُون بها بأي حرج.

«هكذا، أصبحت اللائيكية -هذا الحصان الطروادي- مرادفاً لأخبث الأسلحة الإيديولوجية الغربية، فهي التي وضعت أيام المغامرة الاستعمارية الأساس القانوني وضمنت التقدير اللازم لعملية إعدام النظام المعياري الإسلامي بحجة أن الرأسمال المعياري الموروث بعد حوالي أربعة عشر قرناً من الحضارة، لم يعد قادراً فجأة على تدبير المجتمع بأكمله»[2].

وإذا كانت اللائيكية وتصور مسلمي عهد الاستعمار لها يُحَلَّلان اليوم انطلاقا من مفاهيم الضبط القانوني المُخَلْخَل، والاستلاب الثقافي الممقوت،

(1) نفسه، ص 70.
(2) نفسه، ص 70.

والنظام الحضاري المشوَّش، فإن المقاومين الأوائل للاحتلال الاستعماري -مثلهم في ذلك مثل الاستعماريين المعاصرين- كانوا ولا يزالون يرفضون الدخيل المهدد لمعنى وجودهم، لإسلاميتهم، لولائهم لله عز وجل وإيمانهم به. لكن تحليل ف.بورغا لايذكر بتاتا هذا المظهر الرئيسي للرفض الإسلامي الماضي والحالي للغزو الاستعماري ولامتداده الحديث. فالدين قضية منبوذة من عالم المثقفين الغربيين مهما بلغت نباهتهم ونزاهتهم. والتحدث -كما يفعل الإسلاميون- عن الله والقرآن، عن المبعث بعد الممات سلوك يخرق أصول اللباقة العلمية.

أما هؤلاء الإسلاميون -أو بعضهم على الأقل- فلا يملك أمثال بورغا الوقت اللازم للاقتراب منهم، أو أنهم يحجبون، مستحين، أقوالهم معتبرين هذا النقاش حول الغيب والإيمان به والآخرة والنشر والحشر والجنة والنار شأناً حميمياً، أو يحيطونهُ بأقواس.

الحملة الصليبية اللائيكية

حين نتأمل التاريخ وننتقده انطلاقاً من مفاهيم عارية من القداسة، حين نعبر بألفاظ معمقة متبرئة من الغيب، لا يمكن أن نتجاوز حدود التحليل الآلي للعنف الانفعالي، أما الدوافع العميقة فتبقى بعيدة عن متناول الإدراك السياسي.

لذلك يظل الملاحظ اللائيكي الطارئ على الميدان مُقَيَّداً أثناء بحثه بالظواهر الاجتماعية السياسية الاقتصادية. أما بورغا الذي يدرك مدى قوة الحوافز الثقافية،

فيعتبر الغليان الإسلامي ونجاحه حركة مشابهة لثورة ثقافية، إذ أن آخر مرحلة من مراحل تحرير المجتمعات المسلمة بعد الانعتاق السياسي المتبوع بالاستقلال الاقتصادي هي اكتشاف المسلمين مدى زْيف حريتهم، تدفعهم خيبة آمالهم إلى ترقب ساعة استرجاع الهوية الثقافية. وبينما يقنع الخطباء المحللون للإسلام –خاصة الغربيين منهم– بتفسير سطحي للظاهرة الإسلامية يجعلون منها مجرد زحف لشبيبة عاطلة يائسة استجابت لوعود بضمان العمل وتوفير الرفاهية، يرفض كاتبنا هذه النظرة الاختزالية ويعتبر تحليلها قاصراً فهؤلاء هم إسلاميو إمارات الخليج المتنعمة ليسوا يائسين ولا مهمشين. تبقى القضية إذن قضية مُحدّد ثقافي أعلى.

وهنا تنفَد حصافة أفضل المؤلفين! بل إننا كثيراً ما نجد في صفوف الإسلاميين أنفسهم من يحتج على الضربات التي يوجهها الغرب لهويته الثقافية، منددًا بالحملة الصليبية الشعواء التي تستهدف تراثهم الرمزي، دون أن يتعمقوا في انتقاد الأثر الهدام الذي يحدثه العدوان الشامل في كياننا المتمثل في الاستلاب الروحي والتسطيح الوجودي والتشويه النفسي والبعد عن الإسلام.

إن إدانة الحملة الصليبية والحرب الشاملة ليست سوى رد عادل على الهجمة الحديثة التي يشنها غرب لايزال وسيبقى دائماً يتغذى على أحاسيس البغض والعداء القديم، لأن ما غرسه التاريخ العتيق في ذاكرة الشعوب لا يمكن اجتثاثه: حملات صليبية وحروب دينية تواجه فيها المسيحيون الكاثوليك

والمسلمون، حروب صليبية لايزال الغرب الـمُؤَلِّيَك المنسلخ من نصرانيته يشنها اليوم على عالم إسلامي مخلص لولائه، يمثله اليوم وغداً الإسلاميون.

مهمتنا نحن إذن حين نستحضر الماضي أن نطرد شياطين الكراهية والعنف، لأن الصمت الحاقد لا يُوَلِّدُ سوى النوايا الانتقامية السوداء.

ولذا، يبدو أن التذكير النزيه الصريح ببعض الأحداث التاريخية كفيل بتمهيد السبيل أمام عملية تطهير تبدأ بالكشف عن العقلية المنخورة بالريبة، يتلو ذلك إعراض إراديٌّ عن خصومات الماضي. وبعد ذلك السعي لتحقيق إصلاح كريم يحفظ المصلحة العامة ويحقق السلام، في مستقبل نرجو أن يكون أكثر قبولاً لرسالة الأخوة الإنسانية التي يحملها الإسلام.

فمهما بلغت حدة خصامنا لللائيكية ورديفتها الديموقراطية المتحررة من كل مبدإ ديني، فقد تتفتح في وجهنا بوابة حقوق الإنسان لندلف إلى ممرات تقودنا إلى ضمائر الغربيين المفطومين عن الروحانية المحرومين من أي معنى للوجود، مادام هدفنا الأسمى هو إسماع صوت الإسلام، وليس شن الحروب وتسعير نيران الحقد بين الناس.

أما الديموقراطية اللائيكية فتبقى حليفتنا مادامت لا تمنع الناس من اعتناق الحقيقة التي يختارونها. قد يفاجئُ هذا المنهج المناضلين عن القضايا السياسية من بني جلدتنا أو من غيرهم، لكن تبقى أولوية الأولويات عندنا هي إسماع نداء الإسلام وتبليغه الضمائر الفردية. تبقى المعركة السياسية الاقتصادية، وتقدم بلداننا في ميادين التصنيع والتنمية، وتحريرها من النهب الرأسمالي والتخلف،واقتحامنا

صراعات العولمة أهدافاً هامة جداً، لكن مصير الإنسان وحقه في معرفة حقيقة وجوده هي الغاية العظمى.

إلا أن حديثنا عن الله عز وجل، وعن حق الإنسان في معرفة خالقه واكتشاف السبيل الموصل إلى السعادة الأبدية بعد الموت، يُلزمنا استطلاع المسار التاريخي للاستراتيجية المضادة الجاهدة لوضع العراقيل: للتعمية على الناس حتى لايبصروا، والضرب على آذانهم حتى لايسمعوا. إنها مهمة تنفذها بفعالية وأساليب «متحضرة» الحملة الصليبية الإعلامية الوقائية والهجمة القمعية على كل من لا يوالي الغرب أي الحداثة. إنه مكر خفي ونفاق صلف!

فلنلق إذن نظرة خفيفة على الأسلوب الأهوج الذي نفذ به دين الكنيسة أولا والقديسة «لائيكية» بعد ذلك مشاريعهما المعادية للإسلام، لندركَ أن نواياهم وأفعالهم، المُعَبَّر عنها صراحةً، تفضُل بوضوحها الوحشيةَ الحديثة التي تكذب جرائمُها الشعارات البراقة الخداعة.

تسلمت «القديسة لائيكية» لواء المعركة التي كانت الكنيسة «المقدسة» تشنها على الإسلام، فبرهنت بحقدها وعنادها أنها أكثر ضراوة. يا للبراءة ! يا للعفوية الصادقة التي حث عليها البابا أوربان الثاني سنة 1059 رعاياهُ بمدينة كلرمون وحرضهم على «جنس ملعون، جنس ضال عن سبيل الله»!

هذا الجنس الذي استهدفه العقاب الجماعي النصراني هو المسلمون الذين «اكتسحوا أرض النصارى». ويشتعل الخطاب الناري للكاهن الأعلى الذي يهدر صائحاً: «لا تكونوا جيلا هجيناً! ليَخمد لهب كل حقد يمزقكم! لتنطفئ نزاعاتكم! ولتنته الصراعات بينكم! شدوا الرحال إلى الضريح المقدس، وانتزعوا هذه الأرض من قبضة الجنس الملعون. أخضعوها لكم. فتلك مشيئة الرب»[1].

سَوْرَة غضب ولعنة فجر بها رجل الكنيسة حروبا دامت قرنين كاملين بين نصارى متحزبين قادمين من أوربا ومسلمين مشارقة على الخصوص. ثماني حملات وحشية أعدها الأوروبيون تحت لواء الصليب، بإشراف الكنيسة وبإيحاء شرس مباشر منها.

ثماني حملات صليبية اختلفت نتائجها: فتحت أولاها أبواب القدس بعد مجزرة ذبح فيها سبعون ألفاً من المسلمين. غرقت الدروب كما يحكي المؤرخون العرب في الدماء، وخاضت الخيول حتى الركب في السائل الأحمر:تلك هي الحرب.

لكن بعد مائتي عام، طرد صلاح الدين الفرنجة من القدس، ليكون المؤرخون الأوربيون أول المنبهرين بحلم القائد الكبير عن أعدائه المنهزمين.

(1) Sfeir,Atlas des religions, Hachette-Jeunesse, Paris 90 Antoine

تقلب الزمان وعادت القدس وحررت ليبرز التناقض الفاضح بين حلم المحرر وشراسة المحتل الدموي. أحداثٌ كذبت الادعاء القائل بأن المسلم -متى كان وحيثما كان- متعصب متعطش للدماء.

امتد عمر مملكة القدس الإفرنجية والإمارات الثلاثة الأخرى قرنين من الزمن، مما مكن خمسة أو ستة أجيال أوروبية من التعرف على الحضارة الإسلامية.وقد أمدَّ هذا التواصل بين الحضارة المسلمة والغزاة الأوربيِّين أوربا بمعارف وعادات فاقت في رقتها الفروسية الإقطاعية غليظة الطبع، المنعزلة في بروج الجهالة، المنهمكة في إقامة الولائم الفخمة في حصونها الوسطية.

كان إشعاع إسبانيا المسلمة نعمة على أوربا المعزولة عن منابع الحضارة. فقد ازدهرت في غرناطة وفي قرطبة العلوم والفنون والزراعة والحرف والرياضيات والفلك والكيمياء والطب. لكن عملية استعادة الأراضي الإسبانية أتت على هذا التبادل المثمر بين العالمين، ليتراجع الإسلام من هذه الضفة المتوسطية، ولتتكالب محاكم التفتيش -تلك الشرطة الكنسية المتسلطة على رقبة المجتمع الأوربي من القرن الثاني عشر إلى القرن الثامن عشر الميلاديين- على مسلمي طليطلة وإشبيلية وغرناطة وكل المدن التي كانت من قبل ملاجئ ومراكز إشعاعية لحضارة مشرقة.

كانت محاكم التفتيش التي تخصصت في اضطهاد المسلمين واليهود أشد قسوة من تلك التي عاناها النصارى. فالكنيسة (التي تكره إراقة الدماء)،

كانت تكتفي بإخضاع الأظناء لتحقيق تكسر فيه عظامهم وتمزق أطرافهم دون أن تسيل قطرة واحدة من الدم. بل إنها كانت تتفنن في ابتكار ألطاف أخرى لاتسبب سوى «كدمات» بسيطة مثل سمل العين بالنار أو ثقب الأذن بمخرز يخضع للمواصفات المطلوبة بحيث لاتنزل قطرة دم واحدة.

كان الألبيون[1] واليهود يحرقون أحياء. فشبهة التواطُؤ مع الوجود الإسلامي المتبقي في جنوب فرنسا كانت كفيلة بتسليمهم إلى يد الجلاد الكنسي. كان اكتساح المسلمين لهذه المنطقة في بداية القرن الثامن الميلادي خاطفاً، لكن استقرارهم في طولوشه وضواحيها لم يدم سوى الوقت اللازم لتُلمَّ الفرنجة فلولهم وليهزموهم بقيادة شارل مارتل شر هزيمة.

قالت الأسلحة كلمتها، لكن بقيت عملية استئصال المنهزمين ومتابعة كل مُهَرْطِق يُتَّهَمُ بممالأة المرابطي: حرب صليبية مستمرة.

الجمهوريات اللائيكية تتحرك

هما جمهوريتان اثنتان: الجمهورية الفرنسية التي ما فتئت تَفشل منذ قرنين، والجمهورية الجزائرية التي تعمل على إتمام ما بدأته أمها الحاضرة الغائبة. ألاَ وهو إكمال ما قامت به الحروب الصليبية بإشراف من الأم وابنتها.

(1) أو الألبيجِيُّون: طائفة متمردة على الكنيسة البابوية.

ثمانية قرون مضت منذ تحريض البابا في كلرمون، لكن الخطاب اللائيكي الذي يصك الأسماع اليوم أكثر حدة وأشد وقعاً، خطاب عنصري، بغيض، جافٍ. ونستشهد هنا بعبارة ملتهبة صدرت في نهاية القرن التاسع عشر لترسم ملامح المشروع المستقبلي ولتلخص مسيرة العدوان الغربي على المسلمين، إذ مازالت صدمة الحملة الصليبية الأولى التي أثارتها الكنيسة يتردد صداها في الملفوظ والفكر الغربيين: رسالة الحقد الدفين المنقولة والمُضَخَّمة عبر الأجيال.

إرنست رينان، صاحب أكثر التعابير خِسَّة وأكثرها صراحة، رينان المؤرخ ذائع الصيت الراهب الفاشل الذي يحكي في كتبه قصة ضياع إيمانه وهَجره الدعوة الكنسية، يبدو واثقاً من نفسه، مصمماً على التحريض على المسلم حين يعلن سنة 1862 أن: "الشرط الأساسي حاليا لانتشار الحضارة الأوربية هو تحطيم الإسلامية[1]. وتلك هي الحرب الدائمة، حرب لن تضع أوزارها إلا بعد أن يموت بؤساً آخر حفيد لإسماعيل أو يرد على عقبيه إلى أعماق الصحراء، لأن الإسلام هو أكبر نفي لأوربا [...] ستفتح أوربا العالم وتنشر دينها المتمثل في القانون، في الحرية، في احترام الإنسان وهي عقيدة ذات طابع إلهي تحملها البشرية"[2].

(1) يا له من سبق لساني! تطفو الألفاظ المشحونة بالانفعالات وكأنما هي أشباح حاقدة.

(2) نقلا عن: Vincent Monteil, La pensée arabe, Seghers, 1987, P.191

كان حفيد إسماعيل، مسلم عصر رينان، مجرد شبح بعيد للأجنبي المطلق. أما اليوم، بعد أن أصبحت الضواحي البئيسة للحواضر الفرنسية مكتظة بالمسلمين، فالبرنامج الريناني مناسب لاستئصال الأجنبي –خاصة إذا كان جزائرياً– وإذلاله، لتصبح الجبهة الوطنية التعبير الأمثل عن الحقد على أحفاد إسماعيل.

هي إذن حرب دينية استئصالية! الهدف إذن هو رد هذا «الجنس اللعين»، الجاحد المطلق لأوربا، على عقبيه إلى مجاهل الصحراء واقتلاع جذور بني إسماعيل.

ثماني سنوات بعد هذا الخطاب القاتل، خرجت فرنسا مدحورة من حربها ضد ألمانيا بسمارك موحد الأمة الجرمانية، ضاعت الألزاس ولورين وساقت فرنسا أوربا بأكملها إلى مسلسل أثمر حربين عالميتين كان أحد أهدافهما اقتسام بلدان الإسماعيليين.

فقبل الخطاب المحرض الذي ألقاه المسيو رينان بجيل كامل، كانت الجزائر أرضاً مُستَعمَرة مُلحَقةً. كانت قضية الجزائر في اعتقاد رينان ومواطنيه ومن سيخلفهم طيلة قرن من الزمان أمراً مقضياً: الجزائر أرض فرنسية وستبقى دائماً فرنسية! أما بنو إسماعيل وبنو عمومتهم من البربر فمصيرهم الإذابة أو الطرد من الأراضي الخصبة أو الاسترقاق والسخرة عند الأسياد الأوربيين.

قبل قرن من استقلال الجزائر، كان رينان يعلن من منبره عن برنامج توسع استعماري يستهدف كل البلدان الإسلامية التي كان يجب أن تلقى مصير الجزائر.

أطاحت هزيمة فرنسا سنة 1871 بالإمبراطورية الثانية وعادت الجمهورية لتتجذر اللائيكية ويعلو دينها الذي بشر به المنسلخ من الرهبانية المتحمس. هكذا لم يلبث جول فيري معاصر رينان أن ظفر بحقيبة التربية الوطنية ثم بالوزارة الأولى لينفذ إصلاحه القائم على الأليكة الممنهجة الهادفة إلى إلباس كل فرنسي مسوح "القديسة لائيكية". ومنذ ذلك الحين، أضحى التعليم الابتدائي الفرنسي مجانياً وإلزامياً ولائيكياً.

هكذا بدأت بعثات المعلمين والمعلمات –المبشرين بالدين الحديث– إلى شتى أنحاء المستعمرات الفرنسية ليلقنوا الشبيبة المحلية احترام القيم اللائيكية والاحتقار التام لهويتهم، لِيُتِم مشروع «التحضير» الذي نفذه التعليم اللائيكي عملية "التهدئة" التي كانت جيوش الاحتلال قد بدأتها من قبل.

وانتهت حقبة الاحتلال المادي. لكن نفسية الشعوب التي كانت رهينة الاحتلال لاتزال تعاني وقع الصدمة النفسانية والعقلية، لتبقى القرحة الجزائرية نموذجاً للانفجار الرهيب لمخلفات جرائم الاعتداء على الإنسانية،

تلك الجرائم التي لخصتها الدعوة الرينانية في مبدأ "الحرب الخالدة" وطبقتها المدرسة الفيريرية[1].

فرغم أن الهجمة الاستعمارية، ربيبة الحملة الصليبية الحاقدة، لم تتمكن رغم ضراوتها من تدمير الشعب، إلا أنها عبَّدَت الطريق أمام التخريب الثقافي والخلقي، ومكنت جحافل التعليم من إتمام المهمة.

لايمكن إذن وصف الأثر العميق الذي خلفه الاستعمار المُؤَلِيك في البناء الأخلاقي للشعوب المسلمة، لكننا نعرض أحد الإنجازات العسكرية للقوات الاستعمارية علّنا نتذكر وعسانا نستأصل الأحقاد الموروثة المتجذرة في قلوبنا وقلوب "جيراننا الدائمين".

ففي سنة 1833، أي قبل تسعة وعشرين سنة من تصريح المسيو رينان، حلت بالجزائر لجنة برلمانية فرنسية للتأكد من تطبيق الأوامر العسكرية، وتأمين المتابعة الإدارية للتعليمات. وكانت النتيجة تقريراً وجهته إلى السلطات المعنية، ورد فيه مايلي:

"لقد دنسنا المعابد والأضرحة، وانتهكنا حرمات المنازل. ذبحنا العديد من الأهالي لأدنى شبهة، ثم اكتشفنا فيما بعد براءتهم. حاكمنا رجالا كانوا قديسين في أعين قومهم"[2].

(1) نسبة إلى الوزير جول فِرّي.
(2) Futuribles, octobre1995, n° 202, P.23 التي تحيل إلى مرجعها.

ليس هذا عرضا مفصلا يهدف إلى تبليغ الرؤساء أن المهمة الفظيعة أنجزت، بل الأمر يتعلق بلجنة تحقيق تقودها دون شك معارضة يقظة. إنه صوت المعارضة الديموقراطية المندد بخيانة الجيوش الحكومية التي تلطخ بجرائمها الوحشية سمعة فرنسا. صوت ينادي ضمير الشعب ويهزه هزاً: "لقد ذبحنا" و"دنسنا...".

إنها ميزة تُحسد عليها الحداثة الديموقراطية الغربية القادرة على التنديد بما يشين، فلقد تعالى صوت صحافة حرة تعلن سخطها على التعذيب البشع الذي كانت الفرق الحكومية تمارسه خلال الثورة الجزائرية على مناضلي حزب التحرير الوطني. ورغم أن الجنرال دوغول، ابن فرنسا البار، الزعيم الذي أحبط مؤامرات المنظمة المسلحة السرية، لم ينكب على هذا الملف، إلا أن الصحافة الحرة كشفت عن خيوط المؤامرة الدنيئة التي حاكتها «جمهورية» جزائرية محتضرة ودولة فرنسية قصيرة النظر، لا استعداد لها لاستشراف المستقبل والاستعداد لهبوب العاصفة.

صباح هذا اليوم –23 أكتوبر 1997- نشرت الصحف الفرنسية –المستقلة منها لا التي تبيع الإثارة– تصريحات جندي فار من الجيش الجزائري يروي كيف يُدَرَّب الجنود على وضع لحى اصطناعية وعلى تذبيح النساء والأطفال لإرهاب الأهالي وتلطيخ سمعة الحركة الإسلامية.اعترافات لم تتوقف بعض الصحف الفرنسية عن نشرها منذ بداية المأساة، منذ ست سنوات.

الفصل الثالث

مقاومات، نماذج الجزائر

مقاومات

إننا مسلمون

غَيِروا الشعب!

آفَة البشرية: التعذيب

مقاومات

جراح مادية وخسائر حين يذبح المرء ويُكتسح بلده، خسائر مادية حين تسلب أرضك وتنهب خيراتك، لا مناص حينئذ من المقاومة حتى الموت، من استرداد كرامتك ومواجهة عدوك مهما فاقك قوة وتنظيما. ذلك ما فعله الجزائريون بقيادة الأمير الصالح عبد القادر طيلة سبعة عشر عاماً، لكن البطولة الفردية والجماعية مهما بلغت درجتها وتردد صداها عبر الأجيال لا تلبث أن تخمد حين تخور قوى الشعب وتنفد موارده، وذلك ما وقع لجيوش هذا الولي الصالح حين استسلمت المفرقعات اليدوية والذخائر المتناقصة أمام المدافع الوفيرة المتخمة.

لكن ما العمل وقد تجاوز الأمر حدود الاحتلال و"التهدئة" بالحديد والنار إلى مهاجمة الروح، ما العمل حين تدنس حرمة بيتك ويعبث بقبور أسلافك الصالحين؟ أليس ذلك جرحا نفسيا أبعد غوراً من كل الجراح الأخرى؟

بماذا يمكن إذن أن تواجه استراتيجية تطبيعية تقتل فيك هويتك؟ ما الذي عليك فعله وأنت ترى البيداغوجية اللائيكية –خاصة تلك التي تلت إصلاح جول فيري– تختلس بمكر ومنهجية لب مستقبلك بعد أن نجحت في السطو على حاضرك وسحقه؟ فلقد أزاحت المدرسة اللائيكية المدارس التقليدية بينما كان المستعمر يصادر الأراضي.

إن أبرز مثال على ما يمكن أن يقاسيه شعب مستعمر هو مثال الشعب الجزائري، كما أن نموذج مقاومة المسلمين ماضيا وحاضراً في الجزائر يظهر مدى ما تملكه نفس الذي أسلم وجهه لله من رصيد تاريخي يشهد باستنكافها عن الانحناء للطغيان.

حديثنا إذن عن الجزائر لا يخفي تعلقا مَرَضِياً، بل هي بيداغوجية مضادة تطبيقية يمكن أن تستخلص الدروس منها حركة إسلامية متجندة للتضحية في سبيل الكرامة، كما يمكن أن تستخلص منها الدروس حداثة لم تدرك بعد ضرورة اتفاق طرفي النزاع على حل سلمي فوري.

فنوبات الندم الدورية التي تستبد بالضمير الأوربي –الفرنسي خاصة– لا توازي البرود المقيت الذي تقابل به السياسات الغربية يوميا، إذ كان لا بد أن تصبح المجازر والإبادات في الجزائر يومية، وأن تشتد وحشيتها، لكي يستولي الغرب الرسمي –دولاً ومؤسسات– بثمن بخس على الاحتجاجات المستنكرة التي صدعت بها المنظمات غير الحكومية، الغربية منها خاصة. وهكذا يطرح المشكل الجزائري في الأمم المتحدة على استحياء، ويلمَّح بإمكانية التدخل. لكن سرعان ما يتم التراجع عن الفكرة حين تزأر الحكومة الجزائرية معلنة استياءها من هؤلاء الذين يريدون أن يلقنوها درسا في حقوق الإنسان، من هؤلاء الفضوليين الذين يتدخلون في شؤونها الداخلية، محتجة بأنها قادرة وحدها مثل أي حكومة على التحكم في أوضاع بلدها.

وفي انتظار تدخل خارجي قد لا يحدث أو قد يحدث بعد فوات الأوان، بعد إبادة نصف الشعب كما حدث في البوسنة، تتوالى شهادات الجنود الفارين الذين يوجهون أصابع الاتهام إلى السلطات العسكرية، وتتكرر معاينة رجل الشارع للجزارين وهم ينفذون مهمتهم الدموية الرهيبة تحت سمع وبصر أفراد الجيش المعسكرين على بعد بضع عشرات من الأمتار، أو الذين يجمعون رحالهم حتى لا يقلقوا راحة السفاحين. ولا عجب ! فالطرفان يجمعهما ولاء واحد ويخضعان لقيادة واحدة.

وفي انتظار أن يغفو الوعي الغربي الموسمي وأن يُتَرجَمَ إلى بضع زيارات دبلوماسية فإن الشعب المسلم في الجزائر أو في غيرها من البلدان لن يتخلف عن الركب المجيد الذي قاده أسلافه. "مقاومات" بصيغة الجمع نظراً لتنوع وسائل واستراتيجيات المعارضة ولطبيعة المشاعر التي فجرت هذه العملية.

فالتعبئة المسلحة التي قادها الأمير عبد القادر تستمد قوتها واندفاعها من الحرارة الإيمانية التي اتسم بها شعب مؤمن التف حول رجل رباني هو أبو الأمير الشيخ محيي الدين المنحدر من أرومة الأولياء، المتمتع باحترام جميع القبائل المسلحة.

أما نسب ابن باديس فمختلف تماما، لأن قدرات معاصري هذا الرجل العظيم كانت تختلف عن قدرات المقاومين الأوائل السالكين سبيل الأمير. ذلك أن سبعين سنة من الاحتلال الفرنسي ومن "العمل" البيداغوجي والقمعي

كانت كافية مبدئيا لإبعاد الجزائريين عن مصدر إلهامهم، وقطع الجذور التقليدية بحصر التعليم القرآني في الزوايا المدنسة الخاضعة رغبا أو رهبا للإدارة العسكرية الاستعمارية.

توجه ابن باديس إذن إلى المشرق ليتزود، إلى الجزيرة العربية مهد الوهابية، وعاد محملا بمعارف غزيرة ليكافح بشجاعة من أجل تأسيس جمعية العلماء، وللحصول من السلطات على اعتراف ظل مشروطا وعدائيا، جمعية لقبها الفرنسيون المستهزئون " بجمعية الأدباء الأهليين".

انهارت مدرسة الزوايا الصوفية التي تخرج منها عبد القادر ومقراني وغيرهم من أولياء الله قادة الجهاد، وحلت محلها الآن فروع إسلام حرفي منحدر مباشرة من المدارس الباديسية الحرة أو ملحق بالوهابية الجديدة، فأصبحت كتب الإمام ابن تيمية القراءة المفضلة للأئمة الحاليين في الجزائر وللإسلاميين في غيرها من البلاد.

هكذا وجد عباسي مدني -ذو العقل المتفتح والتكوين المتين- نفسه في خضم تيارات فكرية متنوعة، واستطاع بحنكته وصبره أن يقرب بين الخطباء المتحمسين والمثقفين المتزنين المحيطين بما يجري في العالم. فالاتجاه الثقافي المسمى بـ"الجزأرة" والذي يحدد ذاته انطلاقاً من التمسك بالاستقلالية المذهبية للجزائر هو أحد مكونات جبهة الإنقاذ، وأتباع هذا الاتجاه إسلاميون متفتحون، يَصْدُرُون عن آراءِ مالك بن نبي أحد المفكرين الجزائريين ذوي المستوى العالي والسمعة الدولية.

ورغم أن قطاعاً واسعاً من الحركة الإسلامية في إفريقيا الشمالية خاصة يجهل السياسة والأسس الصوفية لأهم المدارس الإسلامية المعاصرة -مدرسة الإخوان المسلمين- فإن القسط الوافر من القراءات الإسلامية تَسْتبد بها الكتابات الغزيرة لهذه المدرسة. وهي مدرسة تنافس الفكر المتشدد لابن تيمية، فتغني العقول وتنور القلوب خاصة منها تعاليم كاتب الإخوان الكبير سيد قطب.

لهذا تتحدد قدرة كل مجموعة على استيعاب الواقع الحديث وتشرب التعاليم الأصيلة انطلاقاً من قراءتها للفتاوى المتشددة وللكتابات المعاصرة، ومن ثم ينعكس تنوع القراءات على التنظيم ويتدرج أسلوب مقاومة الواقع العدائي من المشاركة السياسية المخيبة للآمال، رغم كونها دائما مطلوبة، إلى الحركية المسلحة.

لكن حركية بويعلي وجيش الإنقاذ لا علاقة لها البتة بالأساليب الوحشية التي ينتهجها مذبحو الأطفال. لأن صد إرهاب الدولة بالسلاح دفاعاً عن النفس مشروع، أما الاعتداء على المدنيين العزل بتلك الطريقة الحقيرة فجريمة شنعاء لا يبررها عذر أو انتماء. من الذي يستطيع أن يثبت أن السفاحين ذوو هوية إسلامية؟

لنفرض جدلا أن الهزيمة التي أعقبها توقيف انتخابات 91 بالجزائر أذهلت بضع عناصر تفجر غضبها، ألم يكن من السهل على الشيطان أن ينتقِيَ من الزبد

الرابي من يحمل المتفجرات والأسلحة الآلية؟ فالجرم جرم الشيطان الإنساني لاجرم الإسلام!

لقد سنحت الفرصة للشيطان كي يوقظ الفتنة فيُجَنِّدَ ملتحين مزيفين، أحَدُّوا الفؤوس ليزرعوا الهلع في قلوب الشعب، وليلطخوا وجه المعارض المحروم. حل السلاح الأبيض محل المسدس الآلي ليظن الناس أن المجرم من هذه الشريحة المهمشة التي كادت أن تكسب الانتخابات وتسطو على الحكم لتدفع البلاد إلى مهاوي الخوف والتقتيل. كل هذا ليقشعر جلد كل إنسان تخطر بباله فكرة احتمال استلام مثل هذه الكائنات الحكم. لذا، تعرض على العالم صورة وحوش تمزق بأنيابها أحشاء الأطفال.

إننا مسلمون

لنعد الآن إلى تتبع مسلسل المقاومة، لننظر كيف تدهورت الأحاسيس التي ألهمت الرجال، من القمة الخضراء، من ولي الله الأمير عبد القادر إلى الزبد الشيطاني العفن المتشبث بامتيازات مهددة، المدفوع بحوافز خسيسة.

حلت فرنسا بالجزائر ممتشقة حسام الغازي المنتقم، تحرك قادتها السياسيين والعسكريين الروح الصليبية. وبعث مشير يدعى بيجو متخرج من مدرسة الجيش النابوليوني المدمر لأروبا، "ليُهَدِّئَ" البلد المفتوح. مهمة قام بها على أحسن مايرام، مما دفع صديقه بوجولا إلى تهنئته سنة 1844 على إنجازاته الباهرة:

"إنكم تكملون ما بدأه جتودفرو Godefroy ولويس السابع والقديس لويس [...] حربنا في الجزائر استمرار للحملات الصليبية"[1].

لكن البرابرة القبائليين مثل إخوانهم العرب حول الأمير المنتخب ردوا على الإنذار الذي وجهه المشير الصليبي بقولهم : " إننا مسلمون... والله ينصر المسلمين! لا تحسبوا أننا رعايا لكم"[2].

واليوم، بعد أكثر من قرن ونصف على الرسالة البربرية المعلنة ولاءها لله عز وجل، آتت البيداغوجية المؤليكة أكلها، فبرزت حفنة من القبائليين المتنكرين لهويتهم ليصرحوا بأنهم بربر وبربر فقط. وأصبحت لافتات دين العرقية الممزوجة بالفرنكفونية تتصدر طاولات الأحزاب الصغيرة التي اعتنقت الأمازيغية مرددة شعاراتها المنافقة: إننا مسلمون ! وشتان ما بين بهتان هذه الشعارات الكاذبة وكلمة الأسلاف الصادقين الذين أعلنوها صادعةً في وجه بيجو: "إننا مسلمون!".

فالأمازيغ المعاصرون يحاربون في ميدان آخر غير ميدان أسلافهم القبائليين المخلصين للإسلام، المتوكلين على الله، المسلمين قيادهم لولي من أولياء الله.

لنذكر فاقدي الذاكرة هؤلاء أن سنة 1871 –أي جيلا واحداً بعد استسلام الأمير عبد القادر رحمه الله سنة –1847 شهدت قيام ولي آخر من أولياء الله،

(1) Futuribles,Op.Cit,P.23

(2) نفسه، ص23.

مقراني، ليعلن الجهاد ضد المحتل وليحارب الصليبيين. مقراني اسم بربري، ولي بربري، صالح بربري، بطل بربري من أبطال الإسلام.

حمل هذا الرجل لواء الجهاد وحارب الجيوش الاستعمارية لكنه هزم، انهار أمام التفاوت الهائل بين فرسان مسلحين ببنادق بدائية وجيوش استعمارية مدججة بالمدافع، مدافع اندحرت أمام الألمان في نفس السنة، لتحول فوهاتها نحو بدو كانوا يندفعون نحوها بصدور عارية، باذلين أرواحهم في سبيل دينهم.

أيكون من الغريب إذن أن تنعقد اليوم في فرنسا مؤتمرات أمازيغية ترعاها أطراف مجهولة[1]؟ أمن الغريب أن تؤوي فرنسا الناطقين بالبربرية في إفريقيا الشمالية، ليؤطرهم منظرو العنصرية -الأفارقة منهم والأوربيون- وليُمَذهِبَ هؤلاء شبيبة متعطشة إلى هوية، غافلة عما يحاك ضد الإسلام؟

فتحت مجددا جبهة أخرى مناهضة للإسلامية كانت الإدارة الاستعمارية بالمغرب قد دَشَّنتها سنة 1930 بإصدارها الظهير البربري، القانون الغادر الهادف إلى استبدال النظام العرفي القبلي بالشريعة الإسلامية التي كانت سارية المفعول آنذاك. وكان أول من احتج هم البرابرة الذين رددوا صيحة إخوانهم القبائليين الذين اضطهدهم بيجو من قبل :"إننا مسلمون ! إننا مسلمون !".

(1) هي الرعاية نفسها التي تُعضِّد في أرض الإسلام: أ: صحافة لائيكية متشددة ب: بعض رموز الحركة النسوية التي تعير أسماءها الأهلية لمواهب أدبٍ مُعادٍ للإسلام. ج: الخصخصة حتى يصبح الشعب رهينة في قبضة الرساميل اليهودية.

واليوم، ينهض خَلْف لائكي من عرب وبربر في وجه القضية الإسلامية بالجزائر وفي غيرها من مناطق إفريقيا الشمالية؛ عرب وبربر يتَّحِدون كلما كان الخصم ملتحيا، متناسين نزاعاتهم الثنائية إلى حين. سد منيع في وجه المشروع الإسلامي، حصان طروادة يتسلل بواسطته المتآمرون على الإسلام. لا عجب فقد أثبت الانشقاق العنصري في أفغانستان -حيث يتناحر الآذريون والبشتون، المتنكرون لولائهم لله عز وجل، العاكفون على الوثن القبلي- فعالية زرع الفتنة القبلية الفتاكة بالمسلمين وبدين المسلمين.

وإذا كان بث الفُرقة بين الناس وتشكيكهم في ذواتهم كفيلاً بتعذيبهم فإن تحقيرهم يعمق معاناتهم. ففي سنة 1871، سنة الهزيمة المزدوجة، انهزام المقاوم العظيم أمام الجيوش الإمبريالية في الجزائر واندحار جيوش نابليونII الإمبراطورية بباريس، صدر بمدينة الجزائر قانون الأهلية الذي يجعل الجزائريين الأصليين مواطنين من الدرجة الثانية، رعاعا يخدمون الأرستقراطية البيضاء. ذلك أن سنة 1889 -أي قبل ثمان عشرة سنة من ذلك التاريخ- كانت شهدت الإنعام على كل أوربي يعيش في الجزائر بالجنسية الفرنسية وبالامتيازات المترتبة عنها. أما المسلم فقد رقي فيما بعد من مرتبة الأهلي التابع لفرنسا إلى الوضعية التمييزية التي تجعل منه فرنسيا مسلما لا يرقى إلى مرتبة الفرنسي الفرنسي.

هكذا، حمل الجزائريون بشرتهم، رمز دونيتهم، مثلما سيحمل النازيون اليهود النجمة الصفراء. فلنعترف هنا بأن ج. م. لوبان لايفجر حقده العنصري إلا في وطنه وليس في أوطان الآخرين، وياله من فرق بئيس!

كان الجزائري إذن ملزما بتقديم وثائقه التعريفية كلما تعرض للتفتيش حتى يعرض بوضوح عاهته العرقية. غير أن هذا الاضطهاد خف قليلا قبيل الحرب العالمية الأولى بسبب احتياج فرنسا إلى أجساد الأهالي لتقيها نار المدافع الهتلرية. فقام الجزائريون الأهالي، المسلمون، "بواجب المواطنة" وضحوا بعشرات الآلاف من شبابهم الذي أصبح يتساكن "مواطنوه" وأسياده في خنادق فرنسا حيث تنصب عليهم القنابل. بعد الحرب، كافأت "الأم الرؤوم" -فرنسا- "أبناءها" الجزائريين بمنحهم حق التنظيم في أحزاب سُمِّيَت "وطنية ". وظهر سنة 1920 ابن باديس وجمعية العلماء، رجال العلم والصلاح الذين اعتبرهم المحتل مجرد متأدبين أهليين. ظهرت لمناهضة الأحزاب الوطنية التي كانت قد تجاسرت منذ 1919 على المطالبة بالاستقلال رغم أنها لم تعلن عن هويتها. لم تكن جمعية العلماء مقصرة في مجال المطالبة السياسية لكنها إضافة إلى المساهمة في الانبعاث الوطني العام ركزت على القضية الجوهرية : قضية إسلامية الجزائر.

وحين أتحدث عن الوطنيين، أعني فضلاءهم، لأن ثلة أخرى منهم كانت تقتصر في "كفاحها" الذي امتد إلى موعد الاستقلال سنة 1962 على المطالبة بالجنسية الفرنسية التامة.

فبعد أن قرت أعين الأوربيين واليهود بالتجنس الفرنسي، أغري الجزائريون -من استطاع منهم أن يتحدى الرأي العام المتمسك بدينه- بذلك. لكن جمعية العلماء كانت بالمرصاد، إذ أطلق ابن باديس نداءه البسيط الصريح : "شعب الجزائر مسلم متمسك بعروبته" وصاغه في قالب شعري رشيق :

شعب الجزائـر مسلم وإلى العروبة ينتسب

ثم صدر سنة 1938 بيان عن جمعية العلماء أثار سخط الشعب الجزائري على محاولة الاستعمار تجنيس الجزائريين بترغيبهم في امتيازات كانت إلى ذلك الوقت حكرا على الأوربيين واليهود. وكان حكم العلماء الأفاضل قاطعا: كل من قبل عرض التجنيس يصبح في الحال مرتدا عن دينه، ولا يسمح له أن يدفن بعد موته مع المسلمين. ولم يكن أحد يستطيع حينئذ مهما بلغ كفره ولائكيته أن يتحمل فكرة الدفن في مقابر الكفار، إذ باستثناء بعض الإمعات كان الإيمان -إيمان الآباء والأمهات- ضارباً جذورهُ في قلوب غالبية الشعب إن لم يكن كل الشعب الوجل من غضب الله ومن لعنة الله الأبدية. أما الآخرون، ذوو العقيدة المتهاوية أو المنعدمة، فكانوا يخافون أن يجلبوا العار على ذويهم، لأن الخزي الاجتماعي كان يلازم كل من دفن أحد أقاربه مع الكفار.

غَيِّروا الشعب!

استعرنا التغيير من قولة الكاتب المسرحي والشاعر الألماني برتولد بريخت: "لم تعد السلطة تثق بالشعب، ولذا يجب تغيير الشعب". تعبير حاول العسكريون المتحزبون أن يطبقوه حين سطوا على انتخابات 1991 كما حاول ذلك الاستعمار الفرنسي من قبل طيلة مائة وثلاثين سنة. وكما فشل هذا، فلن يجني أولئك أي ثمرة في المستقبل، لأن فطرة الشعب المسلم لا يمكن بفضل الله أن تغير، مهما توسلوا بالنذالة السياسية أو بالقمع الأهوج أو ببداغوجية التدجين والأليكة. حاول المنصرون الأروبيون أن يفسدوا عقيدة الجزائريين فلم يُفلحوا رغم التجنيس المشَوِّه الذي حاولت الإدارة الاستعمارية أن تخدع به المسلمين، ذلك التجنيس الذي انتفض عليه الشعب الجزائري الملتَفِّ حول أئمته علماء الدين. "فحين يكتسب المرء جنسية غير مسلمة، يهجر –حسب بيان ابن باديس– إسلامه. وحين يقبل التجنس يتنكر لدينه لأن التخلي عن مبدإ قرآني واحد يعني الردة"[1].

فعل إذن بيان 1938 –الموجه إلى الشعب الجزائري المسلم وإلى الحكومة الفرنسية والشعب الفرنسي– فعله، فاضطرت الإدارة الاستعمارية بعد فشلها في تسويق طُعم التجنيس إلى تشغيل الآلة السياسية الثقافية. عبثا! فقد كان علماء الإسلام اليقظون بالمرصاد.

(1) Futuribles, op.cit,P25

ففي سنة 1950، أدانوا السياسة الاستعمارية التي كانت "تنتهز كل الفرص لإهانة الإسلام في بلد ترعرع فيه الإسلام منذ ثلاثة عشر قرناً "[1]. ودوت صيحة ابن باديس المعبئة للجماهير: "الإسلام ديني والعربية لغتي والجزائر وطني". بينما كان شعار الوطنيين الهجين يتذبذب بين إسلام لا محيد عنه من أجل ضمان التفاف الكتلة المسلمة وبين حداثة لابد للحركية السياسية أن تتسلح بها إذا أرادت أن تكون أكثر فعالية من المقاومة القروية التقليدية.

كان الوضع مطابقا لما عرضه المثقف الجزائري عبد الحميد شرفة في تحليله الموثق الموفق –رغم ما اعترى استشرافه للآفاق المستقبلية من تشاؤم– والذي نشرته مجلة فوتورييل: "نلاحظ أن الفترة الاستعمارية في الجزائر– كما في غيرها من بقاع العالم العربي الإسلامي– كانت حاسمة، فقد شهدت في البداية بروز تعلق شديد بالدين من الأغلبية الهائلة المتكونة من سكان المدن والبوادي المحرومين، المقاومين، الأميين أو ذوي التكوين العربي الضعيف ذوي الإيمان العميق...".

"لكن فشل حركات التمرد المنضوية تحت لواء الإسلام واكتشاف قواعد اللعبة السياسية المتحكمة في المجتمع الفرنسي دفع المقاومة إلى تكييف إسلامها للواقع، مما اضطرها إلى تبني أسلوب المعارضة السياسية وتأسيس أحزاب قانونية".

(1) Futuribles, op.cit,P25

"وبما أن منطق اشتغال هذه الأحزاب يقوم على استعمال خطاب يستسقي من نظام قِيَمٍ غربيٍّ، فإن النخبة المثقفة المتعربة ارتابت في هذا الأسلوب واعتبرته منحرفا عن الإطار الإسلامي للمقاومة".

"وظهرت جمعية العلماء لتترجم هذا الهم -همَّ اليقظة السياسية- ولتكون تلك أول خطوة يخطوها الإسلام نحو الحقل السياسي. منذ ذلك الحين، والأصولية كامنة، والخصام بين "الوطنيين الفرنكفونيين المُؤَلَيَكين" و"المتعربين المسلمين الأُصلاء الجزائريين" يَدِبُّ على خط التاريخ"[1].

لكنني أظن أن سبب الفصام بين الفرنكفونيين اللائيكيين والإسلاميين الأصلاء لا ينحصر في أسلوب عمل الأحزاب السياسية، فقد تمكن المكر الخفي الذي تسلحت به البيداغوجية المؤليَكة والاحتكاك اليومي بالساكنة الأوربية من تقزيم الإحساس بالانتماء إلى الإسلام عند الفرنكفونيين، بل محوه كليا في قلوب شرذمة ضئيلة الحجم سياسيا، منبوذة شعبيا.

أما الانتماء الجزائري فقد كان الفرنكفونيون يعلنون تمسكهم به أكثر من المتعربين، بل كانوا يجعلونه محور مقاومتهم الإيديولوجية. إذ بينما كان العلماء يلقنون الشعب أنه مسلم قبل كل شيء، وأن ولاءه لله عز وجل يعني أيضا انتسابه للمحيط العربي وللعالمية الإسلامية الرحبة، كان اللائيكيون

(1) Futuribles, op.cit,P25

يركزون على جزائرية الجزائريين دون أن يتنازلوا عن الشعار السهل، ذي المردودية السياسية: "إننا جميعاً مسلمون".

لقد تخرجت الطبقة السياسية الحاكمة في بلدان الشمال الإفريقي والبلدان الإسلامية المستعمَرة سابقا من مدرسة الحداثة اللائيكية التي أعادت تكوينها بعد الاستقلال. فالحداثة إذن ملازمة للائيكية، واللائيكية تتجسد سياسيا في الارتباط بجغرافية أو أرض الدولة القومية بدلا من الارتباط بتاريخ الأمة. ولذا يعتبر الأهالي القدماء المتشبعون بالحداثة اللائيكية أن الانحصار في حدود نستميت في الدفاع عنها ونبذل الأرواح في سبيلها ليس عرضا مرضيا بل هو دليل صحة وعافية.

لكن، لكي نظهر إخلاصنا للوننا المحلي ونبرهن على تمسكنا بجنسيتنا ووطنيتنا، سنعلن عاليا أننا مخلصون للغتنا الوطنية مهما بلغت فرنكفونيتنا وضحالة رصيدنا من اللغة العربية. باستثناء هواري بومدين الرئيس المتعرب، المُنافح عن الهُوِيَّة الجزائرية. وهو استثناء يؤكد القاعدة.

فقبيل استقلال الدول المغاربية، كلف الفرنكفونيون الفرنسيون نظراءهم من موظفي إفريقيا الشمالية بتسيير المفاوضات وإبرام المعاهدات. كان ذلك آخر سهم في جعبة المستعمرين لـ"تغيير الشعب": تعيين "محاورين أكفاء"طيعين، وشد أزرهم حتى يثبتوا على كراسي الحكم وينجح المشروع. وقام بنو جلدتنا بالمهمة أحسن قيام في الجزائر. قام الفرنكفونيون

المتخرجون من المدرسة الفرنسية، بعد أن صَفَّوْا حسابهم مع خصومهم، بانقلاب مكنهم من الاستيلاء على الإدارة واحتكار المناصب الحساسة، مقصين بذلك الطائفة المتعربة المتخرجة من المدارس الباديسية.

شَاهِدُنَا على ماحدث هو جاك بيرك، المفتش المدني الأسبق في الإدارة الاستعمارية، "صديق العرب" والمستعرب الذائع الصيت الذي سخر أسلوبه الأدبي المتين لتصوير أحاسيس وتصرفات أصدقائه الذين كسبهم خلال مسيرته المتألقة في الكوليج دي فرانس. وجه آخر للوحة التي رسمها شرفة ونظرة أخرى –خارجية هذه المرة– على النخبة المثقفة الجزائرية.

يتساءل المفتش المدني قائلا: "هل كان من اللازم في الجزائر أن تُعَارِضَ القيم بالاشتراكية في بداية عهد الاستقلال؟ وما جدوى قيم غربية ستتعارض مع المستقبل؟ وأي معنى لقيم تاريخية تنبذ الثوابت التي يتشبث بها الشعب"[1].

ذلك هو المشكل الذي تفحصه هذا الملاحظ الدقيق في كتابه المنشور منذ مدة طويلة قبل أن يتبارز في حلبة السياسة إسلاميون يمثلون في أعين الشعب "حقيقته الغيبية" وعلمانيون نصبوا أنفسهم ضامنا وحيدا للمستقبل الديمقراطي.

أولئك هم أبطال الديموقراطية الذين سيغتالون الديموقراطية ويخنقونها بعد عقد من صدور كتاب بيرك، خوفا من أن يدنس "الغيبيون"، أعداء الديموقراطية،

(1) Les Arabes, Sindibad, Paris1979, P143

ثوبها الطاهر. ذلك أن السنوات التي تلت النظرة التي ألقاها بيرك على النخبة اللائيكية كانت كفيلة بإكسابها المزيد من المكر وتعميق إحساسها بالضياع.

"فالنخبة المثقفة لا تنفك تجتر هذه الموضوعات في العديد من المؤلفات الروائية وتعبر عن إحساسها بالحرمان والضياع، مذبذبة بين ضغوط الحكم والانتماء الطائفي والتحالفات المذهبية وبين ما يفرضه على المثقف مركزه الذي يمكنه من تفسير إرادة الجماهير حسب رؤيته الخاصة"[1].

يقصد الكاتب هنا المثقفين الذين تتنازعهم ثقافتهم المستعارة والقيم التقليدية التي تتعلق بها الكتلة الشعبية، لأن النخبة المثقفة لا تتكون فقط من مثقفين ملتزمين، والمثقفون الملتزمون ليسوا جميعا مناضلين سياسيين. ثم إن المناضلين منهم لا يمتلكون كلهم أزمة الحكم. إلا أنهم جميعا يستنشقون نفس الهواء –هواء الحرمان– ويتقاسمون جميعا التحالفات الحزبية والعائلية والانتماءات المذهبية، يجمعهم هم واحد: هم المثقف النموذجي، هم تفسير الإرادة الجماهرية بواسطة "منهج ذاتي" يبرهن على استحقاقهم الوسام النخبوي.

وفجأة، بعد حوالي ثلاثين سنة من الاستقلال، برزت نخبة أخرى مسلحة بقوة جديدة وبإرادة حركية، نخبة فضلت الاعتزال منذ مدة طويلة لترعى قِيَمها وتضاعف قوتها: الإسلاميون.

(1) Les Arabes, Sindibad, Paris1979, P143

هكذا، برزت في الجامعة جمعية القيم بينما المواجهة على أشدها بين اللائكيين والإسلاميين، ليكتسح مَدٌّ جبهة الإنقاذ بقيادة عباسي مدني وعلي بلحاج الساحة السياسية، ولتدور عجلة الأحداث وتنحرف بالمسار نحو المأساة التي تتخبط الجزائر فيها حاليا.

آفة البشرية: التعذيب

من يزرع الريح يحصد العاصفة، لكن كيف يكون الحصاد إذا كان البذر عاصفة؟ اطلعنا على جزء من تقرير لجنة التحقيق البرلمانية المندد بتدنيس المقدسات الإسلامية والتقتيل الممنهج للجزائريين المسلمين.

فقد حصدت الرشاشات عشرات الآلاف من المسلمين الجزائريين الذين انتفضوا في سطيف سنة 1945، وتولى تنفيذ المجزرة جيش خرج لتوه من هزيمة تاريخية ليمارس البطولة على المدنيين العزل، وليسترد كرامته الضائعة. تشهد بذلك حوليات الاستعمار العسكرية والمدنية التي تصور فظاعة أساليب التعذيب الممارس آنذاك على الشعب الثائر.

إننا نشاطر المنظمات غير الحكومية سخطها واشمئزازها مما يحدث في الجزائر. لكن السخط لا يكفي، إذ لا بد من التحرك حتى نتمكن من التغيير. ولكي نتحرك لا بد من أن نفهم. دعونا إذن نستقصي إرهاصات العاصفة ونتعرف على الوباء الفتاك الذي ينخر أعماق المجتمع الشهيد.

فبما أن التعذيب، آفة البشرية هذه، علة كامنة في النفوس الجبانة الحقيرة، يتغذى فيروسها وينمو في خُسْوة تمكنه من اختبار "مواهبه" وصقلها، فإن الجلاد يتنفس الهواء المناسب له حين تحل الفوضى السياسية كما هو الشأن حاليا.

لقد تعرفنا على صانعي المأساة ورأينا كيف خرج الإسلاميون من رحم العدم السياسي ليعكروا صفو نخبة حاكمة، متحصنة بامتيازاتها، متشنجة على انتماءاتها المذهبية.

وفي خضم الأحداث المتعاقبة، ينسى الناس جذور الوضع الحالي ويجهلون الدافع إلى ارتكاب الجريمة، كيف بلغ الأمر هذا الحد؟ كيف تسببت الضربات والضربات المضادة في الكارثة الحاضرة؟

لقد نُشِر ملف كامل يشتمل على ثمانمائة صفحة موزعة على ثلاثة مجلدات عنوانه "الكتاب الأبيض للقمع في الجزائر"[1]. صفحات متسربلة بحمرة دم الضحايا الإسلاميين. شهادات مذهلة موثقة بأسماء الأشخاص وأماكن وتواريخ التعذيب مع الوصف الدقيق للأساليب الشيطانية التي يستعملها زبانية مقنعون أو -في بعض الأحيان- سافرو الوجوه : أحدث الطرق لقلع الأسنان وتهشيم العظام وتحطيم الضلوع وسمل العيون... وألطاف أخرى من هذا الصنف. ولا ننسى المواد الكيماوية والصعقات الكهربائية لإضفاء نكهة جديدة على آلام الضحايا.

(1) Hoggar, Route Saconnex-d'Arve 110,1228, Plan-les-Ouattes, Suisse.

يا للويل والثبور ! ورث الجلادون تربية طبعت جيناتهم عن أستاذ الكوليج دي فرانس وعن إدارته عندما كان مفتشا مدنيا في الجزائر والمغرب حينما كان "يمؤسس" هذه الممارسة الشنيعة ويلقنها للتلاميذ الذين كان يحضنهم أيام الاستعمار ويرعاهم بعدما قفزوا إلى الحكم إبان الاستقلال. فهو إذن يعرف أبناءه جيدا ويدرك أبعاد ما يقول حين يقدر المسافة الفاصلة بين التلامذة السابقين للاستعمار والشعب المسلم المتشبث بثوابته.

فهؤلاء القُصاميون حديثو العهد بالسلطة يستميتون في الدفاع عن الدولة الجابية لأنهم يستمدون منها وجودهم، ولأنها تمدهم بالجاه والنفوذ. حتى إذا ما برز الشعب المقمص المحجب ليهدد حاضر ومستقبل أصحاب الصولة والصولجان، أخرج الوحش مخالبه وكشر عن أنيابه، ليرتدي العريف ذو الرتبة العسكرية أو المكلف بأسمى الوظائف في الجمهورية حذاء الضابط الفرنسي الذي تخلى عن ماضيه المجيد وأسند مهمة تعذيب الناس إلى المحروم المحلي. وسواء خضع الجلاوِزَة المحليون من قبل للتعذيب الاستعماري أم سلموا منه، فإنهم سرعان ما يصبحون متخصصين في المجال.

فباعتبار عدو الإسلام من بني جلدته ينتمي إلى النخبة المثقفة الحاكمة، فهو لا يفتقر إلى مرجعية تبيح له اغتيال الديموقراطية بعد أن كان يصدح بها: المكيافيلية الكلاسيكية تلقنه أن كل أمير يتعفف عن استعمال العنف حاكم

فاشل. مما مكن مدرسة الخداع المقرون بالقسوة الفلورانسية من الازدهار.

أو أن الاشتراكي الذي رضع لِبان النظرية اللينينية وتبنى الأساليب الحاسمة الستالينية المعلنة أو المستبطنة يلتزم حرفيا بأساليب تغيير الشعب التي ابتكرتها الصناعة الاشتراكية: الأشغال الشاقة لهؤلاء المتطرفين الوقحين الذين يطمحون إلى السطو على الحكم عبر اقتراع ديموقراطي بورجوازي !

أعفي القارئ من مشاهد التنكيل الفردي والجماعي، وأدع الإخوان الإسلاميين يتحدثون ولا أدري هل يقبل الأستاذ عبد النور علي يحيى -الرئيس المؤسس للعصبة الجزائرية للدفاع عن حقوق الإنسان- نعته بالإسلامي -نعت يتبرأ منه الجميع- كما يتحمل بشجاعة ونموذجية واجبهُ كرجل قانون، كرجل فضيلة.

فلقد وقَّع هذا الحقوقي النبيل مقدمة كتاب "الجزائر في همسات"[1] مستهلا مرافعته بقوله: " لم تتوصل الجزائر بعد إلى تحقيق التوازن بين ماضيها ومستقبلها، بين تاريخها وحداثتها، فهي تعاني أزمة مجتمع وأزمة حكم، وتتعرض بسبب إفلاسها الاقتصادي المصاحب لفشلها السياسي لخطرين اثنين:

أولهما: تفاقم تعفن الحياة السياسية، وبالتالي ارتفاع حجم الخسائر البشرية وتضاعف التكلفة الاقتصادية والمالية والاجتماعية.

---

(1) Hoggar, 1996

ثانيهما: الانجراف نحو الحرب الأهلية، إذ لم تدرك السلطة الحاكمة ضرورة تهييء الأرضية المناسبة للعقد الاجتماعي الكفيل بتقديم الحل الشامل والسامي للأزمة".

يقصد محامينا بالعقد الاجتماعي الميثاق الذي وقعه في إيطاليا أعضاء تحالف الأحزاب الجزائرية -خاصة منهم إسلاميو جبهة الإنقاذ والاشتراكيون البربريون أعضاء جبهة القوى الاشتراكية- والذي احتضنته جمعية سان إيجيدو الكاثوليكية، مما أثار حفيظة حكام الجزائر الذين اعتبروه "تدخلا سافرا في الشؤون الداخلية لبلد ذي سيادة".

لكن العقد الاجتماعي بقي حبرا على ورق كما ذهبت أدراج الرياح الإدانات العديدة والنداءات المتكررة الداعية إلى تكليف لجان تحقيق بإماطة اللثام عما يحدث وتحديد المسؤولين عن المذابح والتعذيبات.

لقد كان الدافع إلى توقيع هذا الميثاق الرغبة في طي صفحة الماضي وإيقاف المسلسل الجهنمي، ثم الكشف عن التعفن والتواطؤ. وهو ما لم يتحمله الجلادون الذين يجهدون لإدامة المجزرة.

ألم تتم تصفية بوضياف بكل برود بعد أن استقدم ونصب رئيسا للدولة أملا في أن يمنحها شيئا من الكرامة والتقدير؟ ألم يغتل المسكين بعد أن اكتشف خبايا اللعبة؟ اغتاله -وهو أحد مؤسسي جبهة التحرير الوطنية- حراسه الخاصون أمام الملإ. أسلوب حقير ينسجم مع مبادئ عصابة شرذمة مُصَممة!

لا مناص إذن من التحلي بالحكمة والتواضع الإنساني للاعتراف بالخطأ، فالبحث عن منفذ للوضع المتردي. لكن هل من أمل في أن تتراجع منظمة أعماها حب السلطة عن كل فضيلة؟ لا! فالشعب لا يروق للجاثمين على صدره، وممثلوه الشرعيون لا يمكن أن تقبلهم الطغمة المتسلطة. لابد إذن من تغيير الشعب وتشتيت المشاغبين.

ولنعد إلى الأستاذ علي يحيى في مقدمته: "يؤمن النظام الذي ليس قانونيا ولا شرعيا ولا ديموقراطيا، أنه ينقذ الجزائر من نفسها كل صباح، لأنها "أساءت استعمال" حرية تصويت"[1].

إنها إهانة عظمى للقانون أن يحاول الشعب استبدال الحكومة، حماقة سياسية كبرى أن يسيء استعمال الديموقراطية بتصويته لهؤلاء الطارئين وتنكره لأسياده، فلتصحح إذن مسيرة الشعب وليكن عقاب المتمردين مثاليا!

لم يعد الحكم يثق بالشعب ولذا يجب تغيير الشعب !

"لكن الشعب الجزائري -حسب الأستاذ علي يحيى- ليس طائشا ولا متخلفا، ولا غير عقلاني. بل هو منار دل العديد من بلدان العالم الثالث على طريق الحرية ليتحول بعد تدخل الحكم إلى مجرد مصباح لا يملك حتى أن يضيء أركان بيته.

(1) Hoggar, 1996

لكنه لم يصادق قطُّ على مصادرة النظام -الذي لم يعد يستحق ثقته- للحكم، بل أصبح يطالب بتغيير النظام بأكمله، لا بتعديله. إن اعتبار الجزائريين محاجير يجهلون كيف يصوتون ويحتاجون دائما إلى أوصياء خطأ فادح، لأنهم راشدون، مسؤولون"(1).

ثم ينبري محام آخر -فرنسي هذه المرة- ليحكي لنا كيف وضع هذا الشعب الذي قدَّم خلال حرب الاستقلال أكثر من مليون شهيد تحت الوصاية وكيف اقتيد ممثلوه إلى لهيب الصحراء في ظروف تَفتقر إلى أدنى الشروط الصحية لِيَصْلَى من العذاب أصنافا متنوعة يذكر الأستاذ فيرجس أن "أكثر من عشرة آلاف مستشار بلدية أو ولاية اعتقلوا دون تهمة أو محاكمة، واقتيدوا إلى سبعة مراكز اعتقال صحراوية تبتعد عن مساكنهم ألف أو ألفي بل أحيانا ثلاثة آلاف كيلومتر [...]. رسميا، جاء الانقلاب لينقذ الديموقراطية" (2).

يحاول المحامي المنكبُّ على الملفات والطعون الشكلية أن يظهر مدى فظاعة الظلم الذي سلط على المعسكر المعارض لمعسكر أصدقائه ممن وجه إليهم رسالته المفتوحة فكانت شهادته الماثلة بين أيدينا، المستحقة تقديرَنا.

---

(1) Hoggar, 1996

(2) Lettre ouverte à des amis Algeriens devenus tortionnaires, Albin Michel, Paris 1993, P20.

ورغم ذلك، تظل كل الملفات قاصرة عن اكتشاف جذور الخبال الذي استبد بالقتلة.

جنون دموي دفعهم إلى اقتياد عشرات الآلاف إلى جحيم الصحراء، وساق شعبا بأكمله إلى المسالخ.

لكن هذا الجنون القاتل ليس"ميزة" تختص بها النخبة التي ترتهن شعب الجزائر، فهناك إسلاميون آخرون يعانون في صمت دون أن يعيرهم الآخرون أي اهتمام.

إسلاميو النهضة التونسيون الذين تجرؤوا على كسب الشعبية والحصول على نسبة معتبرة من الأصوات في الانتخابات.

عشرات الآلاف رجالا ونساءً كدسوا في زنزانات عفنة بعد أن ذاقوا أصناف العذاب اليومي الذي كان يلازمهم قبل وخلال وبعد المحاكمة، إن كان هناك محاكمة. بينما تقاسي العائلات مرارة الآلام المبرحة بينما يحتضر سجينها في المعتقلات التونسية سيئة الصيت.

لا أحد يبكي شهداء النهضة، ضاعت معاناتهم وسط جعجعة الحملة الدولية على الإسلاميين، ولم يعد مصير الآلاف يحرك وسائل الإعلام أو المنظمات غير الحكومية.

الفصل الرابع
الجرح الفلسطيني

فلسطين المشروع

فلسطين الابتلاء

فلسطين، أسلمة التاريخ

أبناء إسرائيل العاقون

علوٌّ وقسوة

فلسطين المشروع

عاش اليهود عدة قرون في كنف خليفة الأندلس باعتراف المؤرخين اليهود أنفسهم الذين أكدوا أن العصر الذهبي للشعب اليهودي يقع جغرافيا وتاريخيا في إسبانيا المسلمة. فبينما كان اليهودي في باقي أصقاع أوربا مطاردا منبوذا من مجتمعات تعتبره قاتلا لابن الإله وسليلا للجنس الذي خان المسيح وصلبه، كان اليهودُ والنصارى في إسبانيا المسلمة يتمتعون بالحقوق التي أعطاها الإسلام لأهل الذمة –أهلِ الكتاب خاصةً وللأقليات عامة– ثم سقط المسلمون واليهود، بعد أن عاشوا طويلا منسجمين تحت ظل حضارة مزدهرة متسامحة، في قبضة حركة استعادة الأرض ومحاكم التفتيش التي بدأت تحرق وتعذب دون اعتبار لأي تمييز عرقي.

تشتت اليهود إذن، ولجؤوا إلى إفريقيا الشمالية والمشرق الإسلامي، فِراراً من المذابح الجماعية الموسمية التي كانت تقام لهم في أوربا. وتوجهوا إلى حيث يمكنهم أن يتمتعوا بالأمن التام والحياة الهنيئة في مجتمعات الغرب والشرق الإسلاميين.

ثم انبعثت "القضية التاريخية" اليهودية في أوربا خلال القرن التاسع عشر، وبرزت الحركة الصهيونية المؤسسة على إيديولوجية لائيكية أعرضت عن التعاليم التلمودية وطلقت صورة اليهودي التائه صاحب المَجْعَد، لترتدي بذلة البنكي الثري الألماني أو الجنتلمان خريج أوكسفورد.

لقد كان آل روتشيلد وآل هرتزل لائيكيين يرتدون البذلة والربطة، لكن قلبهم كان يهوديا. كانوا يدركون جيدا مدى ما يقاسيه قومهم الغارقون في بؤس غيتوهات وارسو وروسيا.

لهذا أسس المجَري هرتزل الحركة الصهيونية، الوجه اليهودي للحداثة اللائيكية، ورسم المشروع الطموح، مشروع بناء دولة يهودية في جهة ما من العالم.

كانت أوربا في حاجة ماسة إلى حوض يستقبل ما فاض عنها من العنصر اليهودي، بالغ الذكاء، فائق النشاط، شديد المهارة في التجارة، العنصر المزعج الذي تنظم وألح على الدول/ الأمم الأوربية السالكة سبيل الديموقراطية أن تمنحه حقوقا وتملكه أرضا تطلع عليها الشمس. وما قضية دريفوس في فرنسا إلا مثال بين لظهور اليهود في الساحة واستغلال الإمكانيات التي استحدثها العصر لمكافحة الظلم والتأثير على الرأي العام بواسطة إعلام حر تسلل إليه المال اليهودي والنخبة المثقفة اليهودية.

التقى الاضطهاد العنصري بالفرصة التاريخية لتسكت السياسة الاستعمارية البريطانية الطموح اليهودي بإيوائه في فلسطين. وتتسارع وتيرة الهجرة اليهودية إلى "أرض الميعاد" بعد الحرب العالمية الأولى. تدفقت أمواج المهاجرين يحثها الوعد البريطاني لتدق أوتاد دولة في الأراضي الخاضعة للانتداب البريطاني. ثم عوضت الحركية السياسية الإرهابية التي تبناها الجيل الصهيوني الثاني النشاط

الإيديولوجي المعبئ الذي قام عليه الحلف الإسرائيلي العالمي. وخلال الحرب العالمية الثانية، لجأ الناجون من المذبحة إلى فلسطين، وخلد الفن السابع أسطورة الهجرة عارضا على أنظار العالم المتباكي صورة اليهودي الناجي، ضحية الظلم الهمجي الذي مارسته أوربا النازية أو المواطئة للنازية.

هاهو ذا ضمير أوربا الخارجة لتوها من الحرب ممزق، مثقل بالندم، بعد أن استدار القادة الصهاينة -الذين ثبتت مغازلتهم للإدارة الهتلرية- ليهاجموا المنتصرين ويتهموهم بمشاركة النازيين في تذبيح اليهود. أفلح الماكرون في ارتهان الضمير المعذب وأصبحت أوربا ملزمة بوضع أسس دولة يهودية في فلسطين لتخفيف الضغط اليهودي على بلادها أولا وللتكفير عن خطيئتها ثانياً.

أما الولايات المتحدة، فقد دعمت الدولة اليهودية منذ نشوئها لثلاثة أسباب أكثر أهمية من دوافع أوربا إلى مؤازرتها. أولها أن حلول مملكة صهيون عقيدة يشارك اليهود فيها البروتستانتيون المنكبون على تلاوة التوراة. وثانيها أن الأرض العربية تتوفر على أكبر حقول النفط في العالم وتحتاج لذلك إلى حارس"أمين" يحفظ الكنز ريثما تهب "عاصفة الصحراء". لكن العلة الاقتصادية والعلة الاعتقادية تدعمهما علة ثالثة -سياسية هذه المرة- تنبع مباشرة من الأحداث، وتكمن في وجود مجموعة ضغط يهودية في واشنطن يسندها حوالي ستة ملايين من اليهود يملكون الثراء والقوة، ويتمتعون بالنشاط. هكذا تتعدد أنواع

المساعدات الأوربية والأمريكية المقدمة إلى الدولة اليهودية. فزيادة على دعم يهود الشتات الأثرياء، يتجسد حلف الدفاع المشترك بين الولايات المتحدة وإسرائيل والتكفير الأوربي في أنبوب يمد الدولة العبرية بالدعم العسكري والمالي، والتكنولوجي والدبلوماسي والأمني...

فلسطين الابتلاء

امتحان عسير، معاناة دائمة، دمار مخيم: مصيبة 1948، بلية 1956، طامة 1967، كارثة 1973... والبقية تأتي.

أظهرت الهزائم العربية أمام دويلة إسرائيل مدى تفكك المجتمعات العربية ورعونة حكوماتها، حقائق مؤلمة ! فبعد خيانة القادة الذين سلحوا جنودهم سنة 48 ببنادق معطوبة وذخائر فاسدة، غابَ الجنرالات المصرية عن ميدان القتال أثناء هجوم إسرائيل الصاعق سنة 67 وانهمكت في لذاتها الآثمة. قد تكون تلك آخر فرصة لتحارب مصر الدولة الصهيونية نِدّاً لندٍّ إذ كان العم سام يستعد للدخول إلى الميدان.

وحين تخلى الجيش المصري سنة 73 عن الشعارات الوطنية ودوت في ساحات المعارك صيحة الله أكبر تحركت أمريكا حامية صهيون لتبني جسرا جويا ضخما أغرق الميدان بالطائرات والدبابات.

أما منظمة الأمم المتحدة، فلطالما أصدرت قراراتها بإدانة إسرائيل لتنقضها الولايات المتحدة ولتضرب بها الدولة العبرية عُرض الحائط معتبرة إياها مجرد أوراق تافهة.

ولأن دولة يهود هي البنت المدللة لأمريكا البروتستانتية الهائمة بالأساطير التوراتية، فهي لا تتردد –مستقوية بجهاز دعايتها الأخطبوطي المتنفذ في أمريكا– في تضخيم أعداد ضحايا هتلر، مقتبسة من الخزان التوراتي المشترك مفاهيم معبئة مثل الخروج، والمحرقة، رافعة شعار "أرض بدون شعب لشعب بدون أرض" لتصبح فلسطين أرضا خالية، إرثا ضائعا استرده الشعب المختار.

لكن "الأرض الموعودة" المسترجعة ليست سوى مرحلة انتقالية نحو "إسرائيل الكبرى" التي ترسمها الخرائط الصهيونية والتي تحتوي جزءا كبيرا من المشرق العربي، الأردن وسوريا والعراق ومصر، فإسرائيل تعمل بنفسها، معتمدة على حليفها الأساسي المتمثل في الإحساس بالذنب الذي خلفته المحرقة الهتليرية.

فبعد أن ساهمت حكومة فيشي خلال الحرب العالمية الثانية في اضطهاد اليهود، أقنعت فرنسا بأن عليها دينا تاريخيا يجب أن تؤديه للشعب اليهودي، كما لابد لهذا الدين أن يسدد بأي ثمن، وإن تطلب ذلك سحق المبادئ الديموقراطية التي ينافح الغربُ باسمها عن حقوق الإنسان. زعماً.

كان لليهود دين على أوربا سيؤديه العرب. فلقد احتُلت أراضيهم، وجهزت لاستقبال الأجناس اليهودية المدعومة إلى أرض الأجداد. ثم تطور الأمر فأصبحت الأسطورة المؤسِّسة للمطالب اليهودية تتمتع بالحماية القانونية، إذ تم التصويت في فرنسا لصالح قانون غيسو-فابيوس الصادر سنة 1990 ليعاقب بصرامة كل من طعن في العقيدة السياسية الصهيونية وشكك مثلا في وجود أو حجم الإبادة التي تعرض لها اليهود في ألمانيا النازية.

وهكذا أصبح بفضل الدعاية اليهودية هتلر عدوُّ الجنس البشري -الذي أثار الحرب العالمية الثانية وتسبب في قتل خمسين مليون نسمة منهم عشرون مليون سوفييتي- جلاد اليهود واليهود فقط.

في تل أبيب والقدس تراجع أعداد الضحايا ويحتفظ بأربعة مليون بدلا من الستة ملايين التي تَغَنَّى بها وبكى عليها اليهود طويلا، ليصبح الرقم المنقوش مؤخرا على النصب التذكاري والمعترف به رسميا مليونا ونصف مليون.

لكن، مهما ضُخِّمَت أعداد الضحايا فلن يزيد ذلك إلى هول المجزرة الهتلرية شيئا لأن إهدار دم ضحية بريئة واحدة -يهودية كانت أم غير يهودية- مرفوض في ديننا الإسلامي.

وابن أمريكا المدلل هو أيضا ابن هوليود المحبوب، إذ تتظافر رؤوس الأموال اليهودية المتحكمة في الصناعة السينمائية والمواهب الإخراجية اليهودية لإبراز

شخصية شاندلر الأسطورية وتصويره وهو يتصامم عن سماع احتجاجات أرْملته المندِّدَة بتزوير الحقائق التاريخية.

حين يتكفل إذن مثل هؤلاء المحامين البارعين بالقضية اليهودية، تتجذر القضية اليهودية في ضمير العالم، بينما ينمحي منه أي أثر لأي قضية أخرى. فلا نُصُبَ تبكي الستين مليون هندي أمريكي الذين أبادهم الرجل الأبيض المستكشف البروتستانتي الأمريكي، لا لوحة تخلد ذكرى المائة مليون إفريقي أسود الذين هلكوا في قيعان السفن، إذ لم تكن حقول القطن الأمريكية تقبل سوى عشر هذا القطيع الآدمي، أما الباقون فكانوا يموتون أثناء القبض عليهم أو خلال رحلتهم السعيدة، مغلولين مكدسين في قاع السفينة. من يفكر بعْد في مثل هؤلاء؟ الدولة اليهودية وحدها تستحوذ على القلوب والذاكرات !

لكن لا ينبغي لصورة المعاناة هذه التي يروجها اليهود ويستغلونها أن تلهينا عن المشروع الصهيوني، وأن تمنعنا من الإحاطة ببعض السمات المزاجية لحماة الدولة الصهيونية وبعض سوابقهم.

فالدولة العبرية صاحبة المشروع، وحماتها يطلبون المستحيل، يجتهدون مخاطرين بمستقبلهم لاحتلال أراضي ثلاثمائة مليون عربي والاستيلاء على اقتصادهم غير مهتمين بالدعم المقدم غدا من المليار ونصف المليار مسلم الذين سيدركون مدى أهمية الرهان الفلسطيني ويهبون لتلبية نداء إخوتهم.

لكن طلب المستحيل ثم اكتشاف استحالته مع امتلاك ترسانة نووية ضخمة كفيلان بإغراء إسرائيل بالعدوان. فهل تستيقظ البشرية ذات صباح على دوي انفجار شبيه بانفجار هيروشيما يمحو من الخارطة إحدى العواصم العربية؟

يبدو المستقبل ملبدا بالسحب إذا ما اعتبرنا عجرفة وطيش الرئيس الحالي للحكومة الصهيونية نتنياهو واستنطقنا العقيدة اليهودية التي تجعل من "الأمميين" –غير اليهود– كائنات خلقت لتستغل بالإقراض الربوي خاصة، وبغيره من طرق الاستغلال. " أمميون" مصيرهم –حسب التأويل المتطرف للتوراة– الإبادة، إن هم حالوا دون تنفيذ مشاريع الشعب المختار.

ففي نهاية شهر أكتوبر من سنة 1997، أثار رئيس الدولة اليهودية زوبعة شعبية حين شكك في صحة بعض فقرات التوراة التي تتوعد أعداء إسرائيل بالاستئصال، وأثار اليمين المتطرف الحاكم الذي تقوم إيديولوجيته على مثل هذه الفقرات المؤولة لتبرير شراهة التوسع الإسرائيلي.

لكن الدويلة المصطنعة المكشرة عن أنيابها يهددها شبح التدمير الذاتي. فهي ليست سوى عصابة من العشائر المتنافرة[1]. كما تهددها ضخامة ترسانتها

(1) يُعَامل اليهود السفارديم المهاجرون من البلدان العربية باحتقار كما يُعامل المواطنون العرب في إسرائيل. فهم مجردون من حقوقهم، وهم يجترون حقدهم على الأقلية الأشكنازية القادمة من أوربا، المتحكمة في مقاليد الدولة الصهيونية. سنسمع إذن الكثير عن الانشقاقات الحاصلة بين المواطنين المسخَّرين المخدوعين.

النووية التي قد تشعل فتيلها نزوة زعيم ذُهاني أو هيجان قادة عسكريين قد يحرضون الحكومة على التحرك، مما يعمق القلق الداخلي ويضاعف انزعاجنا.

تظل الدولة التي يسندها حلفاؤها الغربيون منذ خمسين سنة تعاني من حركية عنصرية إقصائية تنخر كيانها من الداخل رغم الواجهة الديموقراطية التي وإن كانت ناجعة لحد الساعة لا تمثل اللحمة الضامنة لبقاء البناء قائما.

لكن يجب ألا نمني أنفسنا بالأحلام وننتظر انهيار المعتدي بفعل سحر خفي! يجب أن نفهم ونتحرك ! علينا فهم التاريخ والاستعداد لموعود الله بالشرط المذكور في القرآن : ﴿**وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾[1]. هذه الآيات نزلت بعد هزيمة المسلمين في أحد، لكن القرآن ليس تسجيلا لأحداث محدودة بزمن معين، بل هو كلام الله الحي الذي ينطبق على كل "الأيام"، الذي يعد المؤمنين بالعلو بعد الهزيمة وبالعز بعد الذل. فقد دامت مملكة أورشليم التي أسسها الصليبيون قرنين كاملين ثم طرد الفرنجة وتفككت الإمارات الصليبية التي كانت متناثرة في العالم العربي. كان النظام الإقطاعي السائد في المنطقة جائرا وغير إنساني لكنه ظاهريا كان مستقرا.

(1) سورة آل عمران، الآيتان: 140-139.

كان نظاما يمارس الاسترقاق، إذ كانت الأراضي تباع أو تورث مع أقنانها الخاضعين للسوط لكنه كان يبدو مستقراً.

واليوم تُسَخَّر الديموقراطية الحديثة المحرِّرَة بزعمها في إسرائيل لاستعباد شعب مقهور. لكنها لن تدوم. ستبقى هنا ردحا من الزمن، من أجل امتحاننا، من أجل امتحان العرب والمسلمين. فلقد اندحرت المملكة الصليبية القديمة حين واجهت مجتمعا التف حول سلطان موحد: صلاح الدين الكردي الذي جمع حوله العرب وغير العرب من المسلمين.

هذه الأمور تبدو اليوم بعيدة عنا، فالحروب العرقية تمزق كيان المسلمين وتفرق بين الأفغان والترك والعرب المتطاحنين. ينهزم المسلمون ويستعبدون لأنهم ليسوا سوى مُزَعٍ متناثرة.

ستظل إسرائيل الابتلاء مؤقتا، ريثما يدرك المليار ونصف المليار مسلم المتشرذمون هويتهم الحقيقية، لأن الابتلاء مفهوم مركزي في الإسلام يميز الله به الذين آمنوا من الكافرين. وعد الله جلي في كتاب الله، لكن تحقيقه رهين ببضعة شروط؛ بالإيمان، بالمؤهلات السياسية والاجتماعية، بالمقاومة والاستشهاد، وبالإعداد الطويل المتأنِي إلى أن يحل يوم "التداول"، فالنصر رهين بالاستحقاق !

لقد لاحظ المؤرخ الإنجليزي الفطن توينبي ظاهرة تداول الحضارات، لكن يبقى سقوط الحضارة الغربية الحديثة وتحللها مستبَعداً في نظر العقل المنبهر بقوة

الغرب وثرائه، بتنوع القدرات التي تمكنه من استغلال الطبيعة وترويضها، بل تدميرها.

أما المتفحص لنفسانية الإنسان الحديث –اليهودي الصهيوني مثلا– فيكتشف علامات واضحة للتحلل القادم لا محالة.

نعم! لكن وضع المسلم ليس أفضل من أوضاع غيره، فهو بالإضافة إلى انهياره الأخلاقي يعاني من البؤس المادي، من التخلف، من الظلم الاجتماعي، من التفكك السياسي. وتبقى القائمة طويلة.

لذلك يظل المسلم –إذا اعتبرنا العرضية التاريخية ونفسانية الشعوب– مستبعد الترشيح لدور مشرف في الساحة الدولية، وتظل نظرية الدورات الحضارية مجرد فكرة مُهَوِّمة.

لنُعرضْ إذن عن المؤرخين المنهمكين في تحليل الظروف والملابسات، ولنستعرض قصة أنبياء الله كما أوردها القرآن: كلما علت قرية وتجبرت واستكبرت عن طاعة ربها، حقت عليها اللعنة، وحاق بها العذاب، ثم أعقبتها أخرى أعدل منها وأقل فساداً. ذلك كان مصير عادٍ، قوم نبي الله هود، وثَمود، قوم صالح، وفرعون عدو موسى...وبذا يصبح المستضعفون المستذلون بالأمس محلا لتنزل النصر غداً، بشروط يجب توفرها. لأن القعود المتأمل والانتظار المطمئن لا يمنحان في عقيدتنا النصر.

فلسطين، أسلمة التاريخ

من العبث أن نقرأ التاريخ بمنظار غير إسلامي إذا ما أردنا تسليم الحداثة، لأن الحداثة هي المظهر الحديث للابتلاء، ولأن قصص الأنبياء لم ترد في القرآن للتسلية بل للاعتبار والاقتداء.

حقاً إن التحدي الصهيوني يفعل فعله في الواقع المعيش وفي نفسانية العرب المسلمين وغير المسلمين، لكننا إذا عزلناه وضخمناه متأثرين بهمؤمنا وآلامنا، أصبح عائقا يستحيل تجاوزه. أما إذا وضعناه في السياق التاريخي الإسلامي وقسناه بمقياس التاريخ الإسلامي فإنه يصبح مجرد هبة ريح عابرة.

فالقراءة القرآنية للتاريخ كفيلة بأن تحصر آلام الحاضر وهزائمه ونكساته في أبعادها النسبية. لأن "القضايا" و"المشاكل" التاريخية تتحدد حسب هذه الرؤية انطلاقا من ظرف شاسع معقد –كما يحلو لمفكري ما بعد الحداثة أن يصفوه– وانطلاقا أيضا من الزمن. لهذا لا يمكن للنشرات الخاطفة أو المقتطعات الانطباعية الموصولة بالمستعجلات السياسية أن تربطنا حقا بالتاريخ. حذارِ إذن أن تقطع الأحداث وأفعال البشر وضرورة التدافع صلتنا بالمطلق وبالموعود الرباني.

لكن انتسابنا إلى البعد الرباني وإلى استمرارية تتجاوز حدود التاريخ لا يعني أبداً أننا نفر من المعركة الحاضرة المُحسة، بدليل استبسال المنظمات

الإسلامية في فلسطين وفي جنوب لبنان. وإرسال حماس والجهاد وحزب الله أفضل عناصرها إلى ساحات الاستشهاد برهان على أن المؤمنين ليسوا جبريين فاترين. تَحَدٍّ ومقاومة لا يميزهما عن نضال الشعوب المستضعفة سوى الحافز الروحي السامي هنا، الوطني والإيديولوجي هناك.

فالرهبان البوذيون الذين يضرمون النار في أجسادهم، والوطنيون التيبتيون لا يتميزون عن القنابل البشرية في فلسطين إلا بكون سمو الغاية لدى الفلسطينيين ترقى بهم إلى مستوى التاريخ، بينما تبقى الوطنية والثورة على الظلم لصيقتين بالمستوى البشري العادي. لذلك لا يستطيع الإسلاميون المناهضون للاحتلال الإسرائيلي، المتطلعة أرواحهم إلى فاطرها، أن يفلتوا من الأحكام السطحية العدوانية التي يرشقهم بها أعداؤهم. لا يمكنهم وهم يقارعون الباطل فوق هذه الأرض، أن يستسلموا للذهول التأملي، خاصة حين إصدار قرار مصيري معين. محكومون هم بقانون الصراع الأرضي، عدوهم يلاحقهم بقذائف التشنيع والتشويه: أن كل المحاربين الفلسطينيين مثل باقي الإسلاميين إرهابيون.

لا عجب إذن، فالعرف البشري لا ينكر عليك إذا لطخت وجه خصمك بالدعاية الكاذبة. هي أيضا سنة إلهية: ألم نقرأ من قبل في الآية القرآنية أن القرح يمس معسكري الحق والباطل؟ إنه شرط سابق ولازم لتحقُّق سنة "تداول الأيام".

أسلمة التاريخ تقتضي قراءة صائبة لكلام الله العزيز الحكيم، موازية لنظرة متفحصة تستنطق الواقع، لأن الخضوع للسنة الإلهية لا يعني أبدا الاستغراق الخالد في انتظار متواكل. أسلمة التاريخ تعني قبول شروط المعركة كما قبلها رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه، والتشبث مثلهم بواجب الوقت، والإعراض عن المعارك الجانبية وآثارها، بذا يصبح "تداول الأيام" في حقك قدراً مقدوراً. أن تعالج الجزيئات بكل تواضع خطوة خطوة، مدافعا المعتدي، مواجها التكالب العدواني باستماتة من يوقن أنه على حق.

أسلمة التاريخ لا تعني التحليق في سماء الأماني أو الاستلقاء على فراش الجبرية الوثير، والاحتماء بالقَدر لا يبرر أبداً تثاقلي وتغيُّبي عن مواقع التدافع بينما تزحف الكارثة، وإلا أصبحت منبوذا خارج التاريخ.

فأفدح ما يمكن أن يصيب الشعوب المهزومة لجوؤها إلى المشاريع الضخمة تبنيها في سماء الآمال للتعويض عن نكستها، دون بذل أي جهد يعانق الواقع، مما يجعل اندحارها أمام الأعداء سهلا. إذ تنضاف الضحالة الفكرية حينئذ إلى جمود الأموات. فلطالما عانق العرب الحديثون حلم الوحدة التي لا تتحقق أبدا، وتمنَّوا ممارسة دور عالمي بعيد المنال بعد تحقيق أمل الاستقلال والقوة الذي ما أن تبدو طلائعه حتى يتبدد.

اليوم، بعد أن انطلقت الحركة الإسلامية، لم يبق المجال لتشييد قصور الرمال، فالساعة ساعة العمل المتأني، الرفيق، المتواضع، العمل بعزم وثقة في الله

عز وجل. لسنا في مَأمَن من ضربات العدو، لذلك توصينا الآيات السابقة أن لا نهن ولا نحزن حين يمسنا القرح، أن نستطلع تاريخ الأنبياء القدوة، فننظر كيف أن الأقوام الذين تمردوا على الله قبل أن يزيحهم "تداول الأيام" من خط التاريخ، آذوا رسلهم، أهانوهم، طردوهم، عذبوا أتباعهم، سطوا على ممتلكاتهم.

لكن القرآن يطمئننا أيضا حين يذكر بأن مقاومة جور المستكبرين والنضال المستميت كفيلان بقطع دابر الظلمة وإغلاق فصل من فصول التاريخ ليبدأ فصل جديد. أما الذين ينظرون اليوم إلى المستضعفين من علٍ، فسيهوون غداً من أبراجهم.

أبناء إسرائيل العاقون

لنقرأ القرآن حتى ندرك أبعاد سنة "تداول الأيام"، ولنتوقف عند قصة العاقين من بني إسرائيل، متمردي العصور الحديثة على الله، الغارقين في لُجج الأوهام.

لنقرأ القرآن حتى نطَّلِعَ على شهادة الخالق على مخلوقاته اليهودية، لينكشف لنا طرف من الحجب التي تلف القدر الإلهي.

يسمي القرآن الكريم هؤلاء القوم تسع مرات "يهودا" وثلاثا وأربعين مرة "أبناء إسرائيل"، بينما لا يذكر النصارى إلا خمس عشرة مرة. وتستخدم الآيات (82-87) من سورة المائدة تعابير حادة حين تصفهم. هل مرد ذلك

إلى الظرفية التاريخية التي عرفت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم نزاعات بين المسلمين واليهود؟ أم إنه التاريخ الذي ساهم فيه اليهود بكل قوة؟

يسرد كتاب الله أسماء الأنبياء الذين بعثهم إلى اليهود كما يحكي خيانة الجاحدين من بني يعقوب الذين يناديهم المرة تلو المرة ببني إسرائيل (إسرائيل هو اسم يعقوب في التوراة والقرآن). فهم لم يترددوا في الافتراء على الله بقصص سخيفة أولاها أنه سبحانه وتعالى صارع يعقوب في البرية، وأنه عز وجل غُلِبَ في هذه المبارزة : عبثوا بمعنى اللفظين العبريين القريبين من العربية "إسر" و"إيل"، وأوّلُوهما ليصبح معناهما "المنتصر على الرب" بعد أن كان "خادم الرب". لا عجب! فالمارقون لا يتورعون عن سب الله عز وجل.

لا عجب إذن أن تصفهم سورة المائدة بالأوصاف الحقيرة التالية :

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ تَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ

الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[1].

أما في عصر النبي محمد صلى الله عليه وسلم فقد تميزت العلاقات بين المسلمين واليهود بتوترها الشديد: تعددت مؤامرات الأقلية الثرية الماكرة، وتكررت الأحلاف التي عقدتها مع أعداء المسلمين، واطَّرَدَ نقض عهد التناصر الذي عقده النبي صلى الله عليه وسلم مع القبائل اليهودية فور قدومه إلى المدينة. وبعد سنوات من المكائد والمراوغات، خاصة بعد غدر اليهود بحلفائهم المسلمين في غزوة الخندق، طردوا نهائيا من المدينة. لكنهم لم يَنْسَوا أبدًا هذا الفصل من تاريخ شعبهم، ولذا لا يقنع الصهاينة بالطمع في الأراضي التوراتية الممتدة من فلسطين إلى سوريا والعراق ومصر، بل يرنون ببصرهم إلى المدينة المنورة حيث موطن الأجداد من قينقاع وقريضة والنضير. فلا حدود لجشع الدويلة الإسرائيلية.

وسواء أعلنت إسرائيل نياتها التوسعية أو أسرتها، فإنها تنفذ بجسارة وقحة: أراض تُضَم، ومنازل تُجْرَف أمام أنظار أصحابها العاجزين، بل أمام العالم الذي لم يعد يبالي. عَالَمَ عَوَّدَهُ البث اليومي لهذه الصور على مشاهد الظلم.

حقا تأثر المتفرجون حينا من الزمن وهم يشاهدون أطفال الانتفاضة المسلمين والنصارى سلاحهم حجر يهاجمهم جنود مدججون بأحدث أسلحة

(1) سورة المائدة، الآية 78-82.

القمع فيجرحونهم ويقتلونهم. لكن ما لبثت احتجاجات منظمات حقوق الإنسان أن خفتت. فما جدوى الاحتجاجات والنقض الأمريكي كَنَسَ أكثر من ثلاثين قراراً أممياً يدين الدولة العبرية ويبدي استعداده لنقض كل قرار مماثل؟ لقد أصبحت خدمات البيت الأبيض للدولة الصهيونية أكثر سخاء وأكثر تحرراً من القيود الآن وقد تكاثر المستشارون اليهود في الإدارة الديمقراطية وتضاعف عددهم حتى تعذر إحصاؤهم؟

تختم الآيات القرآنية التي سردناها بتخصيص "الذين قالوا إنا نصارى" بعاطفة تجعلهم أرق قلبا نحو الإسلام والمسلمين. لكن، في انتظار تقارب بين المسلمين وأهل الكتاب، نسمع رئيس الولايات المتحدة يعلن في خطابه الموجه إلى البرلمان الإسرائيلي أنه يشعر بقرابة أخوية تربطه بمضيفيه. غَزَلٌ انتخابي أم يقين صادق؟

نحن نعلم أن محترفي السياسة، مهما قالوا ومهما ادعوا، ليسوا في غالبيتهم رجال مبادئ. أما رجال الكنيسة المعلنين تمسكهم بنصرانيتهم، فيبحثون عن الحوار مع المسلمين، ويصرحون منذ مؤتمر الفاتيكان الثاني أن الأوان قد آن لطي الصفحة وافتتاح عهد يسوده التفاهم والتعاون مع الإسلام.

نحن نرحب بكل تعاون مع الذين ﴿**قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَارَىٰ**﴾ إذا ما استثنينا الجدل اللاهوتي العقيم. فلنعرض إذن عن نقطة الخلاف هاتة ولنجلس معا لتدارس الوضع العالمي الحالي، ومناقشة السبل الكفيلة بتنقيته إذا ما تضافرت جهود ذوي

النيات الحسنة. فرغم أن لَوْنَ سماءينا ليس واحداً، إلا أن أرضنا واحدة، وفوقها نعالج مشاكل عاجلة: البؤس المادي والمعنوي، والإفساد الذي يمارس على البيئة، ومصير الأطفال والأقليات ثم الحروب، والقائمة طويلة.

فلنجلس معاً لمعالجة هذه المشاكل، علنا نمتِّعُ كل بلد في العالم، كل شعب بل كل إنسان بل كل كائن بالإحسان العالمي، بالسلام الكوني، بمحبة الآخر، بكل فضيلة يحض عليها شرعنا ويأمر بها كتابكم.

ألم يستقبل النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم أتباع عيسى عليه السلام القادمين من نجران؟ ألم يؤوهم في مسجده الشريف، ثاني الحرمين، ويقعد معهم يحاورهم على تربته الطاهرة؟

في كتابنا آيات تتلى وستظل تتلى إلى قيام الساعة تحضنا على المعاملة الحسنة للذين قالوا إنا نصارى، لكن فيه آيات أخرى تحذرنا من كل جاحد كفور خاصة إذا كان يهوديا.

عُلُوٌّ وقسوة

لا حدود لعلُوِّ اليهود ما دام يسندهم أهل الجحود من أدعياء النصرانية الذين يستبطنون الإلحاد والجور.

عن هذا الجبروت اليهودي يحدثنا القرآن الكريم في سورة الإسراء: "وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلُن علوا كبيراً"[1].

هذا الاستكبار متجذر في الشخصية اليهودية التي تُلَّقن منذ نعومة أظافرها مبادئ العنصرية، وتجعل من بني إسرائيل شعب الله المختار. وذلك ما تردده توراتهم: "ففي ذلك اليوم، فتح يوشع ماقدة Maqqeda وأباحها وملِكَها للسيف. لم يدع فيها حيا. عامل ملكها بمثل ما عامل به ملك أريحا من قبل"[2]. وتستطرد توراتهم تحكي لنا قصة المدن التي أبيحت وأبيد ملوكها وأهلوها عن آخرهم: ليفرا Livra، لاقش Lakish، غزة Guezu، عجلون Eglon، حبرون Hebron (الخليل حاليا)...

نحن لا نمانع في تصديق التوراة حين تصف قسوة اليهود التي نعانيها يوميا، لكن كيف نُصَدّق هذه القصص الدموية التي تجعل من نبي طاهر -يوشع- جبارا متعطشا للدماء؟

ليست التوراة المتداولة سوى مجموعة من النقول والتقاليد الشفوية التي توارثتها الأجيال خلال عدة قرون بعد موسى عليه السلام قبل أن تُدَوَّن، أما القرآن فقد كُتِبَ والنبي محمد صلى الله عليه وسلم حي بين ظهراني أصحابه يملي عليهم

(1) الآية:4.
(2) La Bible; Josué,43

ما أوحى ربه إليه. يستحيل إذن أن يكون أنبياء الله، رسل الرحمة، جزارين بعثوا لتقتيل البشر. إنها خيالات نفوس مريضة تجسد في قصص ملحمية تمجد التعذيب والإبادة. تلك كانت أول وحدة تجمع بني إسرائيل بعد أن كانوا مجرد قبائل من البدو الرحل الهائمين في الصحراء، ليصبحوا شعبا واحداً يقوده يوشع إلى أرض كنعان. لكنهم لم يمتهنوا التدمير والتقتيل والإبادة إلا بعد يوشع حيث كانوا "يقتلون النبيئين بغير حق" -كما ورد في القرآن- أي أن الأنبياء كانوا ضحايا عنفهم بدل أن يكونوا أساتذتهم -كما يدعون- في هذا الباب.

وإذن ليست التوراة المُحرَّفة عن كتاب الله الذي أنزل على سيدنا موسى عليه السلام سوى تزوير للتاريخ تجسد في ملاحم شعرية تفضح نيات قوم ما زالوا يؤمنون بأن رقبة "الأممي" لم تخلق إلا للسيف، وما زالوا يسعون لتطبيق هذا المبدأ كلما سنحت فرصة للقيام "بتطهير عرقي". في هذا الصدد نستنطق كتاب موريس بوكاي حين يصف العبقرية التخيلية التي ميزت مؤلفي التوراة، ويعرفنا على مصدر "الكتاب المقدس" لنكتشف "أنها (التوراة) قبل أن يصبح مصنفا يجمع عدة كتب، كانت عبارة عن تقاليد شعبية لا تسندها إلا الذاكرة البشرية. لذلك لم يتورع السرد الذي تحركه الوظيفة التخيلية عن التصرف بحرية في المواضيع والمراحل التاريخية الغامضة"[1].

---

(1) Maurice Bucaille, op.cit, p : 17-18

وهكذا تتخبط قصص الإنجازات الدموية الملفوفة بالغموض في الفوضى، ولمفسري القرآن تأويلات للإفساد الأول لبني إسرائيل في الأرض، أما الإفساد الثاني المذكور في الآية فيبدو أنه يتجسد في العلو الذي تعرفه اليوم دولة إسرائيل.

يستعلن الاستكبار العنصري اليهودي وتسلط الأضواء على "التطهير العرقي" وهو يعرض بعض منجزاته على شاشات العالم كله. بل إن أحفاد مبيدي الشعوب أظهروا كفاءتهم قبل أن يُعَولَمَ استعمال أجهزة التلفزة، فاجتاح مناحيم بيغن، الوزير الأول لإسرائيل، وعصابته الإرهابية قرية دير ياسين يوم 9 أبريل 1948 وذبح 254 من رجالها ونسائها وأطفالها. تلك كانت خطة منظمة أرغون لإرهاب السكان وإجبارهم على النزوح من أراضيهم.

وبعد ثلاثين سنة، بعد أن استوت إسرائيل على سوقها، وتكفلت عدالتها بضمان أمن المواطنين، هاجم مجرم يهودي قرية بئر قاسم وأباد أهلها فألقي عليه القبض وحكم بتغريمه دينارا رمزيا ثم أطلق سراحه.

قبل سنتين، اقتحم الدكتور باروخ غولدشتاين، المستوطن ذو الأصل الأمريكي، بطل الإرهاب، مسجد الخليل، وأفرغ ذخيرة رشاشه في أجسام المسلمين الساجدين لله عز وجل، كانت الحصيلة سبعة وعشرين قتيلا وأكثر من خمسين جريحا.

واليوم أصبح قبر هذا "البطل" ضريحا يُزار ويُتَبرَّك به...

فإذا ما سولت للمسلم نفسه الاقتصاص من يهودي واحد حين يُجْرَفُ بيتُه أو ينتزع حقله أو يحصد أطفاله، انطلقت الأبواق الإعلامية تشنقه وتعالت صيحات الإدانة الدولية: إسلامي؟ إرهابي؟ متطرف؟ متوحش؟ بينما لا يجرؤ أحد على نسب المذابح الرهيبة التي نفذها الصرب في البوسنة إلى الديانة الأورثودكسية، ولا قنابل أولستير إلى الديانة الكاثوليكية. مما يعني أن صنفا من أهل الحداثة يحاول أن يعرض صورة مشوهة عن الإسلام مخالفة لصورته الحقيقية، العادلة، الموضوعية.

تجهَد أوربا اليوم لتتوحد، باحثةً عن هوية جديدة مشتركة. فهل تجدها في الروح الحكيمة المنفتحة على الآخر –العربي المسلم ذي الهوية المتماسكة– المستعدة لاحترامه والتعاون معه؟ أم أنها ستصغي إلى صفارات الإنذار المدوية في الشاطئ الغربي للأطلسي، المنذرة "باصطدام الحضارات"، شعار الحروب الصليبية الجديدة؟

لا أريد أن أختم هذا الفصل بنغمة الخيبة والمرارة، لكنني أعلم أن الأفكار الحقيرة والأحاسيس الخسيسة، مثلها مثل الأكاذيب المضخمة، تجد لها رغم عقمها وضررها تربة خصبة في النفوس المريضة. لهذا يجب أن يلتف ذوو النيات الطيبة والقلوب المفعمة بمحبة الآخرين حول مشروع كبير موحد، مشروع يخلص البشرية ويسمو بالإنسان.

فأصحاب القلوب النبيلة يستجيبون بيسر لنداء الحكمة، أما النفوس الحاقدة فستقف متفرجة على مرور موكب إنسانية متصالحة سخرت وسائل الحداثة لبلوغ الأهداف التي حددها الإسلام: عدل في الأرض وإحسان في القلوب. محكوم على كل شيء بالفناء. ستنتهي الرحلة القصيرة التي يقوم بها الأفراد والحضارات حسب سنة تداول الأيام، كل حسب دورته وعمره المقدر في الأزل. ينتهي كل شيء، وسيبقى الإنسان الذي يموت ثم يبعث ليحاسب على ما كسبت يداه في دنياه. سيبقى الإنسان الخالد: ضيفا مكرما في الرفيق الأعلى أو حطبا تسعر به نار جهنم.

حاولنا في الصفحات السابقة فتح ملف النزاع بين الإسلام والحداثة. منهجية ضرورية لتجاوز الاعتراضات المتبادلة والإفلات من الجمود الذي يعترينا حين تلهينا معارضة الآخر عن غاية الوجود البشري فوق الأرض وتصبغ أفقنا بالسواد.

فالرؤية الواضحة للماضي والحاضر شرط لتصور المستقبل والتحرك نحوه دون تهيب من الانحراف. لذلك استحضرنا الولادة التاريخية والإيديولوجية للحداثة وللازمتها "القديسة لائيكية"، حسب تعبير أحد الأوربيين، حتى نتمكن من الاستنطاق الجيد للحداثة اللائيكية حول أسسها المعرفية وركائز تصورها للإنسان. سؤال عميق نحاول بعده أن نرسم الملامح العامة لمشروعنا الاقتصادي، والسياسي الاجتماعي.

أسرد من الذاكرة قول الفيلسوف اللاتيني سينيكا: "لا يمكن للمركب الذي يجهل وجهته أن يُحسِن استغلال الرياح المناسبة". فوعد الله هو المنار الذي يوجه إلى شاطئ الأمان ويدل على أنسب الرياح للإبحار. ويبقى علينا أن نحسن استشراف الأفق، ونحذر فخاخ الجُزْر القاتلة.

الفصل الخامس
المعــرفــة

لم الحياة؟

مسلمات عدمية

المسلمة الدوابية

تصحيح التصورات السابقة

حيرات

كيف نتصور الواقع المعقد

الله والحداثة: ضدان لا يجتمعان؟

أسئلة

وحي ونبوة

معنى حياتي

الشريعة، السلوك

طوفان ثقافي

لم الحياة؟

سؤال مركزي، سؤال حيوي، سؤال مكبوت، سؤال غريب !

سؤال لا يطرح في عصر فقد معناه وانشغل بمشاكل أخرى متعلقة بالكيف لا بالغاية؛ عصر تقني عالمي يحركه الفضول، عصر منفتح على الكون الفلكي وعلى الكون الجزئي؛ عصر منقب، مدقق، مراقب لأدق التفاصيل ولأصغر الظواهر؛ عصر مستنكر لهذا السؤال !

فمعنى الحياة، والغاية من الحياة، قضية منبوذة لا تثار إلا في بعض الحلقات المغلقة التي يحضرها بضع فلاسفة مغرمين بالتأملات الميتافيزيقية أو عند مهمشي الحداثة المترهبين من المسلمين أو من غيرهم من الأمم الأخرى المتخلفة عن ركب العصر.

الفلسفة الوضعية المادية هي أسلوب التفكير الوحيد المتجدر في المجتمع الحديث، فلا وجود إلا لما تدركه الحواس، لا وجود إلا للمُحَس، المادي، المتجسد، وكل ما لا يستطيع العلم إثباته وقياسه يظل مجرد تخرصات، خاصة إذا كانت القضية تعالج مصير الإنسان، وتبحث عن مغزىً لوجود الإنسان.

حقل البحث العلمي منحصرٌ في الجدوى الوظيفية للأشياء وفعالية تنظيمها، بعيداً عن هذيان العالَم التائه في فلك الغيبيات. ويبدو الإنسان الحديث مستسلما لحياة تافهة فارغة من كل معنى، تعقبها نهاية مأساوية قادمة لامحالة.

رغم ذلك، يظل باب الأمل مفتوحا. فالعلم سيمكننا يوما ما من تمديد عمر الإنسان حتى يتجاوز معدله في الدول المتقدمة السنين الثمانين الحالية ليبلغ غدا قرنا أو – لم لا؟– قرناً ونصفاً. ما دامت الأبحاث الوراثية حققت نتائج مذهلة: عمر أطول، حياة أفضل، صحة أمتن، بفضل التطور المادي. أما القضية الجوهرية فيحرص الإنسان على تجنبها، مخادعا نفسه، متسليا لعله ينسى أو ليتجنب مواجهة السؤال البديهي: ما جدوى العيش إذا كانت الحياة مجرد صدفة عبثية سيعقبها الموت والحفرة العفنة؟ أفضل من ذلك التعجيل بالانتحار !

سؤال يفعل فعله في أحشاء الكائن البشري سواء استطاع التعبير عنه أم لم يستطع. ففي مجتمعات ما بعد الحداثة، تقمع الرفاهية هذا السؤال أو يدفنه البؤس، لكنه سرعان ما ينبعث، حادا، ملحا، مطالبا بالجواب.

في أعماق كل ضمير، في ركن منه، يكمن الانتظار، انتظار نداءٍ مخلِّص، صوتٍ منقذ ينبئنا أن لوجودنا غاية غير الخمول الذي يتمرغ فيه حضورنا على وجه الأرض.

مهما نشطت الثقافة الحديثة واجتاحنا ضجيجها الكاسح فلن تقتنع الطبيعة –تلك الفطرة الكامنة في أعماق كل واحد منا– بأن وجودنا عبث في عبث. ففي أعماق الضمير الإنساني توتر يشده إلى الأعلى، إلى الروح، قد يعتريه الفتور لكنه أبدا لا يتلاشى، قد يُحاصر منذ الصغر فينمو صاحبه أصم عن سماع النداء الباطني أو أعمى لا يرى ضوء النهار، غلَّقت سمعَه وبصره تربيةٌ

خاصة وثقافة معينة، لكنه يظل قابعا في زاوية من زوايا الضمير، ينتظر موعده، ينتظر أن يتمكن العلم يوما ما من بعث الموتى.

في انتظار ذلك اليوم، سيحجز الإنسان الحديث المخدوع مكانا له في الثلاجات المخصصة لحفظ أجداث أصحاب الملايين.

قد يهدي العلم للبشرية يوما إكسير الشباب الخالد والصحة الدائمة الذين كان يسعى إليهما الكيميائيون القدامى، لكن هل يتمكن من الإجابة عن هذا السؤال الذي يسكن الإنسان؟ هل تجيب عن السؤال الجوهري الحداثة التي انفصلت تدريجيا عن قيمها اليهودية المسيحية وتعلقت بأصولها الإغريقية الرومانية؟ أصبح الموقف الحديث المتميز بالحذر واللامبالاة بل العداء لكل قضية غير عقلانية ينبذ كل مفهوم غيبي، وأضحى المخبولون المنكبون على دراسة الظواهر النفسية الخارقة أو أيَّة صرعة أخرى مشابهة موضوع ريبة في المجتمع الحديث.

لكن الفطرة حين تطرد من الباب لابد أن تعود من النافذة. فالروحانية الطبيعية التي تستميت الحداثة في مطاردتها تعود من نافذة تطل على الهاوية. فقد أصبحت الشعوذة صناعة مزدهرة في دروب المجتمعات الحديثة المحاربة للفطرة البشرية.

هكذا، حل التفكير الذي تروجه الروحانية الطائفية محل كل روحانية، فأصبحت تتجاور في هوامش المجتمعات الحديثة فرق يلتهم أعضاؤها اللحم

البشري النيئ، وأخرى يتعبد أعضاؤها بالانتحار الجماعي، إضافة إلى ممارسات شاذة أخرى مثل السحر وصرعة استحضار الأرواح التي لاتزال تدير الموائد وتحادث الموتى الأعزاء. زعماً وشيطنة.

في الواجهة المشرقة، تسطع شمس الثقافة الهلينية الرومانية، المرجع الوحيد لحضارة تتنكر لجذورها الروحية فيصبح المظهر الجسدي المتمثل في الجمال التشكيلي لجسم الرياضي، وملكة الجمال، وإنجاز البطل الأولمبي أسمى القيم في هذا الزمن. بذا أصبح أجر نجم كرة القدم أو مغنية الأوبرا يعادل أجر نجم السينما الذي يتجاوز أجر وزير أول، لكنه رغم ذلك لا يبلغ المبلغ الذي يجنيه بطل الملاكمة من دقائق معدودات يقضيها فوق الحلبة.

لكننا حين نطَّلع على الواجهة المظلمة، يصدِمُنا مشهد السؤال الفطري عن مغزى الحياة -السؤال المخنوق المكبوت- وهو يبحث عن جواب له في المكاتب المتخصصة وبين أحضان الطوائف السرية التي وهبت نفسها للشيطان.

مسلمات عدمية

تلك الواجهة المشرقة للحداثة قامت على بناء هش، على مجرد مسلمة عدمية. والمسلمة مبدأ لم يُبَرهَن على صحته ولا يمكن التدليل

عليها. والعدمية مذهب فلسفي يقوم على مبدإٍ مؤسِّس هو التسليم بأن لا معنى للحياة ولا أساس للأخلاق.

لنتعمق أكثر في البحث ولنسأل مهندسي عمارة الحداثة الشامخة عن الأساس الذي استقر عليه بناؤهم.

تمزقت الحداثة العلمانية فتنازعها تاريخان وذهنيتان، ثم اختارت في النهاية أن تطلِّق مبادئ دينها النصراني محتفظة سياسياً وعقدياً أيضاً بالحنين إلى يهوديتها. واقترن العلم الظافر خلال القرنين الأخيرين بالفلسفة الوضعية المادية ليعلو مجددا صوتُ تعدد الآلهة اليونانية الرومانية متجسدا في فَرضيتين متلازمتين؛ أولهما أن الإنسان حيوان نتج عن ارتقاء بطيء للحياة : حيوان خلق نفسه حين نجح في التغلب على تحديات الطبيعة والحفاظ على حياته. وثانيهما انعدام الخالق أي الإله وبالتالي انعدام الحياة بعد الموت.

وهكذا يختزل المبدآن الأثيمان الناهضان بالفكر الحديث المتعلقان بمغزى الحياة في يقينية مجانية مناقضة للفطرة. هكذا تتزاوج الفلسفة العدمية المؤمنة بفرضياتها والعلم التجريبي المبني على الشك المنهجي والتحقق الدقيق من النتائج ليلدا مسخا مشوها يؤمن بأن الإنسان حيوان لا هدف له سوى النضال من أجل البقاء، وأن الحياة مجرد ظاهرة عمياء تولدت عن الفعل ورَد الفعل الكيماويين المتحققين في الواقع الطبيعي، المصطنعين في المختبر. لذلك لا تستحي الدروينية –وهذا هو

اسم الفلسفة العدمية الحديثة- من اعتبار نفسها علما قائما بذاته، بينما ينكب الداروينيون الجدد على تفصيل بقايا عظام الفصائل القردية لدعم مذهبهم.

ليس هذا الكتاب مصنفا للمتخصصين، وليس من المجدي أن ننازل ما سمي بعلم النشوء والارتقاء في حلبته. لكن لا بد أن نهز شجرة الكذب المصطنعة وندعو العقل والفطرة البشرية ليفتحا بصرهما ويحدقا بعين بصيرتهما. لأن التواطؤ الإجرامي على تمرير الصمت المجامل أو المجفل من ملامسة قضية الوجود المحورية هو الذي يذهل البشر ويغمسهم في مستنقع الجهل بمغزى الحياة. أما العقل، أما العلم، فهما بريئان من هذه الجريمة الذهنية الاستهلاكية الممسكة بزمام الحياة الحديثة، تلهي الطبيعة البشرية والعقل البشري عن التفرغ الكافي ليتأمل كل واحد وجوده ويتفكر في معناه.

أصبح الكائن البشري رهينة تواطؤ إجرامي وجهل يغذيه النظام التربوي والشبكات المعلوماتية السالكة سبيل العدم الوجودي.

مشدوه هو الإنسان الحَداثِي أمام مبدعاته، زمنه مشغول مستعمر، متخم هو بالمعلومات التي تُطلِعه على كل شيء فيما عدا نفسه التي يجهلها، تمده العلوم الطبية والأحيائية والوراثية بما يمكنه من التعرف بعمق على كيفية اشتغال آلياته الجسدية، لكن لا خبر لديه عن اتجاه رحلته في الحياة.

ولا وقت لديه للنظر، لا وقت للتفكير، فنحن نبحر على أمواج الإنترنت وكل شيء قد قيل. كل أمر قد تم التفكير فيه! مفتاح عا لم العجائب

هناك، في المَلامِس! أنا "أتزحلق" على فروع الشبكة الإلكترونية وأتقدم سريعاً على الطريق السيار،إذن أنا موجود.

يولد الإنسان مزودا بالحواس ثم بعد ذلك بالعقل الضروري للنظر والتفكير والتقاط الرسالة التي تجيب عن السؤال الأساسي الطبيعي الكامن في قلبه. ثم يحدث تأثير المحيط الأسري والتربية الثقافية اللذين يدعمان القابليات الفطرية أو يشوهانها.

لا عجب إذن أن يصبح هذا الإنسان كائنا مشوها، أصم، أبكم، أعمى ودابة مخطومة، رغم تمتعه بسمع يلتقط الأصوات وبصر يميز الأشكال والألوان. إنه لا يندهش من كمال خلقة العالَم المُحَس ولا يتعالى عن الواقع الحالي ليستنتج من الصنعة وجود الصانع. يبقى الكون الفائق التناسق مجرد صنعة لا صانع لها في نظرة الأعين العمياء.

يعيش الإنسان الممسوخ الذي خدعه المحيط الاجتماعي الثقافي المتجاهل للسؤال المركزي أو الذي طبعته تربية الإلحاد الحركية ويموت دون أن يدري لماذا أو يتساءل عن "لماذا". اغتيال روحي يمارسه المجتمع ضد أعضائه أو انتحار روحي لمن يتشبث بمواقفه الإلحادية، منكرا البديهة، معلنا إيمانه بالمسلمات الدوابية.

المسلمة الدوابية

أُسَمِّي الفرَضية الدروينية "مسلمة دوابيـة" انطلاقا من التعبير القرآني الوارد مرتين في سورة واحدة: ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾[1] و﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾[2].

وفي آيات أخر، يذكر القرآن عشر مرات الصم البكم العمي الذين يغلقون المنافذ إلى قلوبهم حتى لا يبلغهم صوت التساؤل الداخلي الذي يعرضه الوحي على لسان أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام.

ففي سنة 1830، نشر تشارلز داروين كتابه،"أصل الأنواع" عارضا فرضياته القائلة بأن الإنسان ليس سوى حيوان متطور لم يخلقه أي إله من عدم.

وسَرَّعت هذه الفرضية "العلمية" خطواتها مغتنمة فرصة التقدم العلمي في القرن التاسع عشر المذهل. منذ ذلك الحين –أي منذ أكثر من 160 سنة– وصوت الدروينية يعلو ويعلن أن الإنسان خلق ذاته وأنه نتج عن فعله أي أنه غير مُمْتَنٍّ بوجوده لأحد.

(1) سورة الأنفال، الآية 22.
(2) سورة الأنفال، الآية 55.

هذه الفرضية، مهما بلغت عبثيتها، تأتي في سياق الانتقام من الكنيسة ومن إله الكنيسة. ففي سنة 1517، أي حوالي ثلاثة قرون قبل صدور كتاب داروين، نشر مارتان لوثر -الراهب الألماني المخلص الذي غاظه فساد رجال الكنيسة- أطروحاته الخمسة والتسعين ضد الكنيسة الكاثوليكية، فكانت الثورة التي انتشرت في صفوف المسيحيين على "صكوك الغفران" الممنوحة للمؤمن النصراني المذنب مقابل "ندامة" من الذهب الرنَّان تسقط في خزانة الكنيسة.

ثم طالب لوثر بأمور أخرى أهمها إلغاء "صكوك الغفران" ذاتها لتنتهي معركة الراهب الورع بالانفصال عن البابوية وميلاد الكنيسة البروتستانتية.

بعد ثلاثة قرون -أي أربعين سنة بعد الثورة الفرنسية التي انتقمت بأسلوب دموي من الملكية والكنيسة- تضاعف بغض النخبة الأوربية المثقفة للكنيسة، وتجلى ذلك في عدة ظواهر أهمها الظاهرة الداروينية: عودة إلى الداروينية تصحبُها عودة إلى الوثنية الإغريقية الرومانية، ورفض أطروحة الإله البشر التي تدعو إليها الكنيسة، وتعويضها بالمجمع المأهول بالآلهة وأنصاف الآلهة والأبطال الذين تمتزج في عروقهم دماءُ الآلهة والبشر.

هكذا ثار الإنسان على الإله كما فعل البطل الخرافي اليوناني برومثيوس من قبل حين سرق النار المقدسة من آلهة جبل أولمب، ليصبح رمزا لتحرير الإنسان من وصاية الآلهة. أصبح الإنسان إله نفسه، خالق نفسه. وتلك هي الكرامة التي

أرادها داروين للإنسان. لم لا والكنيسة تعبد بشراً والجذور التاريخية لأوربا وحضارتها زاخرة بالآلهة المتنوعة؟ لم لا والإنسان والإله وجهان لعملة واحدة في عقيدة أوربا النصرانية؟

لم لا وداروين يعتبر الطبيعة مُطلَقاً يعوض الإله الخالق الذي لم يكتشفه العلم في أي مكان ليصبح الإنسان صانع ذاته؟ وتزْعُم المسلمة التي تجعل الصدفة خالقة للأشياء أنها حقيقة"علمية" أفرزتها الملاحظات التي جناها الرائد الإنجليزي من رحلاته –خاصة تلك التي قام بها إلى جزر الغالاباغوس– المتحف الحي الزاخر بالحيوانات الفريدة.

وكانت الخلاصة النهائية الغبية أن الإنسان قرد عار؛ مسلمة دوابية هَشة عمل أتباع داروين من بعده على إرسائها على وقائع علمية من خلال أبحاثهم المتواصلة.

و كانت حجج الداروينيين الجدد أن الحيوانات التي تستطيع البقاء على قيد الحياة هي تلك التي تحسن التكيف مع الوسط الطبيعي والتي تقدر أكثر من غيرها على اجتياز العراقيل والفوز في صراع الأدغال. هكذا استطاع جد الإنسان، القرد الذكي الحاذق، أن يوسع جمجمته، وينمي حجم دماغه قبل أن ينزل من الشجر ليمشي فرحا على قائمتيه الخلفيتين ويصبح سيد المملكة الحيوانية التي ينتسب إليها.

استطاع هذا الكائن الداب على قدمين، القادم من بعيد، المتجه نحو مستقبل كوني أن يحكم الأرض. هذا الكائن المنحدر من جد قديم، من سمكة عجيبة غادرت البحر، طوَّر حضارة الطاقة النووية وغزو الفضاء والإنسان الآلي، وعلم الوراثة والاستنساخ الذي سيطبق غدا على الإنسان لتتم الحلقة بصنع الإنسان نفسه مباشرة وبسرعة دون الحاجة إلى انتظار ملايين السنين. لأنه قادر حين يريد!

لكن علماء الإحاثة لم يترددوا في تفحص المسلمة البليدة مطالبين الداروينيين الجدد بعرض"الحلقة الناقصة" التي ما تزال مفقودة. ألم يعترف داروين نفسه بأن عدد الوسطاء المزعومين بين الحيوان والإنسان "غير قابل للتقدير"؟ ألم يتحقق الجيولوجيون بعد استنطاق أحفورياتهم واكتشافهم عشرات الأنواع المجهولة التي لا يمكن تصنيفها حسب لائحة الأنواع المتداولة أيام داروين أن فرضيته لا تستحق إلا السخرية. أما "القائلون بالخلق" من النصارى المعاصرين فيناضلون في أمريكا لتخليص النظام التربوي من قبضة الداروينيين. لكن الأساطير التوراتية التي يبنون عليها استدلالهم ليست أكثر معقولية من الأسطورة الداروينية. وذلك يوقع المؤمن بها في حرج شديد حين يواجهه الدارويني بالحجج العلمية التي تبرهن اعتمادا على أساليب تجاوزت بدقتها الكاربون 14 أن العالم وجد منذ ملايير السنين بدلا من بضعة الآلاف التي توردها التوراة. ويبقى سحر المسلمة الدوابية مهيمنا على أوربا حيث يسود اليقين بأن القرد أبونا والسمك جدنا.

فلقد شهد القرن التاسع عشر الأوربي ازدهار مذهب الارتقاء في جميع الميادين خاصة بعد أن حملت لواءهُ ثلاثة أسماء لامعة: أغست كونت الفرنسي وتشارلز داروين الإنجليزي وكارل ماكس الألماني.

أما الطبيعية الداروينية فقد عرضنا أهم معالمها.

وأما الوضعية الكونطية فترى الأفكار تطورت عبر ثلاث مراحل؛ أولها المرحلة الأسطورية، ثم المرحلة الميتافيزيقية، ثم المرحلة الوضعية. ما هو أساس وضعية هذه المادية الفرنسية؟ وقائع فقط ! الوقائع المُحَسة الخاضعة للتجربة العلمية.المُحس فقط. فقط.

بقي ثالث الفرسان: كارل ماركس، الإيديولوجي، الفيلسوف، الاقتصادي، الاجتماعي، المؤرخ، السياسي. الرجل الذي نَظَّر لتاريخ المجتمعات البشرية واعتبره صيرورة مستمرة من الصراعات بين الطبقات. هذه الماركسية إن هي إلاَّ داروينية اجتماعية اقتصادية لقيت مصيرها المعروف، وكذبت المَمارسةُ السياسية الاقتصادية النظريةَ لتصبح التجربة درسا حيا ينبغي تأمله. الغريب في الأمر أن داروين لم يكن مقتنعا بالأطروحات الماركسية إذ رفض إجابة ماركس إلى طلبه كتابة مقدمة لمُؤلَّفه "رأس المال" رغم استلهامه الظاهر من نظرية الألماني.

تبقى الخلاصةُ أن التضامن الذي نلاحظه أحيانا بين وحوش الأدغال الطبيعية ينعدم بين إيديولوجيي أدغال النظريات الدوابية... فكل واحد مهتم بنفسه فقط، والكل منكر لله عز وجل.

تصحيح التصورَات السابقة

ماتزال ريح العدمية والإلحاد التي هبَّت في القرن الماضي تعصف في نهاية القرن العشرين، لكن في نوبات متقطعة حلت محل اليقين المستعلي الذي كان يحرك كبار الملحدين في الماضي.

عفَّى الزمان على العقلانية الملحدة التي خفت حدتها ونضاليتها عما كانت عليه في الاتحاد السوفياتي مثلا. وانهارت -بسقوط حائط برلين- رقع كاملة من بناء الإلحاد الرسمي، لتخلو أرض الانحلال للداروينية الدوابية. ألا يجتاح الشواذ -القرود الراقية- العواصم الأوربية مطالبين بالاعتراف الرسمي "بكرامتهم"؟

أصبح قران الشواذ مشروعا وقانونيا في عدة بلدان. فتحت أبواب الانحطاط الخلقي على مصاريعها كما فتحت أبواب الكنائس في روسيا من جديد. لكن من هذا الذي مايزال اليوم يجرؤ على الحديث عن الانحطاط وعن الأخلاق؟

أصبح التغيير بذاته قيمة، وأصبحت الحركة التجديدية مفتاح التقدم، منشطة الاقتصاد، القلب النابض للسوق وللعالم الذي تحوَّل إلى سوق كبير.

ذاك هو منطق التطورية، منطق الفرضية الداروينية الفلسفية المنتحلة صفة العلمية التي تُسَرِّع دوران عجلة المجتمعات الحديثة وتستمد توازنها من حركتها، فإما أن تتحرك وإما أن تسقط.

لكن حركية أخرى بدأت تسبح ضد التيار، فأصبح مفكرو نهاية هذا القرن يراجعون ويصححون النسخة التي أنتجتها أدمغة الماضي الكسولة المتعننتة، "وتلك الأيام نداولها بين الناس".

ففيما يخص المعرفة والمنهجية، انتقد الفيلسوف كارل ريموند بوبر يقينيات الإيديولوجيين الذين كانوا يمثلون في الماضي المرجعية العليا. أما في المجال العلمي، فقد ضرب صاحب جائزة نوبل، المواطن البلجيكي الروسي الأصل، إيليا بريغوجين المثل لصرامة العقل المنتفض من هذيان الأمس.

توفي بوبر فيلسوف المعرفة الإنجليزي الشهير سنة 1996، مخلفا حصيلة هامة من الأبحاث الأكاديمية التي تمثل مرجعا للنخبة الأوربية الطليعية. كان من أكبر الداحضين للإيديولوجيات، كان يفضح "قابلية" المعرفة "للتزييف" ويعلن أن البناءات الفخمة التي شُيِّدت في القرن التاسع عشر مثل الماركسية ونظرية التحليل النفسي زائفة.

فنظرية التحليل النفسي، توأم فرضية داروين الطبيعية، خرجت من عقل فرُويْد العبقري مخلفة آثارا خطيرة عند هذا الذي سيقدم لنا تصورا أعور "للطب" النفسي.

ومدرسة التحليل النفسي تستقوي من رافدين اثنين من روافد الفكر الحديث الملحد: من الرافد الإغريقي الروماني الحامل لرمزية أسطورية قادمة من أعماق التاريخ، ثم من النهر الدوابي للإنسية الداروينية. بِذا يصبح الإنسان المحلَّل نفسانيا مجرد قرد تغلي فيه الشهوات والعقد، كائن لا يسمو إلا بواسطة الحلم أو الموت الذين يمنعانه من أن يعتبر نفسه مجرد حيوان يدب في الأدغال على أربع قوائم.

لكن نقد بوبر لا يتجاوز حدود النظرية، وتبقى مدرسة التحليل النفسي تنتظر ثورة مضادة تحاكمها على إهانتها لكرامة الإنسان وتزييفها لحقيقته.

أما المسيو بريغوجين فكثيرا ما يُستَشهَدُ به أثناء المحاكمة الجارية الآن لكبرى اليقينيات التي يقوم عليها عالم الأفكار الحَداثية والتي تحرك العالم. إلى أين يتجه العالم يا ترى؟

ففي سنة 1994، نشر بريغوجين كتابه "قوانين الفوضى"[1] الذي يخترق واجهة الكون المنسجمة ظاهريا وينظر للفوضى والحيرة؛ بريغوجين الكيميائي

(1) المنشور عند Flammarion, Paris

الفيزيائي البلجيكي الحائز على جائزة نوبل الذي يحظى بالتقدير الكبير في الأوساط العلمية، وكذا في عالم الأفكار الفلسفية الطبيعية، بريغوجين الذي لا يقدم في كتابه "نهاية اليقينيات"[1] خلاصة عَجْلَى مبنية على تخمينات فلسفية أو تخيلات غريبة.

فعناوين كتبه تعبر عن مدى حيرة أحد أرقى الأدمغة الغربية. لكن هذه العناوين لا تكشف عن الخلفية العلمية للكيميائي الفيزيائي الذي تقدمت مساهماته في الديناميكا الحرارية بالفيزياء خطوات واسعة إلى الأمام والذي كان لإنجازاته الكيماوية أثر كبير في البيولوجيا المعاصرة. هذا العالم الفيلسوف الألمعي يقترح منهجية جديدة لعلوم الغد، بينما ينتقد بوبر منهجية الأمس واليوم.

كِلا العالمين يدرك جيدا مدى الاضطراب الذي أحدثته الفيزياء الكمية في نظرتنا إلى الكون المادي، بحيث تزعزعت أسس العقل والمنطق ذاتها. فعندما يبني العالم مشروعا يتجاوز أسوار مختبره أو حيطان مكتبه، تصبح الحيرة التي تعتريه مذهلة، وتنهار قدرات الفهم البشري عند من يرتمي في أحضان المسلمات المُريبة.

هكذا يصاب الباحثون بالذعر حينما ترفع لهم الحكمة الإلهية الحجب عن ألغاز الكون، وتتملك الحيرة أجيال العلماء والمفكرين الطليعيين.

(1) المنشور عند Odile Jacob,Paris

تتكشف أمامهم الغرابة في كل مجال، تتسارع وتيرة البحث النظري والأساسي، وعجلة الاختراع التطبيقي، ويبلغ الإحساس بالدُّوار الفكري والوجودي أوجَه.

نأمل أن يكون وضعا جنينيًا بين يدي وضع جديد تتفتح فيه الآذان المتصامّة والأبصار المتعامية.

ينتظر العالم رسالة تمنح للحياة وللكون معنى. تسليم الحداثة يَبدأ بكشف الغشاوة لتتضح الرؤية ولِيرْتَفع الانزعاج المرضي الذي يعترض الرسالة الإلهية ويقمع الصوت الداخلي الذي ينبعث من أعماق كل واحد منا، عالما مُتَوَّجاً أوْ إنساناً مغموراً!

حيرات

تبدو أمارات فجر جديد يطل على الإنسانية التي عرتها المسلمات الكاسرة من كرامتها، فَجْرٍ يُبَشِّرُ به ارتباك عظماء المفكرين الحديثين. فالشك يعقبهُ دائما بحث عن الحقيقة كما أن الليل يطلبه النهار: "وتلك الأيام نداولها بين الناس".

لنتتبع إذن التحليق المبكر لطير علمي اسمه إدغار موران، عملاق من عمالقة الفكر الفرنسي، مؤسس "علم اجتماع الحاضر"، صاحب الكتابات الغزيرة، مؤلف "المنهج" المجزء إلى أربع مجلدات، موران الذي تلتقي عنده عدة علوم رغم اهتمامه المتميز بالفلسفة : علم الاجتماع، علم الإنسان، الفلسفة،

الأحياء. يستلهم هذا العالم مقَاربة متعددة التخصصات ليوجه عملية إصلاح الفكر الحديث، يحدوه في ذلك طموحه إلى إحداث ثورة في العلوم الإنسانية شبيهة بالثورة التي فجرها كوبرنيكوس في تصور الإنسان للكون منذ أكثر من أربعة قرون.

أتَّخِذُ هذا الرائد دليلا لأجلب انتباه الناطقين بالفرنسية الذين لايعيرون سمعهم إلا لما يقال ويكتب بلغة أوربية وبأقلام أوربية. أصِلُهُم مباشرة "بسلطة" جديرة بالاحترام. سأستشهد بها وأعيد الاستشهاد. يكتب إ.موران مايلي: "إن أكبر اكتشاف في هذا القرن هو أن العلم ليس مملكة اليقين رغم أنه يقوم طبعاً على سلسلة من اليقينيات المحدَّدَة مكاناً وفضاء[...] لقد كانت أعمال بوبر ضرورية ليفهم المرء أن النظرية العلمية لا تكون كذلك إلا إذا اعترفت بقابليتها للخطإ وبإمكانية تزويرها، أي تُسلِّم بقابليتها للتلاشي"[1]. هذا المصطلح الأخير بليغ بمدلوله. فلطالما استعمله علماء البيئة المهتمون بحمايتها عبر الترويج لاستخدام لفافات قابلة للتلاشي في الطبيعة. وتبقى الداروينية التي أضحت عقيدة راسخة في أوربا أكثر الموجات تلويثاً في بحر الأفكار، تنتظر منظفين أكثر فعالية من النصارى البروتستانت أنصار "الخلق من العدم" لإجلائها.

---

(1) La société en quête de valeurs, Laurent de Mesnil,Paris، كل الاستشهادات الواردة مقتطفة من هذا الكتاب المشترك. 1996 .P. 217

أما كاتبنا فيطبق فكرة بوبر في مجال العلوم الكلاسية ويُلغِي الأسسَ المنهجية الثلاثة التي استندت إليها في بناء يقينياتها، رغم اعترافه بقيمتها الملموسة الفعالة.

"فالعلم الكلاسي قام –حسب موران– على أعمدة اليقين الثلاثة: النظام والانفصالية والمنطق [...] لقد كادت فكرة الحتمية المطلقة [نظام الكون] أن تصبح عقيدة دينية بالنسبة للعلماء الذين نسوا أن البرهنة على صحتها غير ممكنة"[1]. ومن ثمَ جاءت نظرية الفوضى التي طرحها إيليا بريغوجين لتدحض هذا "المعتقد" الذي طالما اعتُبر حقيقة مطلقة.

أضف إلى ذلك أن الفيزياء الكمية والاستنتاجات المحيرة المستخلصة منها عمقت مدى اندحار الأفكار المُتَلقاة. فلقد "كان الفصل مُعتَمَدَ العلوم بين المُلاحِظِ والمُلاحَظ، بيننا نحن البشر الذين يدرسون ظاهرة معينة. وهذه الظواهر أو موضوعات البحث، عبارة عن يقينية مطلقة. لأن المعرفة العلمية الموضوعية كانت تستلزم تنحية الفرد وذاتيته. لِذا كان الفاعل في هذه الحالة مُشَوِّشاً، مجرد ضجيج".

لكن هذه الفكرة حين نتفحصها على ضوء نظرية الكمّات تبدو غير صحيحة بالمرة "خاصة بعد أن أظهرت التجارب الشهيرة التي أجريت على الموجة والجسيم والمتعلقة بطبيعة الجُزيء، أن سلوكه يكون أحيانا مشابها لسلوك

(1) La société en quête de valeurs, Laurent de Mesnil,Paris، كل الاستشهادات الواردة مقتطفة من هذا الكتاب المشترك. 1996. P. 218.

الموجة وأحيانا أخرى مماثلا لسلوك الجزيء أي أنه يتصرَف تارة بكيفية متصلة، وتارة أخرى بشكل متقطع"[1].

أظهرت هذه التجارب إذن أن عالم ما تحت الذرة متغير (تارة هو هذا وتارة هو ذاك) ومتأثر بسلوك المُجرِّب أي أن مبدأ الانفصالية الديكارتي لم يعد مقبولا.

بل إن أقدس قديسي العلم الكلاسي أي علم المنطق الذي يمثل روح وضمير التفكير العقلي لم يسلم من هجوم العلماء الطليعيين الذين انتقدوه بحدة. فباعتباره العمود الثالث لليقين العلمي الكَلاسِي،"كان الاستقراء المبني على عدد كبير من الملاحظات المتنوعة يُمَكِّنُ من استخلاص قوانين عامة من هذه الملاحظات. أما الاستنباط فكان الوسيلة القائدة حتما إلى الحقيقة"[2].

النظام إذن يسود الكون، فخلف الانسجام الظاهري الذي استنتجه العلم الكلاسي تكمن الفوضى؛ يتعطل المنطق -الأداة الأساسية للاستدلال العلمي- حين يصطدم بالاكتشافات الحالية، بما أن "الاستقراء لا يمنح يقينا مطلقا بل احتمالات قوية جداً [...] هذا الانحراف الذي يعرفه الاستنباط أيضا كان قد لفت انتباه الإغريق القدامى"[3].

---

(1) La société en quête de valeurs, Laurent de Mesnil,Paris، كل الاستشهادات الواردة مقتطفة من هذا الكتاب المشترك. 1996 .P. 217

(2) نفس المصدر، ص 222-223.

(3) نفس المصدر، ص 219.

ورغم أن طريقتي الاستدلال هاتين تنتقدان حاليا بشدة لعدم قدرتهما على ضمان اليقين المطلق، فإن استخدام الإيديولوجي المدعي "للعلمية" لهما يخلط المعطيات، فداروين مثلا عرض ملاحظات غزيرة لكنه شَغَّل قياسا سطحيا قاده إلى استنتاج عَجِل: أن الإنسان مجرد قرد!

رغم ذلك، يتجاهل الداروينيون الجدد باستعلاء العلوم المتطورة، ويخرجون من كِنانتهم سهما جديدا يتمثل في إعلان علماء الوراثة أن 96% من الرصيد الوراثي مشترك بين بعض فصائل القرود والإنسان، وهو الدليل "العلمي" الرائج اليوم في أوساط المنخدعين بالأفكار القابلة للتزوير وللإلقاء ثم للتلاشي.

كيف نتصور الواقع المعقد

تعقُّد ملازم للطبيعة البشرية وتعقيد متسارع لواقع كان العلم الكلاسي يظنه محكوما دائما بنظام كوني وبحتمية صارمة، تعقد يقف أمامه العلم الحديث الفائق التطور مشدوها، تعجز المقاربة الإدراكية للعقلية العلمية عن استيعاب العالم البشري الحسي، الغريزي، الحاجي، الاجتماعي، الزاخر بالغرائز والنزوات. لأن القدرات العقلية المتضخمة عند العالم قد تستر عجزه عن الإحاطة بالإنسان. أما إذا كان هذا العالم -إضافة إلى ذلك- بائعا للأحلام، نساجا للأساطير، ساعيا إلى تدعيم مسلمة مذبذبة، فلن يعدو حينئذ أن يكون مزورا يخلط التبر بالتراب لإثبات مالا يمكن أبدا إثباته.

إن الاعتماد على قدرات حسية متضخمة وعلى أجهزة ثَبَتَ اليوم قصورها وقابليتها للتلاشي، لا يُمَكِّننا من سبر الأغوار.تلزمنا موارد أخرى غير منطق التفكير العقلي حتى نتمكن من استيعاب تعقد الواقع الكوني؛ لابد من الانفتاح على مصدر إلهي لنعثر على معنى للحياة وللعالم، لأن تناقض المفكرين وتضارب آرائهم في تعقد العالم وقصورَهم نابعة من تقوقعهم على التفكير العقلي. يبقى أن إعادة النظر في القيمة المعرفية للمعارف الحديثة هي ذاتها وعد بالانفتاح.

نتابع إذن مع إ. موران: "من المُسَلَّم به اليوم تجريبيا أن الوقوع في هذه التناقضات ممكن رغم استخدام وسائل تجريبية منطقية. بل إن [كَانت] كان قد برهن على ظهور عدد من التناقضات الأساسية عند حدود العقل"[1].

يُعَرِّف معجم لاروس مصطلح aporie بأنه عبارة عن تناقض لا يمكن حلُّه بواسطة الاستدلال. لا يسعنا حين نُقِرُّ بوجود تناقضات أساسية إلا الاعتراف بضرورة الانفتاح على موارد أخرى غير العقل، لكن كيف يمكن تجاوز المنطق العقلي والانفتاح في آن واحد؟

يعترف دليلنا موران بأن لا سبيل سوى الانفتاح، لكنه لا يُضَمِّنُ إشكاليتَه القضيةَ الجوهَرية، قضية المغزى من الحياة. وبِذا يقف استنتاجه بعيداً عن الحد

(1) La société en quête de valeurs, Laurent de Mesnil,Paris، كل الاستشهادات الواردة مقتطفة من هذا الكتاب المشترك. 1996 .P. 224

الفاصل بين علم الإيمان والعلم العقلي المنغلق على ذاته، اليائس من إمكانية تجاوز حدوده: تناقضات أساسية ظاهرة وحلول غائبة!

ويطرح عالمنا الفيلسوف "إمكانية مواجهة هذا المشكل بوصل حلقة مَنطِقنا التقليدي بتجاوزاتٍ منطقية ضرورية لتطور عقلانية متفتحة بدلا من الولوج إلى منطق جديد يحتوي تناقضات جديدة"[1]. أي أن الكاتب يبحث عن الانفتاح دون أن يتحرر من الطوق العقلي، لأن الغيب مخيف في نظر العقول المتمرسة بالتفكير العقلي وهي لذلك تظل رهينة تعقد الواقع الذي تبلغه ملكة الإدراك دون أن تتجاوزه. وكيف تتجاوزه دون عون من الله؟

ثم يحدد كاتبنا "الأثداء الثلاثة " التي يرضع منها الفكر المعقد. فاستيعاب التعقد يقتضي أولا "احترام" النسيج الذي صُنع منه. ويستلزم ثانيا امتلاك "استراتيجية تعاون مع ما ليس يقينيا"، لأن الطريق آهل به. ثم إن سالك هذا السبيل ملزم بالتحرر من الحصار الذي تضربُه علينا الأنساق المغلقة. فنحن "نرزح تحت نير الأفكار التي لا تقيم اعتبارا لما يحدث، بل تُفَضِّل الأنساق المغلقة، المتناسقة، المتماسكة".

ولندع إدغار موران مع استنتاجه هذا لنستنطق مفكرا أوربيا آخر يتظاهر بتخطي عقبة التفكير العقلي معتمدا على وسائل التفكير العقلي ذاته.

(1) La société en quête de valeurs, Laurent de Mesnil,Paris، كل الاستشهادات الواردة مقتطفة من هذا الكتاب المشترك. 1996. P. 226.

الله والحداثة: ضدان لا يجتمعان؟

"قلة العلم تبعد عن الله لكن كثرته تدني منه" بحكمة باستور هذه يُصَدِّرُ جون غيتون كتابه "الله والعلم"[1] الذي سنستشهد به كثيرا إن شاء الله.

لكن نبدأ أولا بتعريفين أساسيين يرسمان الحدود الفاصلة بين مجالين، مجال العلم وأدواته العقلية، ومجال الفلسفة بتعقدها وتشككاتها العقلانية. الكتاب الذي نشر برعاية وإشراف ج. غيتون الفيلسوف الفرنسي البارز، بل أحد أكبر الفلاسفة النصارى المعاصرين، ليس سوى ثمرة حوار ناظر فيه هذا المفكر الكبير دكتورين في الفيزياء النظرية والفيزياء الفضائية، وذلك يلزمنا بتقديم تعريف مزدوج.

فمعجم لاروس يعرف مصطلح التفكير العقلي rationalité بأنه الطابع المميز لكل ما هو عقلي أي كل ما أسس على العقل واستخلص من الاستدلال لا من التجربة. كل ما حدد انطلاقا من الحسابات أو الاستدلالات.

أما العقلانية rationalisme فهي المذهب الذي يؤمن بأن لوجود كل موجود علة وبأن الإبهام ينتفي من كل موجود، أو هي المذهب الذي يؤمن بأن المعرفة البشرية تصدر عن مبادئ قبلية مستقلة عن التجربة.

---

(1) المنشور عند, Grasset, Paris, 1991

نقف عند هذا الحد ولا نبحث عن تعريفات أخرى للعقلانية مادام كل نسق فلسفي يملك تعريفه الخاص، ومادامت الأنساق الفلسفية منذ عصر سقراط عبارة عن أدغال متشابكة من التناقضات والجدالات.

نقف عند هذا الحد لنلاحظ أن المفهومية العلمية المؤسسة على التجربة والتحقق والمنتقدة كما رأينا من قبل مختلفة منهجا وغاية عن المفهومية الفلسفية.

أما الملاحظة الثانية المتفرعة عن الأولى فتتعلق بالخلط الذي يوجد عند النافرين من بني جلدتنا من الإسلام المعادين للإسلاميين. فهم يستعملون لفظا واحدا هو العقلانية للدلالة على التفكير العقلي rationalité والعقلانية rationalisme وكلما تكلموا استلوا في وجه خصمهم الحجة العلمية المزعومة: تتكلم عن الغيب، عن أمر غير عقلي، عن الله! إذن لست عقلانيا !إذن فأنت ظلامي لا يؤمن بالعقل! ومن ثم لا تستحق سوى التشهير والإدانة.

لكي نجتاز إذن العقبات التي ستعترضنا حتما حين بنائنا للعلاقة التي ننوي إقامتها مع الحداثية الإيديولوجية ومع الحداثة التقانية، لابد أن نطرح الأسئلة المناسبة حتى نتمكن من العرض الواضح للمشاكل ونتجنب الخلافات.

ألا يمكننا إذن الحديث عن الله تبارك وتعالى إلا إذا تخلينا عن الوسائل العلمية والتقنية التي تسخرها لنا الحداثة ؟ هل نحن ملزمون بالتبرؤ من عقيدتنا وتبني منهجية الشك وأسطورية التلاشي لننفذ إلى عا لم الحداثة؟

إن الحديث عن الله في هذه الأزمنة الحديثة يعرض صاحبه للاتهام، ويحكم عليه إن كان من وجهاء المجتمع العلمي بالإبعاد. لهذا لا يجرؤ كبار الأعلام من أمثال بوبر وبريغرجين وموران المنتقدين "لليقينيات" العلمية أن يعرضوا صراحة قضية الله عز وجل.

ولأن الضغوط قوية، اضطر الفيلسوف الفرنسي الكبير غيتون إلى التترس بالعبقري باستور، العلامة البار بالإنسانية، ليتكلم بصراحة وإن على استحياء عن الله عز وجل.

يعتبر غيتون –تلميذ الفيلسوف الكبير برجسون وعضو الأكاديمية الفرنسية– وريث الفلسفة الحدسية لبرجسون الذي أسس روحانية على منهج المعرفة الفورية للزمن بواسطة الحدس أي على الإدراك الفوري الذي لا يستعين بالعقل أو بطرق الاستدلال.

تَوَاجَهَ إذن الروحاني الفرنسي وارث الأستاذ الكبير ودكتوران نشآ تحت الصرامة العلمية: غريشكا وإيغور بوغدانوف.

تتواجه العقلانية الفلسفية المنفتحة على العالم غير العقلي والتفكير العقلي المتمرس خلف مبدإ التحققية الذي يؤمن بأن لا وجود إلا لما يظهر تحت المجهر أو فوق المقراب أو يلده منطق الحسابات.

اشترك الثلاثة إذن –الأكاديمي والعالمان– في تأليف كتاب يطرح في هذا العقد الأخير من القرن العشرين مسألة الإله: هل يمكن أن نفكر في

الله والعلم معا؟ هل يمكن إقناع العلميين بتفحص فرضية وجود رب للكون لا يمكن البرهنة على وجوده؟

لاتزال الضغوط قوية ولايزال الإلحاد ينافح عن يقينياته ويعبر عنها بطمأنينة لا يعكر صفوها ظاهريا شك أو ريبة، فقد كشف جاك مونو – الفرنسي الحائز سنة 76 على جائزة نوبل– القناع عن إوَالية الضبط الجيني في الخلية، لكن النابغة مر على القضية دون أن يخطر بباله فكرة محاولة فك لغز وجوده.فقد اكتفى بالإعلان أن "الإنسان يعلم أخيرا أنه وحيد وسط الكون الشاسع الذي لا يبالي به، الكون الذي ولد من صدفة. إنه الآن يعلم أنه يعيش مثل غجري منبوذ في هامش الكون الذي يصم سمعه عن موسيقاه، ولا يبالي بآماله وآلامه أو جرائمه"[1].

أما ستيفن ونبرغ المنظر الألمعي الحائز هو أيضا على جائزة نوبل فيعلن يائسا أننا "كلما ازددنا تعرفا على العالم كلما بدا لنا غريبا عنا"[2].

أسئلة

مهما بلغت روحانية الفلاسفة في البداية فإن حدسهم سرعان ما يفقد طراوته واندفاعه حين يمر عبر قناة الصياغة والاستدلال، وتبقى الفطرة

(1) La société en quête de valeurs, Op.Cit, P.209

(2) نفسه، ص 210.

المذكورة في القرآن مستغنية عن الصياغات والاستدلالات لإدراك الحقيقة الوجودية، لأنها عاطفة مغروسة في النسيج الأصلي للكائن البشري، اندفاع مباشر وبحث فوري عن الخالق، بينما تنحسر دائرة الحدس الفلسفي في الكون المخلوق.

رغم ذلك، يبقى التعجب من هذا العالم البديع الترتيب وفتح الباب في وجه السؤال الجوهري خطوة هامة نحو الحقيقة المطلقة. ويتخلف المفكرون العظام، علماء الشك، عن الركب، منشغلين بالبحث عن منفذ يخرجهم من الطوق المضروب على أمثال مونووونبرغ. فالكتاب المشترك الذي أشرف عليه الأكاديمي الفرنسي لا يطرح السؤال المركزي : من الذي جعلني إنسانا؟ فإنه يمتاز بعرض أسئلة وجيهة من أمثال: ما مصدر الكون؟ ما هو الواقع؟ أي علاقة بين الوعي والمادة؟ لماذا حلت الأشياء محل العدم؟

أسئلة تتذبذب بين العلم والفلسفة، وتقرب بين الحقل الفلسفي وحقل الأفكار الجديدة المتعلقة بالكون المادي، موضوع الفيزياء. ويَعْبُر غيتون وشريكاه بكل سهولة الحدود الفاصلة بين كون الفلسفة المثالي وعالم الفيزياء الحديثة التي لم تعد ترى في المادة سوى فكرة مجردة.

هي إذن ثورة كبرى تظهر أماراتها ولا ينفرد موران بالحديث عنها، إذ يعلن المؤلفون الثلاثة لكتاب "الله والعلم" أننا "نشهد مطلع ثورة فكرية، قطيعة إبستيمولوجية لم تعرفها الفلسفة منذ قرون عديدة. ويبدو أن الطريق المفهومي

الذي شقته النظرية الكمية سيشهد بروز تمثل جديد للعالم مختلف جذريا عن سابقه"[1].

هذه الثورة الكبيرة تقلب كل الأفكار الفلسفية واليقينيات العلمية "لأنها تمحو الحدود الفاصلة بين العقل والمادة، ولذا قررنا تسميتها ب métaréalisme "[2].

الآن بعد أن تلاشت الحدود بين العقل والمادة، أصبح من الممكن طرح قضية الله. لكن ذلك لا يعني خلو هذه العملية من المخاطر، ما دامت تشككية ونبرغ وتشاؤمية مونو ماسكتين بزمام الأمور. الاحتياط أولى.

رغم ذلك، يلاحظ غيتون أن "بعض المؤشرات تدل على أن الوقت قد حان لفتح مسالك جديدة تخرق إلى المعرفة العميقة متجاوزة المظاهر الإوالية (mécanistes) للعلم، باحثة عن الأثر -الذي يكاد يكون غيبيا- لشيء آخر قريب وغريب، قوي وغامض، علمي ومستعصٍ على التفسير في نفس الوقت، قد يكون هو الله"[3].

قد يكون! ؟ فالحدس الروحاني لا يجرؤ على الصدع بها رغم الدعم الهائل الذي يتلقاه من العلم الحديث، إذ ما زالت محاولة تحدي المحرمات في الغرب

(1) La société en quête de valeurs, Op.Cit, P.18

(2) نفسه، ص 18.

(3) نفسه، ص 16.

محفوفة بالمخاطر، خاصة إذا حاوَلْتَ تقاسُم خَيْبَتِك مع ثقافة مشبعة بالإلحاد المتشكك، متحصنة بادعاءاتها.

قال صاحبنا: "ذلك موضوع بحثنا في هذا الكتاب. فلقد عرف الدين والفلسفة تحولات عديدة بسبب الدفعة الهائلة التي أحدثها العلم، مما ألزمنا بالاستعانة بأحدث الأفكار في الفيزياء الحديثة أثناء محاولتنا وصف الواقع، لتقودنا خطواتها تدريجيا إلى عالم آخر، غريب وباهر، عالم أضحت فيه أغلب يقينياتنا المتعلقة بالزمان والمكان والمادة مجرد أوهام تامة، أسهل تناولاً من الواقع نفسه"[1].

تتقدم الدفعة العلمية الهائلة –المتحققة في مجال تطبيقات التكنولوجيا المعلوماتية والاختراعات المذهلة خاصة في علم الوراثة– النظريةَ والبحث الأساسي. ويلتقي الحدس الفلسفي بأحدث الاكتشافات العلمية عند حدود دائرة المجهول عقليا، فيصبح اللجوء إلى منطق آخر حتميا.

"إذن نحن قبلنا –كما يقول فيلسوفنا وصديقاه– الولوج إلى الفكر métalogique إذا لم ننهزم أمام المجهول، إذا سلمنا أن المجهول هو لب المنهج العلمي الحديث، سندرك حتما سبب لحاق أحدث اكتشافات الفيزياء الجديدة بدائرة الحدس الغيبي. وسندرك أيضا مدى خطأ إينشتاين –آخر الفيزيائيين الكلاسيين الذي كان يؤمن بأن معرفة الواقع والكون ممكنة– إذ يعيش اليوم

(1) La société en quête de valeurs, Op.Cit, P.16

جميع الفيزيائيين على الحدود الغريبة المتحركة التي رسمتها النظرية الكمية. تجربة لا أدرية من نوع جديد: أن معرفة الواقع غير ممكنة، أنه محتجب عنا وسيظل محتجبا عنا. هكذا يقودنا التسليم بهذا الاستنتاج لاكتشاف حل بديل عن الغرابة الفيزيائية هي الغرابة المنطقية"[1].

ثم يعرض المؤلفون اليقينية الوحيدة التي بقيت في جعبتهم والتي تتمثل في استحالة معرفة الواقع علميا ما دام سيبقى محجوبا عنا، أي أنه بكل بساطة غير موجود.

"يلزمنا إذن منطق للغرابة؟ لابد من ذلك حتى نشيد هذا البنيان التصوري الجديد بنيان النظرية الكمية المتين، المثير لحيرة أدمغة هذا القرن. فبقدومها، أصبح من المتعذر التمسك بتأويلات الكون المنسجمة مع التفكير السليم المتمثل في الموضوعية والحتمية. أصبحنا ملزمين بتقبل حقيقة أخرى مناقضة: أن "الواقع بذاته" غير موجود ما دام وجوده مرتبطا بنظرتنا إليه. وأن الوحدات الأولية التي يتكون منها قد تكون شيئا (موجة) كما قد تكون في نفس الوقت شيئا آخر (جُزَيْء مثلا) وأن عمق هذا الواقع يبقى في جميع الحالات غير محدد"[2].

مخطئة إذن هي النظرة المادية إلى العالم، متجاوزة فيزياء العبقري إينشتاين. "فكل سنة تضيف عددا كبيرا من التعديلات النظرية لهذه الحدود التي تحيط

(1) La société en quête de valeurs, Op.Cit, P.12

(2) نفسه، ص 22.

بواقعنا، سواء منه واقع الذرة المتناهي الصغر أو واقع الفلك المتناهي الكبر. وفي كل يوم توسع النظرية الكمية وعلم الكونيات دائرة المعرفة لتلامس في النهاية اللغز الأساسي: وجود كائن متعالٍ يمثل في نفس الوقت علة الكون الرحب ومغزاه"[1].

بذا يمكن للاأدرية التي يلتقي عندها العالم والفيلسوف أن تصبح مدخلا للاندهاش في انتظار نور يبدد الظلمات ويرفع الحجاب الذي يمنع الحداثة من الرؤية الواضحة التي قد تمكنها من العثور على معنى لها.

لقد أعلن باستور أن التعمق في العلوم يؤوب بالإنسان إلى الله لكن العلم العقلي أقر بعجزه ويأسه من إمكانية سبر أغوار واقع الكون المستغلق. وبذلك ينحصر مصدر المعرفة في الوحي.

الوحي وحده يمكننا من طرح الأسئلة الوجودية الصائبة والإجابة عنها : لماذا وجدت؟ ما مصيري بعد الموت؟ ما واجبي؟ كيف أستعد للحياة الأخرى؟ بأية أخلاق أسير في المجتمع؟

وحي ونبوة

ما الوحي؟ ما النبوة؟

ما الذي يمكن أن يحدثنا عن الوحي والنبوة غير الوحي ذاته؟

---

(1) نفسه، ص 23.

بعد أن تراجع الإدراك العلمي عن يقينياته إلى حيرة رشيدة، أصبحت عملية التواصل مع عقلاء المثقفين أكثر سهولة وانفتحت قنوات الشبكات متعددة الوسائط في وجه رسالة الوحي. ففي سورة الشورى يخبرنا الله عز وجل ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ**﴾[1].

فالوحي إذن كلام الله الملقى إلى شخص اصطفاه الله وباركه، بواسطة الوسائل الثلاثة المذكورة باستثناء موسى عليه السلام الذي كلمه الله بدون واسطة كما تخبرنا بذلك سورة النساء: ﴿ **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ**

(1) سورة الشورى، الآيات: 51-53.

عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً لَّكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً﴾[1].

ويمر موكب أنبياء الله المبارك في القرآن. رسل مبشرون منذرون تؤيد صدقيتهم المعجزات. لم يكونوا كهنة ولا ملهمين شيطانيين مثل الذين تعرفهم سائر العصور والمجتمعات. فالمخبولون يُسَلُّون جمهورهم ردحا من الزمن، لكنهم أبدا لا يرقون إلى المستوى الكوني، ولا يؤسسون الديانات الكبرى التي تشق طريق الهداية الربانية.

بل إن من يصطفيه الله من البشر الفانين هو أول المنبهرين حين يَفْجَأُه الوحي. فقد وصف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فزعه الشديد حين رأى جبريل يقتحم عليه خلوته في غار حراء بجبال مكة ويلقي إليه الرسالة: "**فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد**"[2]. أمره الملك بالقراءة، لكنه كان أميا فلم يقدر على الاستجابة. ضمه الملك إليه ثلاث مرات قبل أن يلقنه أول سورة منزلة –سورة العلق– التي تعرفه بخالقه وخالق الكون.

أخي الإنسان ! أختي الإنسانة!

إذا كنتما من الذين من عليهم الله بالقدرة على قراءة العربية –لغة المقدس– وفهمها، فالقرآن بين أيديكما بمحتواه الأصيل المحفوظ من كل تزييف، وأريحه

(1) سورة النساء، الآيات 163-166.

(2) البخاري ومسلم.

العطر الخالص من كل شائبة. هو لك: رسالة من الله إليك، إلى إنسان كل الأزمنة.

أما إن لم تكن العربية لغتك، فاستند إلى تأويل للقرآن –ولا أقول ترجمة لأن كلام الله لا يترجم– إلى أن يشع في قلبك نور الإيمان.

ذلك هو الوحي، أما النبوة والرسالة فتعني اصطفاء الله عز وجل نبيا بشرا ينزل عليه وحيه ويكلفه بتبليغ رسالته إلى مخلوقاته العاقلة ويمده بمعجزات تبرهن للناس بطابعها الخارق على صدقه، كما يلخص ذلك حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "**ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر. وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة**"[1].

أما باقي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقد تلقوا الوحي جميعا، وبلغ بعضهم تعاليم لم يدونها أتباعهم إلا بعد وفاتهم بسنين طويلة، فلم تسلم من التعديل والتحريف، ليبقى القرآن المعجز متفردا بأصالته وسلامته من التحوير.

إن من أهم الأسباب التي تدفع الأتباع إلى التصرف في رسالة الأنبياء ميل الطبيعة البشرية إلى مجاوزة الحد عند تنزيه حياة متبوعيهم وتعاليمهم، بدليل ما فعله أتباع المسيح عيسى عليه السلام بعد وفاة حوارييه الصالحين. فقد رفعوه إلى مقام الألوهية بعدما شهدوا المعجزات العظمى التي من الله عليه بها.

(1) البخاري ومسلم.

كان مولده معجزة فريدة وكانت حياته اليومية سلسلة من المعجزات الباهرة التي يسردها عليه السلام لقومه في سورة آل عمران : ﴿**أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ**﴾[1]، لذلك لم يتردد بعض النصارى في تأليهه.

معنى حياتي

أول آية من الكتاب المعجزة أوحى بها الله إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم تخبرنا أن على رسول الله أن يقرأ الوحي باسم الله الخالق. ثم بعد بضع آيات أن إلى الله مرجع الإنسان بعد الممات، وأن عليه لكي ينجو من العذاب الشديد أن لا يسلك في هذه الحياة سبيل الأنانية ومعاداة أهل الخير.

حين نقرأ القرآن، ندرك فورا أن الإيمان بأن لهذا الكون الزاخر بالألغاز خالقا لا يكفي لكي يكون لحياتنا معنى واتجاها. وحين نقول إن العلم الحديث فقد يقينياته ونتباكى متسائلين عن معنى الحياة، فإنما نفعل ذلك مدفوعين بقلق الموت، لا يحركنا في ذلك فضول مجاني. قلق الموت، وهاجس المصير بعد الموت هما لب المسألة وبداية الطريق.

(1) سورة آل عمران، الآية 49.

معرفتي بأني مخلوق من مخلوقات الله هي نقطة الانطلاق لأومن بأن بعد الموت حياة أخرى، هي التي تقود خطواتي وتوجه سلوكي في الدنيا حتى لا يكون سيري مجرد خبط عشواء.

لذا يتضمن القرآن الكريم أربع موضوعات رئيسية هي صفات الخالق ورجعة الإنسان بعد الموت ومهمة الأنبياء عليهم السلام ثم مكابدة الإنسان في الحياة الدنيا واستحقاقه بعدها للجزاء أو للعقاب.

لا بديل إذن من قراءة متأنية متواصلة للنص القرآني لمن يبحث عن العلم والفهم في خبايا الوحي بعد فشل العلوم والفلسفات البشرية في هدايته.

فسورة "المؤمنون" مثلا تستوعب في بدايتها الحياة الدنيا للإنسان ومصيره في الآخرة بعد اجتيازه لامتحان العبور:﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ**﴾[1] ليعرج القرآن، فور انتهائه من تعداد الفضائل والعبادات التي تؤهل المؤمن للسعادة الأبدية، على أصل الإنسان: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ**

(1) سورة المؤمنون، الآيات الأولى.

الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾[1].

فالحياة الدنيا إذاً امتحان، والغاية من الوجود الدنيوي هو اجتياز الامتحان: **﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾**[2]. لهذا تظل الأشياء والأفكار والكون وضجيج العالم عقبات تعترض طريقي إلى الله عز وجل.

أما أكبر امتحان في الزمن الحاضر فهو أن أكتشف دون أنْ أرتاب لحظة واحدة في حكمة القدر الإلهي الهوة السحيقة التي تفصل عالما حديثا متطورا وغنيا عن عالم مسلم فقير ومستضعف.

تمنحني الحداثة ومقاومة الإسلام لمذهب الحداثة الفرصة المناسبة لأن أكون أحسن عملا. فاليوم، تعرف الحداثة تطورا مخيفا في شتى المجالات العلمية والتكنولوجية. لكن أكثرها إثارة للفزع هو تطور الهندسة الوراثية حيث يبدو العالم المتلاعب بالخلايا والمورثات وكأنه يخلق حسب هواه النباتات والحيوانات والبشر. هذا التقدم المجنون الذي تعرفه العلوم والتكنولوجيا عجلة مسعورة تصفها سورة الأنعام: ابتليت الأمم التي نسيت ربها فتلاحقت عليها

(1) سورة المؤمنون، الآيات 14-12.

(2) سورة الملك، الآية 2.

سنوات سمان وأخرى عجاف إلى أن باغتها الموت واحدة واحدة أو جاءتها الطامة الحضارية فعفت على ما بنوا مستكبرين.

فجوة فتحها القدر في حائط كان البارحة متمنعا على المعرفة ليمتحننا، فأصبح مستحيل اليوم مجرد لعبة تافهة.

أَفِقْ أيها الإنسان المنكب على مجهرك ! أنت لا تخلق أي شيء! فالخلية ونواتها ونظام المورثات ليست من بنات أفكارك ولا من صنع يدك.

أيها المتلاعب المسخر المتهور ! دماغك، هذا الجهاز العجيب، أنت الذي صنعته ونفخت فيه الروح؟ هل أنت الذي منحته الذكاء والخيال؟

تخبرنا الآية 44 من سورة الأنعام: ﴿**فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ**﴾.

تَتتابع الامتحانات ويتجه الجميع،أشخاصا ومجتمعات، نحو الموت، والسعيد من لم يلهه المتاع أو المصيبة عن الحق. السعيد من عقد العزم على إرضاء ربه وعمل لبلوغ هذه الغاية ف﴿**مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً**﴾[1].

(1) سورة الإسراء، الآيتان 18-19.

الشريعة، السلوك

الإيمان يقين، الإيمان اندفاع روحي وهمٌّ قلبي وتنافس في الخيرات. يظل الإيمان بالله واليوم الآخر عقيما إذا لم يُعْقِبْ أفعالا توجهها نية واضحة وإرادة متحركة وانضباط حازم.

يسمى القانون الإسلامي "شريعة" أي طريقا، طريقا يسلكها المؤمن الخاضع لله، سير منضبط، منهج حياة. لكن لفظ "الشريعة" يوحي للكارهين للإسلام -سواء كانوا من أهل الدراية أم لا- بالقسوة والتعطش للدماء. "الشريعة" في عرف هذا الصنف من الناس مرادفة لِ"لا إنسانية". لأن أيدٍ بترتها ظلما أنظمة متهورة لم تلتزم بالاحتياطات التي قيدت بها الشريعة نفسُها تطبيق القانون الجنائي الإسلامي، حجة من يريد إدانة الإسلام ونعت شرعه بالوحشية، سلاح المغرضين أو الجاهلين الذين يحصرون الشريعة -الطريق العابرة لفضاء الحياة الفردية أو الجماعية - في قانون جنائي وممارسة مرتجلة. ولا عجب! فقد ساهم في تعميق الخلاف التطبيق التعس الذي تمارسه بعض البلدان الإسلامية للحدود المقررة شرعا، دون مراعاة الظروف والشروط التي تقيد تطبيق الحدود الشرعية.

إننا نعلم أن القرآن والسنة هما مصدرا التشريع، ونعلم أن محمدا صلى الله عليه وسلم كما تصفه السنة نبي حليم رحيم لم يدخر جهدا لحقن الدماء، نبي يهدي الناس إلى الطريق، يدلهم على خط سلوكي قويم ويعلمهم البحث عن سبيل الخلاص. أما العقاب فقد كان ينحصر في عهده صلى الله عليه وسلم في

دائرة السلم الاجتماعي الذي يفرض ردع الجريمة والضرب على أيدي المجرمين، في إطار مجتمع يعترف بحقوق أفراده كما يطالبهم بالواجبات المقابلة لها.

فمن بين العدد الكبير من الآيات التي يتكون منها القرآن (6236) لم يخصص للحدود سوى ثلاثين آية، ثلاثة عشر فقط منها للأحكام والمنازعات، والباقي للهداية، الباقي كله لترسيخ هم الآخرة في قلب الإنسان ودعوته إلى سلوك سبيل الاستقامة، سبيل الصالحين قبله.

الباقي، أي القرآن كله تقريبا متوجهٌ للحديث عن العلاقة بين الإنسان وخالقه، عن العمل الصالح الضروري لكي يرتقي الإنسان في هذه الحياة على معارج الإيمان ويستحق السعادة الأبدية. وانطلاقا من هذه العلاقة، علاقة الإنسان بربه تعالى، تعالج العلاقات الاجتماعية، وأوضاع السلم والحرب، ومسألة توزيع الثروات، وكذا مجموع المبادئ الأخلاقية والاقتصادية والسياسية والأسرية، علاقات يريدها الإسلام في كنف التسامح وتكريم الإنسان.

البذل والتسامح شرطان لازمان لإحلال التوازن في المجتمع الإسلامي بدلا من التنازع والبغضاء، وأهم غايات الشريعة الإلهية إتمام مهمة خلاص الإنسان وسعادته الأخروية. وهو مقصد سام لا يتحقق إلا بالمحافظة على الحياة والعقل والأخلاق والملكية لتأمين النظام والأمن الاجتماعيين الضروريين لكل عمل بناء. بذا تكون الحدود الشرعية سياجاً يحوط الطريق الموصلة إلى الله عز وجل ويصونها عن عبث العابثين.

لابد من العقوبات في دولة القانون التي يكون العدل فيها قضية تشريع بشري غايته ضمان النظام والأمن، أما غاية شرع الله في مجتمع الإيمان فهي أيضاً إشاعة النظام والأمن بين الناس، وهو لذلك يعاقب التجاوزات ويردع المشاغبين. لكنه يتجاوز هذه الحدود وينطلق من مبدإ مختلف عن مبدإ التشريع البشري، ينطلق من الحقيقة المنزلة التي يتعلق بها الشعب المسلم بدلا من القانون الذي يفرضه بقوة نظام يحتكر العنف البدني ويمارس الإكراه: وهنا مكمن الاختلاف.

غير أن هذا الأمر لا يعني التفريط في الحزم اللازم لكل مجتمع متمدن، فالمجتمع الإسلامي ليس صومعة رهبان أو منتزه صبيان، وتنفيذ مشروع الخلاص الفردي لا يمكن أن يتم إلا في خضم الصخب الاجتماعي المحكوم بالقانون، لأن كل ركن من الحياة الاجتماعية محتاج إلى تشريعات متجددة ومتكيفة، تبدأ بالقانون السياسي، أي الدستور، وتنتهي بالقوانين الجزئية. وتُعْتَبَر المبادئ الرئيسية التي ذكرها القرآن والسنة أعمدة التشريع في الإسلام، لكنها لا تستوعب تفاصيل الحياة الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية حتى يبقى المجال رحبا أمام المشَرِّع المجتهد في نطاق الأصول الشرعية لإنزال الأحكام على الواقع المتجدد وتكييفها للظروف المتغيرة.

غير أن اجتهاد الفقيه المسلم مقيد بتوفره على كفاءة وخلق يمنعانه من خيانة روح التشريع وتجاوز الأحكام القطعية الواضحة، علما أن الحرفية والتقليد يشكلان أيضا عائقا في وجه الاختيار السديد المستقل عن اجتهادات فقهاء

الماضي. ذلك أن النظام القانوني الجامد الخاضع لتشريعات الماضي –حاشا الكتاب والسنة– يظل عاجزا عن تلبية متطلبات الاقتصاد المعولم والقيود الدولية التي تربط بين مصائر الأمم. إذ لم يعد الآن ممكنا –والعالم أصبح قرية واحدة– أن نسلك مسلك الانعزال ونغلق النوافذ تحرزا من التدنس بالتأثيرات المعادية. كما أن طأطأة الرأس أمام إملاءات المؤسسات المهيمنة والدول المتسلطة خيار آخر أشد خطورة!

للمساهمة إذن إيجابيا في الحياة الحديثة وتفادي الفخاخ التي تنصبها العولمة في الطريق لا مناص لنا من التضامن الإسلامي المتبادل، لا بديل لنا عن الالتفاف حول شرعنا والدفاع عنه ريثما يأتي اليوم الذي يصبح فيه هذا الشرع محرك أخوة إسلامية تمحو الحدود المصطنعة التي تخنق الشعوب الإسلامية.

طوفان ثقافي

كشَّرت الحداثة عن أنيابها وتكالبت علينا، ترصدنا من الخارج، تتغلغل في أعماقنا تسلب مشاعرنا وتشوه أفكارنا.

بتعبئة القوى الذاتية نتمكن من مقاومة التأثيرات الخارجية. لكن ما العمل إذا كانت هذه القوى متثاقلة، يسري في أوصالها الخَدَر المهيمن على المجتمعات التي تشهد ضياع هويتها؟ ما العمل والتثاقف يغمسك في عالم صاخب لا يبالي بغاية وجودك، بعقيدتك، برسالتك في هذه الحياة؟

مهمتنا أن نكوِّن ونعيد التكوين، أن نصبر ونصابر ونعلم، لأن تغيير الذهنيات والمواقف مشروط بالتدرج.أما التسرع فلا يمكن المرء من إقناع الآخرين بقضيته وضمهم إلى صفه. لن يكون إذن تحرك الدولة الإسلامية ضد الواقعية الباردة للحداثة الشرسة ناجحا إلا إذا سانده التعاطف الشديد والمساندة الكبيرة الشعبية.

إن التفقير المادي والخلقي الذي تعاني منه مجتمعاتنا يستدعي عدالة اجتماعية مثلما يتطلب إحياء تربويا، لأن الانحطاط المادي مصدر البؤس الخلقي والثقافي.

تغرقنا الحداثة في مستنقع ثقافتها الداعرة التي تهدد كيان الأمم الغربية ذاتها، فتسرق منها هويتها واستقلاليتها، بدليل الصرخة المدوية التي أطلقها الرئيس الفرنسي جاك شيراك في مؤتمر الفرنكفونية المنعقد بالفتنام أواسط شهر أكتوبر 97 محذرا العالم من الإمبريالية الثقافية الكاسحة –المتمثلة في ثقافة الهمبورغر والكوكاكولا– محرضا البلدان الناطقة بالفرنسية على المطالبة بـ"الاستثناء الثقافي" الفرنكفوني وإنشاء مؤسسة تعمل على إعادة المستعمرات الفرنسية السابقة –مثل فتنام– إلى كنف الحاضرة الثقافية الفرنسية.

غريبة عقلية الاستعمار الثقافي الجديد هاته ! فاقدة للذاكرة أيضا ! كأن الشعب الفتنامي لم يتمكن من دحر جيشين جبارين خلال عقد واحد من الزمن إلا بالاعتماد على ثقافة أخرى غير ثقافته الأصلية !

أقف هنا لأستنطق كلمة "الثقافة" هاته، هذا المصطلح الذي تردده الألسنة ليل نهار. مامعناه؟ هذا اللفظ المبتذل الذي يفكك دماغك ويركبه، الذي يوجه فكرك وسلوكك، ما هو؟

لمفهوم "الثقافة" عشرات من التعريفات تختلف من مدرسة اجتماعية أو إناسية أو إيديولوجية إلى أخرى. فالفرنسيون يحصرون القيم الثقافية في الإبداع الأدبي والفني، في الإعجاب بالتراث المكتوب أو المرسوم أو المنحوت، في العلم النافع أو غير النافع، في إنتاج الصور والشخصيات، في تذوق التعبير الرقيق والصياغة الرشيقة. لا ذكر لله ولا حديث عن معنى الحياة !

أما الثقافة في عرف الأنجلوسكسونيين فترتبط بأسلوب عيش معين، بطابع أنسي محدد، بمهارة عملية، بالفن والمنظر، بحصة الشاي اليومية. لا ذكر لله عز وجل!

والألمان يؤمنون بثقافة تتجاور فيها الأسطورة التاريخية والفعالية العملية، وتتلازم فيها الحضارة والقوة والرمز، ويولد فيها الانتماء إلى الأمة الجرمانية الشعور بالتفوق على الآخرين. لا حَديث عن الله وعن مغزى الحياة ولا تفكر في المصير !

باختصار، فأنت تصبح مثقفا حين تجمع ركاما من المعارف المتناثرة، وتتبرمج لاستهلاك المزيد من المنتوج الثقافي، أما مغزى حياتك، أما مصيرك، فلا خبر لدى الثقافة عنه !

أقلب الصفحة إذاً، وأبحث عن وطني بعيدا عن هؤلاء!

أبحث عن موطن لعقلي وقلبي، موطن لا تلفه عباءة مسلمات الدوابية المؤسِّسَة للثقافات الوثنية، بل يحتضنه الوحي الذي يجيب وحده عن تساؤلي الأساسي.

مثقفونا المستلبون المتعلقون قلبا وقالبا بالغرب يمتثلون للفرمانات الثقافية التي تصدرها الأفكار المهيمنة في الغرب. فالغرب والثقافة الغربية وأسلوب الكلام الغربي والتخيلات الغربية والفن الغربي واليقينيات الغربية تمثل في نظرهم المعالم والأنوار، بل الحقائق. تكفيهم الإجابة التي تمدهم بها الثقافة الغربية إذا حدث صدفة أو دفعتهم جرأة ثقافية وقحة إلى التساؤل: ما الذي جئت أفعله على هذا المرْكَب العبثي، سفينةِ الحياة؟

في شخص أندريه مالرو يلتقي الأديب الفرنسي والمثقف الملتزم والمغامر الثوري ورجل الدولة، الصاحب المجيد للجنرال دوغول. هو باختصار أحد عمالقة الحداثة المقدسين. رجل الثقافة الشهير هذا يعرف الثقافة بأنها (أستشهد هنا من الذاكرة): "كل ما يخبرني عما جئت أفعل فوق الأرض". هل هو الفزع الوجودي الذي يدفع هذا العقل الجبار إلى الرضى بأن يكون العدم الثقافي جوابا عن التساؤل اليائس؟ هل هي آخر فكرة خطرت لِوزير الثقافة أيام دوغول أم أنها "الجملة القصيرة" المنسوبة إليه والملخصة لوصيته: "سيكون القرن الحادي والعشرون دينيا أو لا يكون"؟

أي بديل لنا إذن إذا نحن أعرضنا عن الثقافة؟ أن نكون جهالا جفاة يعتزلون العالم ويرجمون الحداثة؟

معنى ذلك أن نتجنب الامتحان ونتخلى عن تبليغ الحداثة دعوة الإسلام، إذ لا يمكن إقناع الآخر بقبولك في منتديات الحوار إلا إذا كنت ملما بجميع ما يجري في جميع مناحي الحياة وخاصة في مجال الثقافة. فنحن لا اعتراض لنا على ثقافة الشعوب مادامت لا تحاول تبليدنا بطرقات ضجيج الحداثة المسعور !

ففي عهد الثقافة الأمريكية الكاسحة والمعرفة الغربية المهيمنة، لا يمكن للإسلام أن يكون نفيا مطلقا لكل ما يفكر فيه الآخر ويلقنه. لكن لكشف الزيف وإحباط مناورات المثاقفة، لابد من التشهير بالمسلمات"العلمية" الزائفة،ليعلم من ألقى السمع وليسخَر من احترف شتم المستقبل. لابد من كشف الداء لإحياء الإيمان وضخه في قلوب وعقول أجيالنا الشابة. لابد من فضح المسلمة الدوابية التي تجعل من الإنسان مجرد قرد راق لا غاية له في الحياة سوى الرفاهية والمتاع، مسلمة تمثل أساس كل الأفكار القابلة للتلاشي والإلقاء. لابد من محاربة هذه المسلمة ومناهضة الثقافة التي تستلهمها. لابد من غربلتهما لتنقية البيئة الثقافية.

يجب أن نندد بالارتماء في أحضان التفاهات التي تبيعها وتروج لها الحداثة المتاجرة. يجب أن نتحرر من سحر الترنيمة الثقافية الحديثة، التعِسة خلقيا

وروحيا، المتصامة عن سماع أصداء المآسي البشرية، ونكثف جهودنا لمحاربة البؤس في العالم.

كيف أتميز عن الصورة التي تريد أن ترسمها لي ثقافة مجتاحة تقضم حياتي وتحطم إرادتي؟

الفصل السادس

كيف أكون

تكوين وإعادة صياغة

لطالما رددنا في هذا الكتاب أن "تداول الأيام" سنة إلهية تحكم تعاقب العصور والحضارات. ولأن نسبة المسلمين ستبلغ بعد بضعة عقود نصف الساكنة العالمية، فإن الريح ستجري عاجلا أو آجلا لصالحهم. فالحيوية الديموغرافية مؤشر يدل على الحياة كما أن الهرم السكاني المقلوب في الغرب يمثل إنذارا بالموت المحقق.

لكن هذه السنة الإلهية تظل في أعين المتشككين الذين لم يأتهم النبأ اليقين عن التقلبات التاريخية مجرد حلم لذيذ تعوض به الشعوب المستضعفة عن حرمانها. والله هو المهيمن على كل نفس، المتصرف في شؤون الليل والنهار برغم أنف المتشككين. فالعالم الحديث رغم تشككه الظاهري مهتم بالظاهرة الإسلامية المتسارع انبعاثها، لأنه يعلم بحق أن الإسلاميين سيصلون يوما ما هنا وهناك إلى السلطة، ملبين نداء الشعوب المسلمة التي طال انخداعها. وتبقى الجريمة التي طالما رعاها الغرب في الجزائر درسا ربما يمنعه من حياكة مآس فظيعة أخرى.

ما الذي سيصنعه الإسلاميون حين يصعدون إلى سدة الحكم؟ هل سيستنزفون قواهم في استعراضات عميقة للعضلات؟ هل سينهمكون في إغاظة الغرب واعتراض سبيل قوة غرتها وأطغتها إمكانياتها الحالية فغفلت

عما يحمله الغد من خطوب مذهلة؟ أم أنهم سينكبون على إتمام المهمة النبيلة، مهمة تكوين الأجيال الشابة وإعادة صياغتها؟

ستبدأ عملية تسليم الحداثة من داخل الدول القطرية المسلمة، من داخل الحقول التي خربتها اقتصاديا وسياسيا النخب المغربة المستلبة التي يتمرد هواها على منطق التاريخ، والتي سيلحق حتما بعض أفرادها الشجعان بركب التحرير ما دامت حالة كثير منهم غير ميؤوس منها.

وعلى كل حال، يجب ألا يستلهم الحكم الإسلامي الثورية العنيفة التي تبنتها عملية إعادة التأهيل الستالينية أو الثورة الثقافية الماوية، بل يجب أن يدعم الحكم المؤسسي للدولة الإسلامية بتطوع الشعب المجند المنبعث لتكوين وإعادة صياغة شبيبة زالت الغشاوة عن بصرها فشمرت لتبذل الجهد اللازم لإصلاح ما أفسد في جميع الميادين.

ستصبح المدارس والجامعات إذن خلايا فائرة بالأنشطة التربوية، وستسترد المساجد -محارب ومحاضن الإيمان- دورها كمراكز للتربية تشع منها روح الجد والإخلاص لشرع الله بإذن الله.

سيتآزر جهد الدولة وتطوع الشعب لتعديل الكفة وإعادة الفطرة لتتربع على العقول بعد أن أقالتها من وظيفتها وطبيعتها تربية المثاقفة الماكرة. لابد حينئذ أن يتعاون الجميع لافتتاح العهد الجديد وتغيير الذهنيات الفاسدة. سيلزم حينئذ قدر كبير من اللين والمحبة، لكن يد المحبة الممتدة ستكون حازمة.

الفطرة كلمة قرآنية تدل على الأرضية النفسية للكائن البشري. هذه الفطرة، هذه الأنا الباطنية والطبيعة الأولية القبلية الكامنة في أعماق كل واحد منا، هي موطن الإيمان والثقة بالله. لكن إذا ما شوهها المحيط العائلي والبيئة الثقافية فلن تستعيد عافيتها إلا بالمبادرة الحانية لعمار المسجد.

ستسارع الأجيال الشابة اليقظة إلى تلبية النداء. ولأن الطفولة هي الرهان الحقيقي للمستقبل، فسنكون ملزمين بتخصيصها بالاهتمام وتركيز العناية بها حتى نقي الفطرة الطرية لفح الرياح العقيمة.

يجب أن يدرك الإسلاميون أنهم لن ينجحوا في الحكم إلا إذا كان رصيدهم وافرا من المحبة والمودة المتحركتين بدلا من اعتمادهم على ترسانة من القوانين القمعية. يجب أن ينذروا أنفسهم لأم المهمات، مهمة التربية والعناية والمساعدة. سيجدون في الساحة حلفاء ثقات: رجال ونساء مؤمنين بالله، باعوا أنفسهم لله. وستستقبل حليفة أكثر ثقة وأشد اطمئنانا ركبَ المودة الحاني ملبية نداء الفطرة: الطفولة البريئة. إذ يخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مدى قابلية الطفولة للتكون وإعادة الصياغة حسب استعدادها الطبيعي: "**ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**"[1].

يحيلنا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم إلى القرآن ويدعونا إلى قراءة الآية 30 من سورة الروم حيث يخاطب الله عز وجل النبي أولا ثم كل قارئ

(1) البخاري.

للقرآن: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾. الدعوة واضحة هنا إلى الاستقامة الطوعية الخلقية والروحية. لكن التأثيرات الأسرية والاجتماعية والثقافية قد تجتهد في الانحراف بالفطرة السوية، ومن ثم يصبح دور التربية تقويم الاعوجاج الذي أنتجه المحيط الاجتماعي.

لابد إذن من تعاون وثيق بين الحكومة الإسلامية والحركة الشعبية المتطوعة لمعالجة الذهنيات المتجذرة والتراجع بها عن المواقع الفاسدة. لابد من نذر النفس بلا مواربة للمستقبل الإسلامي والتحرك في هذا الاتجاه. لابد من اجتثاث جذور الجمود الخلقي السلبية من نفسية الأجيال المنخورة وإقناع النضال التثاقفي بعدم جدوى استماتته، لأن التربية الهادفة إلى ترسيخ قدم الفطرة في النفوس ستصطدم إلى حين بتربية مضادة غايتها تشويه هذه الفطرة. إلى حين!

الطفولة التعسة

لكن التربية المضادة المشوهة لن تكون الخطر الوحيد الذي يهدد عملية إعادة أسلمة الطفولة ما دام البؤس الاقتصادي والاجتماعي يولد الانحطاط الخلقي والضلال الروحي. لن تجدي إذن محاولة إحلال سلطان الفطرة مجددا وتربية الناس على الاستقامة الروحية والخلقية ما لم تجتث الجذور المادية للداء.

سيظل الإعلان عن برنامج إعادة التأهيل الخلقي إذا لم يواكبه الانكباب على الحياة اليومية للطفولة مجرد نزهة خيالية رائقة. ستتزاحم الأولويات على

باب الحكومة الإسلامية الوليدة، كل واحدة أسبق من أختها، لكن أعجلها ستكون المحافظة على المستقبل وتهييئه بانتشال الطفولة من مستنقع البؤس.

والواقع أن حال الطفولة في البلدان الإسلامية لم ينزل إلى الدرك الذي تعرفه شوارع أمريكا الجنوبية وأدغال إفريقيا المدارية. فأطفالنا الفقراء ليسوا سلعا يتاجر بها، ولا يتم تجنيدهم عند بلوغهم سن التاسعة في المليشيات العسكرية. لكن رغم ذلك، يبقى الخطر يحوم حولهم.

إن مشهد الطفولة العارية المتشردة، ضحية العصابات الإجرامية، مؤثر جدا. فالتلفزة تعرض انحطاط شباب ريو وكلكوتا الذين يهيمون على وجوههم، لاهثين خلف لقمة العيش، مادين أيديهم لعلهم يظفرون ببضع قطع نقدية تمكنهم من شراء ما تطلبه أجسادهم الهزيلة من مخدر بخس.

تظل فظاعة مشهد المجند في عصابة المخدرات مماثلة لفظاعة منظر الطفل الإفريقي المقتاد إلى الحرب، المتأبط للكلاشنكوف، المردد أنشودة الموت. لم نهبط بعد إلى هذا الدرك، لكننا -لا قدر الله- لهذا سالكون!

لم نهوِ بعد إلى هذا الحضيض، لكن شوارعنا آهلة يوما بعد يوم بشباب عاطل، يعاشر ويلوث طفولة لفظها نظام تعليمي عاجز سقيم في ديارنا. لم يعد الصمغ المميت أو ترويجه ممارسة نادرة. أما الترويج الواسع للمخدرات فقد أصبح يشغل أبناءنا، وأصبح أباطرة المخدرات ذوو الصيت الدولي السيئ يوزعون بضاعتهم انطلاقا من بلداننا بل ويصرفونها في أوطاننا.

عوامل أخرى ما تفتأ تنخر كيان المجتمعات الإسلامية. فقد خلفت حرب الرمال ضد صدام مثلا شعبا عاريا من كل شيء: فقر غذائي، أمراض فتاكة، بؤس تام. والأدهى من ذلك أن الطفولة العراقية تهلِك كل يوم بحيث يعيش خمسة وعشرون في المائة منها، حسب منظمة الصحة العالمية، في حالة ميؤوس منها، كما أن ربع الأجيال العراقية القادمة سيعاني من شتى أنواع الإعاقة البدنية أو النفسية.

مثال آخر يتمثل في أطفال الانتفاضة الفلسطينية الذين تعرض مأساتهم على شاشة التلفزة باعتبارها ظاهرة سياسية. لم يَعد منظر الطفل الذي صرعته رصاصات الجندي الإسرائيلي يمزق قلب أحد. كما أن وسائل الإعلام لا تتحدث إلا نادرا عن الوضع المخزي الذي تعيشه الطفولة في ديارنا، بينما هي لا تمل من إدانة "التطرف" و"الإرهاب" المفترض أن يكونا دائما إسلاميين.

شخصان إذن هما مركز العناية الإسلامية: الطفل والمرأة، الأم وطفلها. لأن حماية الطفولة ملازمة لحماية الأسرة ولأن الأسرة هي الأم أولا. لذا يجب أن تكون وضعية المرأة والأسرة أولوية الأولويات في برنامج الحكومة الإسلامية والمنظمات الخيرية. فأي نكسة تأتي من هذا الثغر ستكون إقرارا بالعجز وتقديما للاستقالة.

لا يمكن لأحد أن يدعي القدرة على تعبئة الشعوب المسلمة لنصرة قضية أنبل من قضية المستضعفين في الأرض. ولا مناص لمن أراد أن يحقق العدل من أن

يبدأ بإقراره في بيته. ولهذا يصبح الإنسان في الإسلام عادلا مع نفسه حين يقسط إلى الطفولة، ويعتني بمصيره الأخروي حين يهتم بوضع الطفولة الدنيوي.

فالقرآن الكريم يوصي الإنسان ثلاثا وعشرين مرة بالإحسان إلى اليتيم ويقرن بين هجر اليتيم والتفريط في الإيمان. نقرأ قوله عز وجل في سورة الماعون: ﴿**أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾.

أي أن الإيمان الأجوف الذي يملأ القلوب الأنانية الصماء لا قيمة له في ميزان القيم الإسلامية. مجرد رياء !

أي همٍّ يجب أن يحمله الحكم الإسلامي ويَحملَه التطوع الإحساني لليتيم في هذا العصر الحديث الذي تقوده الفردانية الضارية بدل الإيثار والعواطف الإنسانية؟ لابد أن نولي الاهتمام الأكبر للطفولة اليتيمة المحرومة، المتشردة في شوارع عواصم الجنوب وصُغرى مدنه.

في مجتمع تجديد الدين وتعظيم حرمات الله، لا يكفي أن نضع قطعة نقدية في راحة طفل تعِس لننعم براحة الضمير، كما لا يكفي أن نبني مأوى للأيتام تلمع حيطانه وتديره فرقة من الموظفين المأجورين، لأن واجب رجل العقيدة وامرأة الإيمان نحو الطفولة المعذبة لا يتم إلا بالتجند الشخصي ونكران الذات لخدمة

المستضعفين. والعناية اليومية بالضعفاء والمحرومين لا تكون إلا ببذل الجهد والمال والوقت.

ماذا يعني أن أكون امرأة مسلمة

يتطلع أفراد المجتمع الإسلامي -كما هو الشأن في سائر المجتمعات السوية- إلى الاستقرار والسعادة الأسرية. والمرأة حين تتخذ القرآن دليلها هي محور هذا الاستقرار. ففي سورة الفرقان يعرض الله عز وجل صفات المسلم -رجلا كان أو امرأة- النموذجي ويلخصها في إحدى عشرة خصلة تُتَوَّجُ بالسعادة الأسرية والاجتماعية: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ**

يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾[1].

تلك هي قيمة السعادة الأسرية في الإسلام، وذلك هو دور المرأة المسلمة: أن تكون محور هذه السعادة.

معنى هذا أن "ربة البيت" النموذجية هذه هي نقيض المخلوقة التافهة المقهورة التي تزخر بها مجتمعاتنا المبتلاة بالأمية، المثقلة بالتقاليد الذكورية الجائرة.

فكما أن شرع الله انتشل مِنْ قَبْلُ المرأة العربية في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم من غياهب القهر والمعاناة، أصبح من العاجل اليوم أن نستنقذ المرأة المسلمة المعاصرة -التي فاقت أختها الجاهلية سقوطا- من براثن الظلم والإهمال.

فعصرنا يكاد يكون أقل رأفة بالمرأة من العصر الذي كان فيه الأب المتوحش يواري وليدته التراب !

اليوم أصبحت معاناة المرأة المسلمة مضاعفة، فهي تعيش ممزقة بين الواقع التعس الذي فرضه عليها الظلم الذكوري المحلي والنموذج الغربي المغري بحريته الظاهرية. وهي لذلك تتقمص الطِّراز الغربي والنمط الحياتي المتهتك إذا كانت تنتمي إلى طبقة "راقية" صاغها تعليم فاشل أو تمدرس في مؤسسة أجنبية. أما

(1) سورة الفرقان، الآية 63-74.

باقي الساكنة النسائية فيقعدها الخمول والجهل عن التفكير في أي تغيير ممكن. يبقى أن الإثنتين -المرأة المتحررة والأخرى- لا تعلمان شيئا عن الحقوق التي يمنحها لهما الإسلام الأصيل. أما محجبات الإسلام اللاتي يقلق وجودهن المدارس والجامعات في فرنسا واللاتي يُزحزحن نير الظلم الجاثم في رقابنا فيمثلن طليعة وعي جديد.

للمرأة المسلمة حقوق سلبتها إياها التقاليد الرجعية. فهي حرة في اختيار زوجها، وإلزام خاطبها بشروط تضعها هي (بما فيها عدم التزوج بأخرى)، وطلب الطلاق، والعمل، وتحمل عدة مسؤوليات اجتماعية ومهنية، وكذا التصرف باستقلالية في مالها.

أما حقها في التعلم فلا يخضع لأية قيود، مثله في ذلك مثل واجب مشاركتها في الجهود التي يبذلها المجتمع لتحريرها وتحرير الأمة الإسلامية من العوائق العرفية والانحطاط الخلقي. أي أن لها الحق في أن تكون كائنا آدميا يحظى بالتكريم اللائق به.

تتعدد الحقوق التي يمنحها الشرع للمرأة المسلمة؛ أولها امتلاك الوسائل اللازمة والوقت الكافي لعبادة الله والمشاركة في الأعمال الخيرية الجماعية بعد القيام بالواجبات الشخصية، لأنها في نظر الشرع ليست -كما تدعي الكنيسة- ذلك الكائن الخالي من الروح والمسؤول عن الخطيئة الأصلية، حليف الشيطان ضد الإنسان.

على المرأة المسلمة إذن أن تتعرف على حقوقها، وأن تطالب بعد ذلك بالتمتع بها، لأن أحدا غيرها لن يقوم مقامها في هذا المجال، ولأن أرضية صلبة من الحقوق المادية والنفسية كفيلة بتحريرها من الرق المتوارث وتمكينها من القيام بواجباتها. فانتشال المسلمين مما يتخبطون فيه مهمة شاقة تستدعي تطوع الجميع: النساء جنب الرجال، والجمعيات المنافسة في الخير للجمعيات، لأن التنافس في الخيرات أحد شروط النجاح في الامتحان، ألا نقرأ في سورة الملك أن الله عز وجل خلق الموت والحياة ليبلونا أينا أحسن عملا؟

أما الحكومة الإسلامية فمطالبة بإخلاء الطريق وتذليل الصعاب حتى يثمر الجهد الذي يبذله الرجل والمرأة ولوج ميدان العمل بعزم ومثابرة.

لابد إذن من المساهمة النسائية في القرار الرجالي، إذ لا يمكن أن يعوَّض إحساسها المرهَف وحبها الأمومي الحاسمان في عملية التغيير لكي يتحقق "تداول الأيام". لابد أن توقف اليد الحازمة للحكومة الإسلامية نزيف المجتمع الجريح، لكن لا مناص من اللجوء إلى الحنان النسائي لمداواة الجراح البدنية والنفسية ومعالجتها بالبلاسم الناجعة.

ماذا يعني أن أكون امرأة غربية

رسمنا من قبل المعالم الرئيسية لوضعية المرأة المسلمة ونعرج الآن على تحليل وضع المرأة الغربية.

لو كانت المسَلَّمة الدوابية حقيقة ولم يكن الرجل والمرأة سوى قردين متطورين يعبران هذه الحياة دون غاية لكان من الحيف الشديد أن نمنعهما من أن ينهلا من ملذات الحياة، ولكانت النساءِ جنة الرجل اللائي يطمع بكل مشروعية في التمتع الكامل بهن دون قيد أو شرط. وبما أن هذه المسلمة هي الأساس الذي ينبني عليه تصور وممارسة دور المرأة في الغرب، فإنه -انطلاقا من هذه "الحقيقة" المزيفة واستناداً إلى وضعية المرأة في بلادنا- فإن الحضارة الغربية الدوابية الانحلالية تتيه علينا وتتهم الإسلام بالحَيف والظلم ومعاداة المرأة، وتدين الشريعة الإسلامية باعتبارها غُلا في عنق المرأة.

لنصغ إذن إلى أوروبي غير متحيز ينتقد "ميل الغرب [المناصر للمرأة] في تحليله إلى سلوك طرق يثير اختزالها الاستغراب". يدين فرنسوا بورغا إحدى السبل القصيرة السهلة التي يسلكها الغرب في تحليله الإيديولوجي للوضعية النسائية في الإسلام: "[اعتاد الغرب] أن يختزل حركية كل تعديل للموقف الإيديولوجي في الجنوب ويحصرها في "تعبئة" [ضد النساء]. في غيتو تحليلي تمثله كراهية المرأة "بل التمييز العنصري ضدها، وتلخصه مبادئ تفسيرية مطلقة، فتعرض [على العالم] صورة ملتحين متوحشين يلفون قسرا وجوها لطيفة لفتيات رقيقات بحجاب ثخين"[1].

(1) Op.cit, P.210.

ليتساءل بعد ذلك: "ألا يمكن أن تكون [قضية المرأة] قضية النظرة الغربية للصحوة الإسلامية؟"[1].

علما أن الحكم الحصيف الذي يصدره هذا الباحث العادل لا ينطلق من نفس المبدإ الذي ندين به ولا ينتقد دوابية النظرة الغربية للمرأة، أوروبية كانت أم مسلمة. لكننا نكتفي بالتخصيص الاعتباطي "للغيتو التحليلي" باعتباره تحكيما.

نرافق فرنسيا آخر لنطل على الذكورية الغربية وندرك مدى معاناة المرأة الغربية. يؤكد عالم السكان جون كلود جيسني فيما نقل عنه ميشال جوديه أن "جميع نساء المجتمعات المتقدمة -يابانيات كن أم صينيات أم مواطنات في جنوب شرق آسيا وفي أمريكا وفي أوربا أو مسلمات في أوربا أو في المغرب العربي- يُعانين من مأساة المثقفات اللواتي يحاولن التوفيق بين مسؤوليتهن المهنية وحياتهن الأسرية"[2].

تفوق المرأة الغربية مثيلتها في مجتمعاتنا في مجال التعليم والنشاط الإنتاجي والاستقلال الاقتصادي الذي يقيها غائلة الحاجة، بينما تظل المرأة عندنا تحت رحمة الرجل. لكن هذا التفوق لا يمنع المرأة الغربية من أن تعيش مأساة فردية واجتماعية عميقة.

---

(1) Op.cit, P.210.

(2) Futuribles, N:202, p.p.68-69

تبكي نخبتنا المغربة حالة المرأة المسلمة في بلداننا المتخلفة. ولها الحق، كما للمثقفات المناصرات للمرأة، في إدانة البؤس النسائي الذي يستوطن ديارنا. لكننا نختلف معهم جميعا بعد ذلك.

فهم ينصحون بتدارك "التخلف التاريخي" لمجتمعنا عن ركب المجتمعات الغربية. ونرى نحن أن المحاكاة العمياء للحضارة الغربية إضافة إلى التيه الروحي الذي ينتج عنها تقودنا مباشرة إلى المأساة الاجتماعية والأخلاقية التي تعاني منها المرأة في البلدان المتقدمة. وليلزم "معزله" من شاء !

فلا يعدو "التقدم" المزعوم الذي تتشدق به مناضلاتنا المغربات أن يكون طُعما خادعا. وأي تقدم هو ذاك الذي ينزع المرأة من براثن الرجل الفظ ليلقي بها فريسة سهلة بين مخالب الرجل، مجردَ متاع يتلذذ به الرجل، دميةً مزينةً، دميةً من شمع، دمية من تبن !

أما النزعة الطبيعية للمرأة فتعاني الكبت في المجتمعات المتقدمة، بل إنها تتعرض للاغتيال الممنهج الذي لا تعوزه الأعذار الاقتصادية والثقافية.

إن كل امرأة تعتز بإنسالها للنوع البشري وبتأمينها استمرار الجنس البشري. ولذلك تفقد المرأة توازنها حين تختل لديها هذه الوظيفة أو تتلاشى، بل ينهار المجتمع الذي تعيش فيه. تلك مأساة المرأة المعاصرة التي سيصفها بعد قليل أحد المتخصصين.

لكننا نتساءل قبل ذلك: ما معنى أن تكون المرأة أما في الإسلام؟

يروي البخاري ومسلم أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله: من أولى الناس بصحبتي؟ أجابه الرسول صلى الله عليه وسلم: أمك. فأعاد عليه السؤال مرتين ليتلقى نفس الجواب. ثم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن سأله للمرة الرابعة: أبوك. تقدير تحظَى به الأم في الإسلام الذي حماها طفلة وكرمها امرأة وزوجة.

أما الملاحظون الغربيون والمناضلات المتثاقفات، من يتباكى منهم ومنهن مسبقا على الوضع المأساوي الذي تعده الحكومة الإسلامية القادمة للمرأة فإنهم يجهلون تماما تعاليم الإسلام وعنايته الفائقة بالنساءِ مهما بلغ سنهن. علما أن رعايته للأمهات متميزة، لأن الأم هي رمز الحياة، والحياة مقدسة في الإسلام. بل إن دائرة هذا التكريم تتسع لتشمل الأم غير المسلمة. ولذا، حين زارت بنتَ أبي بكر أمُّها الباقية حينئذ على شركها، استشارت النبي صلى الله عليه وسلم فأمرها عليه السلام بحسن استقبالها وإكرام وفادتها.

ماذا يعني أن تكوني أمّا عاقة

ينتقد ح.ك شيسني وضعية المرأة في المجتمعات المتقدمة انطلاقا من اعتبارات نفعية خالصة، نلاحظ نحن وجاهتها ونستلخص العبر منها. نتبع إذن هذا الدليل الذي لا تلهمه محبة الإسلام أو هم الدفاع عن الشريعة الإسلامية حتى نرى كيف تصبح المرأة أما عاقة، وندرك لماذا تخنق وظيفة الأمومة في المجتمعات المتقدمة. قال

صاحبنا: "تعيش المرأة العاملة في الشركات الغربية تجربة الحمل يرافقها شعور بالذنب سببه إحساسها أنها تعوق الاشتغال الطبيعي لأداة الإنتاج، كأن الحمل جريمة أو خطأ مهني، بل كأنه خيانة للمشغل أو غدر به"[1].

لذلك تحتاج نساؤنا المغربات اللواتي يَستمتن في تحديد هويتهن تشبُّها بالنموذج الذي يرثي له الكاتب أكثر من غيرهن إلى "الثورة الذهنية" التي يدعو إليها كاتبنا. قال: "علينا أن ندين هذا التوافق الضمني، العبثي، الانتحاري الذي يرتضيه اليوم الشركاء الاجتماعيون، والمتمثل في المجمعة socialisation المتزايدة لتكلفة الشيخوخة والخصخصة المتنامية لتكلفة الشباب. فأي منطق يفرض رعاية النشطاء القدامى المتزايد عددهم من طرف الجماعة؟ وأية مبادئ –غير المبادئ الماضوية– يجعل التكافل بين الأجيال صاعدا فقط (من نشطاء اليوم إلى نشطاء الأمس) لا نازلا (من نشطاء الأمس إلى نشطاء الغد)؟ فالأجيال الصاعدة تتحمل وحدها عبء إعداد المستقبل؟"[2].

يبرهن عالم السكان الفرنسي إذن على العبثية الانتحارية التي تميز تنظيما اقتصاديا يمتنع –انطلاقا من حسابات دنيئة هدفها الاستغلال البشع لقوة العمل النسائية– عن تحمل تكلفة الحمل، ويقوض بإدانته للمرأة الحامل دعائم المجتمع. فالعواقب الوخيمة لمثل هذا الموقف أصبحت أكثر وقعا وستتزداد، وشيخوخة

(1) نقلا عن M.Godet, Futuribles, n° 202, P.69

(2) نفسه، ص 70.

الساكنة المقترنة بالمطالبة النقابية بتقليص عدد ساعات العمل ترسم في الأفق معالم أزمة عظمى. كما أن التكافل بين الأجيال يصطدم بأنانية الشركات، وبمأزق البطالة الهيكلية المتمثل في المطالبة بالتقاعد المبكر والتحجيم المتدرج لقوى العمل الشابة القادرة على تمويل هذا التقاعد.

ويضاعف معدل الحياة المتزايد ثقل مسؤولية النساء نحو المسنين، كما يهدد الانخفاض التدريجي لنسب الولادة هؤلاء المسنين بالتشرد حين ينعدم الجيل الصاعد الذي ينتج ما يكفي من الثروات لتمويل الصناديق الاجتماعية.

لا يمكننا إذن أن نخطط لمستقبلنا تشبُّها بالأصناف الاجتماعية التي يتكون منها الواقع الغربي، لأن الآثار الروحية للتثاقف وخيمة على شخصية المرأة ومصيرها الأخروي، ولأن وضعية المرأة الحديثة يمكن أن تنتج آثارا مدمرة للمجتمع الإنساني.

حقا، ماتزال مشاكلنا مختلفة عن مشاكل المجتمعات "المتقدمة"، لكننا مدعوون إلى الاتعاظ بما حدث لها حتى لا نسقط في نفس المأزق. إنَّ التشوه السكاني للمجتمعات "المتقدمة" مناقض تماما لتشكل هرم الأعمار ذي القاعدة الشاسعة عندنا، إلا أن منطق التطور وصعوبة التحكم في الولادات الناتجة عن انبهار نسائنا بالنموذج الغربي سيقودنا حتما إلى وضع مماثل. لذا يجب ألا يهدف مشروع مجتمعنا إلى أن يصبح حاضر الآخرين مستقبلنا.

ويعزو دليلنا في الصحراء السكانية الغربية تبعية المسنين وضياع الأجيال الشابة إلى التشوه الدمغرافي، فبِسَبَبِ هذا الأمر الواقع "ستتقلص شبكة الطاقات التي تمد المسنين بالعون، متسببة في طلب كثيف للخدمات العامة[...] وشيئا فشيئا، سيصبح من النادر جدا أن تلزم امرأة في الخمسينات بالعناية في آن واحد بأطفال بالغين [عاطلين] وبجيلين من الأسلاف"[1].

لقد انحرفت نوازع المرأة عن اتجاهها الطبيعي لأسباب اقتصادية، وساهمت الإباحية الجنسية اللائقة بمن يعتبر نفسه قردا عاريا في تحصيل غلة اجتماعية مسمومة: اختلال في العلاقات بين الأجيال الصاعدة ونظيراتها النازلة بسبب انعدام الاستقرار الأسري الناتج عن غياب الأم البارة.

فحين تتخلى المرأة –أساس المجتمع– عن وظيفتها لتصبح مجرد أداة للإنتاج ومنتوجاً للاستهلاك، تسود الميوعة والانحراف. ولا عجب في ذلك، فـ"نسبة انحراف أطفال الأسر التي تفقد أحد الوالدين تبلغ – حسب غوديه– ضعف نسبة الأطفال الذين يعيشون في كنف أبويهم"[2] لأن الأسرة التي يغيب فيها أحد الوالدين تعني رباطا هشا بين زوجين، أو طلاقهما، أو أطفالا ولدوا من سفاح. ليختم غوديه مقاله بنبرة متشائمة:

(1) نفسه، ص 71.
(2) نفسه، ص 71.

"حقا، تبذل الجهود لتحرير القِران بل لتدعيم العزوبة الأبوية[1] الأكثر جاذبية اقتصاديا وماليا من الزواج، فالأرقام في فرنسا مهولة: أكثر من ثلث الأطفال يولدون خارج الزواج وأقل من نصف النساء اللواتي لم يبلغن الخمسين متزوجات. [الثلثان سنة 1986]".

ثم ينهي كلامه بصرخة الضمير هاته: "ماذا ننتظر لتقديم التشجيعات التي يستحقها الالتزام بالزواج من جديد؟ إن غياب هذه السياسة التطوعية ستجعلنا نستمر في الحديث عن العائلات التي يعاد تكوينها من أجل ستر حقيقة تحلُّلِها وموتها المبرمج، وذلك عندما لايبقى لدينا أطفال يضمنون استمرار النسل"[2].

ما بعد الحداثة، ما بعد الأخلاق

تعتبر الحداثة الملحدة القيود الجنسية والأسرة –القيمة الاجتماعية المركزية– انضباطاً عفَّى عليه الزمن. ففي المجتمعات الحديثة الإباحية يعتبر كل انضباط من هذا النوع تدخلا لا يطاق في حرية الأشخاص، بل تزمُّتا قمعيا لا يناسب عصرا تخلص من إرث الأديان المتشدد.

أترك المجال للغربيين ذاتهم ليشرحوا لنا كيف يكون عصر ما بعد الحداثة، بل كيف لايمكنه إلا أن يكون: عصرا لما بعد الأخلاق.

(1) أي عدم تحمل الفحول لأية مسؤولية حين تهجر أدعياءها في حجر أمهاتهم.
(2) نفسه، ص 72.

يبحث جيل ليبوفتسكي، الفيلسوف وعالم الاجتماع، عن توفيق بين منطق الماضي الصارم والمتجاوز والأخلاق المتساهلة الإباحية. فلنُصْغِ إلى حواره مع أفكار هذا الزمن الحائر المحير الذي لا تجرؤ فيه حكمة الفيلسوف على تخطي حدود ذرائعية "أنيقة" يستسيغها الذوق السياسي.

كتب جيل ليبوفتسكي ما يلي: "المرحلة التاريخية من تاريخ الأخلاق -مرحلة أسميها "ما بعد الأخلاق"- تقطع وتصل في نفس الوقت صيرورة العلمنة المنطلقة من القرنين السابع عشر والثامن عشر. ونعني بمجتمع ما بعد الأخلاق المجتمع الذي يدغدغ أكثر من سابقيه الرغبات والأنا والسعادة والرفاهية الفردية أكثر مما يقوي فضيلة التضحية وإنكار الذات.

"لم تعد ثقافتنا خاضعة لضروريات الواجب الشيوعي المطلق بل للسعادة والواجبات الذاتية، أما ثقافة التضحية التي كانت سائدة إلى حدود منتصف هذا القرن فقد تم التخلص منها".

"توقفت مجتمعاتنا الاستهلاكية التواصلية عن التمجيد المنتظم للوصايا الصعبة. وأصبحت منذ الآن تشتغل خارج دائرة الواجب، خارج نطاق الفريضة الأخلاقية الصارمة والمنضبطة. ذلك هو عصر ما بعد الأخلاق، عصر الديموقراطيات الجديدة"[1].

(1) La société en quête de valeurs, Op.Cit, P.25

نلاحظ أن الكاتب يعارض الحقوق الفردية بالواجب الجماعي، والأنانية بالإيثار، والسهولة بالانضباط، والشهوة المطاعة بالتضحية والبذل. تلك هي سمات مجتمع لم يعد يملك قدوة، مجتمع أفراد ليس لهم مطلقٌ يستقطب آمالهم. فمجتمعات ما بعد الأخلاق مجتمعات فقدت دعائمها الأخلاقية، مجتمعات بلغت منتهى التقدم التطوري الذي تجاوز كل خلق ليقترب تدريجيا من السلوك الفرداني. القرداني!

لنصغ مرة أخرى إلى محللنا:

"بعبادتها للذة والمنفعة، تساهم مجتمعات ما بعد الواجب في تحلل أشكال تأطير الأفراد وتحكمهم في ذواتهم، وتشجع النتائج العاجلة بينما تدمر الإحساس بقيمة الجهد [المضاربة بدل الإنتاج]، وتحرض على التمرد على المبادئ الخلقية [رشوة، مكافآت سرية، تلاعبات مالية. ففي الولايات المتحدة يتهرب كل مطالب بأداء الضريبة على الدخل من القيام بهذا الواجب].

"وبينما تنهار المؤسسات التي تقوم عادة بوظيفة التحكم الاجتماعي [الكنيسة، النقابة، الحزب، الأسرة، المدرسة]، تتشكل غيتوهات حول الأسرة الغائب أبوها أو حول الأمية أو تجارة المخدرات أو العنف أو الانحرافات الخطيرة. هكذا أصبح عدد كبير من الناس يؤمنون بأن عصر ما بعد الحداثة يفرز فردانية لا يحكمها أي قانون، فردانية "تائهة"، متحللة، لا مستقبل لها" [1].

تشاؤم وخيبة أمل؟ أم حصافة فيلسوف حكيم؟

(1) نفسه، ص 26.

تبقى هذه الشهادة ذات أهمية كبرى بالنسبة إلينا نحن القابعين في غيتو تخلفنا، نحن المعانين أمراضاً مشابهة يزيدها حدة بؤسنا المادي. فهل يمكننا التداوي من عللنا القاتلة بمجرد الاتباع الأعمى للنموذج الغربي الذي نعرض هنا نمط حياته على لسان مفكريه؟ أم أننا سنتشبث بمثلنا، بحقيقتنا، بغايتنا، رغم وجودنا في حداثة غنية الوسائل، عارية من كل معنى؟

ليس غرضنا أن نتعلل بمطالعة أمارات غروب حضارة كافرة، بل غرضنا أن نستخلص العبرة منها: أن شهادة الغربيين على أنفسهم دليل على أن حضارتهم تكفل لهم ولهم وحدهم حرية التفكير والتعبير التي تمثل قيمة ثمينة نغبطهم عليها!

ويتقدم عالم الاجتماع والإناسة والأحياء، الفيلسوف إ.موران بعد مطاردته اليائسة للمعنى باقتراح متواضع: تضامن أخوي بين بني البشر، مجتمع عالمي بدل مجتمع ما بعد الحداثة المتحلل، ما دامت المجتمعات المنعوتة بالتقدم تسير دون حافز سوى تلبية الأنانية والتمتع الفرداني، مجتمعات مفككة فقدت رابطة المحبة وعانت في نفس الوقت من التشتت الفكري.

ينهمك حكماء الغرب في البحث عن أخوة وتضامن إنسانيين كفيلين بإنقاذ البشرية من الكارثة، ويطرح موران فكرة التغيير أو الإصلاح، بما أن الشمولية الإيديولوجية الثورية لم يعد لها أي دور في حقل التصور المتخبط في تعقده وتخصصاته المفرطة. لم يعد للإنسان باعتباره قيمة لنفسه وللآخرين أي

وجود كما حدث "للإحساس بعمق وحدة المصير التي تربط بين وحدة التضامن والأخوة[...] فالمجتمع البالغ التعقيد يمنح أفراده وجماعاته عددا كبيرا من الحريات ومن الملاهي، ويمكنهم من الإبداع، بل أحيانا من الانحراف[...] لكن حين يبلغ التعقيد مداه، يتفكك المجتمع لا محالة. لذا يمكن اللجوء إلى التدابير السلطوية لتفادي هذا المصير. لكن إذا أردنا ألا يتجاوز الإكراه حدوده الدنيا فلابد من الاعتماد على اللحمة الوحيدة الباقية، لحمة الإحساس بالتضامن المعيش"[1].

مطلب رائع! لكن من أين سينبثق هذا الإحساس؟

الواضح أن العالم الفيلسوف، المحترف لتجارة الأفكار، يطلق صرخة منبعثة من القلب، نذيرة لبني البشر: كيف السبيل إلى إيقاف الدوامة التي تلف الإنسان العابث بحرية، دون اللجوء إلى "التدابير السلطوية"؟

هل هي حيرة الفيلسوف الاجتماعي -موران- المتحول إلى مذهب الإصلاحية أم أنه انتقاد للثورة الماركسية خصم البارحة اللدود؟

الدين والعزلة الحديثة

ليس المفكر المتمرس ومؤسس "علم اجتماع الحاضر" -موران- الوحيد الذي ينهمك في البحث عن المبدإ الموحد الكفيل بلم الشتات الفرداني.

(1) نفسه، ص 231.

فآخرون من ذوي الاهتمامات الفكرية المتنوعة يعبرون عن القلق المستبد بمجتمعات ما بعد الحداثة المشتتة، وينتقدون مجتمعهم بألفاظ أقل اعتدالا.

فأستاذ السياسة جون ماري جيهينو ينذر بنهاية الديموقراطية والسياسة، ويصرح بحتمية عودة الدين إلى الواجهة، معتبرا مثلا أن "دين العهد الإمبراطوري يرث الوظائف التي كانت الأمة تضطلع بها في العهد المؤسسي، فيفرق بدل أن يوحد[...].

في عالم التماثل والتجانس، يمكننا الدين من الإفلات من قبضة التجريد العالمي والعثور من جديد وسط أرخبيل العزلات الحديثة على الإحساس بتميزنا"[1].

يخاطبنا فكر جيهينو مباشرة لعلنا نستطيع في النهاية تحديد الغاية من تسليم الحداثة، واتخاذ التدابير الإجرائية لتحقيق ذلك. لنلق إذن السمع إليه حتى نحس برعشة الأمل في حياة جماعية ذات طابع إنساني، حياة نفر إليها من زحمة ما بعد الحداثة التي تُذَوِّب شخصيتنا.

إننا نحس أيضا بقوة رفض هذا المفكر للقيم التجارية الرائجة في سوق الحداثة، ولا عجب ! فقد استطاع أن يلفظ العهد "الإمبراطوري" بعد أن زالت الغشاوة عن عينيه وأدرك حقيقة "التجريد الكوني" و"العولمة". لكنه يبدو يائسا من إمكانية التغيير، إذ لا أحد اليوم يجرؤ –باستثناء نخبة من الناس– أن يعلن عن موقفه المحافظ مادام لا يطمئن إلى وجود مبادئ يَستحق المحافظة عليها.

(1) La fin de la démocratie, éditions flammarion, 1995, P.P.130-131

"كل الناس يقرون بأن التغيير هو القانون السائد في العهد الإمبراطوري ومبدؤه المحرك لكنهم يدركون أيضا أن البشر لا يمكن أن يتحكموا في هذا [التغيير]"[1].

هؤلاء البشر الذين يؤرقهم التغيير، القلقون، العاجزون عن كل تغيير، يتخبطون في مشاغلهم التافهة الجوفاء، العارية من كل مبدإ، الخالية من كل غاية، " لأن إنسان التنظيم لا يقدر أن يسمح لنفسه باتخاذ مبدإ معين، بل هو ملزم بأن تكون له أفعال انعكاسية فقط. ورغم أن ثقته بالناس ضئيلة فإنه يحاول أن لا يبدو وقحا لأنه ملزم بتدبير خوائه الباطني بكل مهارة.

"إنه مجبر -باعتباره إنسانا يفتقر إلى المعنى- على أن يصبح مجرد علامة تعيش في عالم العلامات الخالية من الدلالة[...] فيتحلى بصفات واضحة تلحقه بقطيع محدد الهوية: إما لاعبَ طاولة، أو متسلقَ جبال، أو لاعبَ غولف. المهم أن يكتسب بواسطة الرياضة التي يمارسها أو السيارة التي يملكها أو النادي الذي ينتسب إليه أو الدين الذي يعلنه مُزَعا من هويته، خشيباتٍ متناثرة يتقاذفها التيار العام، ويتشبث بها غرقى العالم الحديث"[2].

ولأنه لا يعثر على مكان يجتمع فيه بغيره فيما عدا النوادي التي يلتقط فيها بضع "مُزَعٍ من هوية". ولأنه لا يجد أرضية صلبة تنغرس فيها جذوره، ويفر

(1) نفسه، ص 113.
(2) نفسه، ص 114.

إليها من رمال التغيير المتحركة، الخالية من كل معنى، فإن إنسان ما بعد الحداثة يملأ خواءه الباطني وأوقاته الحرة بانتسابه إلى طائفة دينية أو ناد موصل بشبكات الاتصال الدولية، هذا إن كان من الذين ينتقون انشغالاتهم.

إنسان موصل أو متصل دائما بمراسلين مجهولي الهوية والعدد، غارق في لجة من الصور والمعلومات، مجهز للتردي في مهاوي الضجر المخيم على المعتزلات الإلكترونية والإبحار العشوائي والتنقل من موقع إلى موقع في صحراء متعدد الوسائط الباردة، المزدحمة.

أين نعثر على تلاحم حقيقي بين القلوب؟ أين نجد مجتمعا متراحما تدفأ في كنفه القلوب؟

من بعيد، يراقب مفكرنا الغربي الصحوة الإسلامية محاولا أن يصدر عليها حكمه انطلاقا من اهتماماته الذاتية، دون أن يقدر على التخلص من الأحكام الجاهزة والأفكار القبلية.

فهو تارة يعتبر "الأصوليين" المسلمين مجرد "حِرَفِيِّي أفكار" تعوزهم المبادئ والبرامج. وهو تارة يراهم مجرد لصوص متمرسين بأساليب الاختزال الحاسمة. لكنه رغم ذلك يرصد لديهم بعض مكامن القوة.

ف"الأصوليون الإسلاميون، مثل الأصوليين الهندوسيين، يسربون طاقتهم الكاسحة إلى مجتمعات زلزلتها الصدمة الهوجاء التي أحدثتها الحداثة الاقتصادية. لهذا نصاب بالذعر كلما لاحظنا التناقض بين خيبتنا وسأمنا

وبين الحزم الثوري الذي يتميز به الإسلاميون. كأن التيار الإسلامي يمكن أن يمثل -بعد موت الشيوعية- مشروعا سياسيا شاملا جديدا، مشروع يزيد من خطورته تلاشي إيماننا بعالميتنا الديموقراطية".

وكما أن شاهدنا لا يخفي ضجر مجتمعات أوربا الهرمة، فإنه يعترف بالخوف الذي يبعثه فيها شباب الإسلام الفوار، ثم يعرض أسباب وآثار التناقض الذي تعيشه هذه الوضعية التاريخية، مواصلا نقده المزدوج:

"ربما تكون السياسة قد لفظت أنفاسها في المجتمعات الأكثر غنى، لكنها قد تعرف ولادة جديدة مندفعة من رحم الدين عند الفقراء الذين همشهم عصر العلاقات المدمجة"[1].

ويستلهم ناقدنا عند تقديره لطموح المسلمين ضحايا الظلم الإمبريالي حركة الاحتجاج الإسلامي فيقول: "سيكون وقع هذا الطموح -المبني على واقع فشل السياسة من جهة وفشل المزاوجة بين السياسة والدين من جهة أخرى- على الإسلام أشد من وقع الإصلاح البروتستانتي على النصرانية. إذ أنها ستظل تطبع التاريخ بقوة"[2].

(1) نفسه، ص 125-126.
(2) نفسه، ص 127-128.

وإذا كانت هذه المقارنة السطحية تمكننا من التعرف على الوضع في مجتمع ما بعد الحداثة، فإنها لا تتردد في انتقاد المشروع الإسلامي الطموح، فلنستنطق إذن مرجعياتنا، أنوارنا الحقيقية !

جهل وعنف

تحتوي كلمة الجاهلية معيارَ التمييز بين الإسلام وضده، وتتكرر في القرآن أربع مرات، حاملة على الكفر وعلى الحكم الفاسد وعلى إذلال المرأة وعلى هياج القبلية الجاهلية الفتاك منددة بها. وبما أن لكل عصر شكلا خاصا من القبلية والكفر والحكم الفاسد والفسق والظلم، فإنني أنطلق من جذر الكلمة لأترجمها بلفظين متلازمين: جهل وعنف.

فالجاهلية تسكن كل مكان يشهد جهل الإنسان عِلّةَ وجوده وغاية وجوده، وكل مجتمع (سواء سمي أم لم يسم كذلك) لا يحتكم إلى العدل، أو ينحط بالمرأة، أو يحكم الدوافع الغريزية الهائجة بدل العدل لحل خلافاته.

أسْتفسِر القرآن الكريم والسنة النبوية لأميط اللثام عن معرفة اللاعنف وواجب اللاعنف. وأشير إلى أن كلمة "علم" المفردة لا تحمل نفس دلالة الكلمة التي استعملتها لحد الساعة حين كنت أتحدث عن العلماء الفلاسفة الطليعيين الذين اكتشفوا أن مختلف يقينيات الواقع المحس لا تلبث أن تتبخر حين تلفحها شمس النظرية المحققة، والذين رضوا بالتحسس المتردد حين يئسوا

من إمكانية الثقة بوسائلهم لبلوغ معرفة يقينية، متنقلين من حقل علمي إلى نسق فلسفي، باحثين عن حقيقة مطلقة لا تفتأ تتفلت من قبضتهم. أما نحن الذين من الله علينا بالإيمان –ولله الحمد– فنتحدث عن العلم والمعرفة لنعبر عن الحقيقة الموحى بها، منطلقين من مبادئنا، مستعملين جهازنا المفهومي الذي حدده القرآن الكريم.

السؤال، أخي العزيز، أختي العزيزة، لا يتعلق بالمعرفة التي يمكن للوحي أن يمنحها. بل يتعلق بمعرفة مدى استعدادنا لفتح مغاليق عقولنا، وتخصيصنا الوقت اللازم لإلقاء السمع بالتحفز الذي يبعثه فينا القلق الوجودي الملامس لقلوبنا. أما إذا كنا من الذين حددوا خيارهم النهائي واقتعدوا مجالسهم في محاريب أنانيتهم فلا فائدة من التأنيب والإلحاح والترجي.

إذا اعتبرنا أنفسنا مجرد يعاسيب عابرة، ورضينا بأن نكون مجرد صدَفة فارغة، فلن تكون محاولتنا حمل أنفسنا على قراءة القرآن سوى تعميق لضجرنا الداخلي. رغم ذلك لن أمل من الإلحاح، لأن الرحمة الإنسانية والإحساس بثقل الأمانة التي يحملها كل مسلم يقظ لن يدعا لليأس إليَّ سبيلا.

إن العلم الذي يلقنه القرآن وتلتقطه الفطرة بكل يسر هو أنني لست هنا بمحض الصدفة، وأن وجودي ليس عبثا. والعلم القرآني يلقي إلي بالنبإ العظيم الذي يحتوي حياتي ويرافقها منذ ولادتي إلى حين عبوري من هذه الحياة العجلى فوق الأرض إلى الحياة الباقية لأحاسب على أعمالي فأنعم أبدا أو أشقى أبدا.

قد تثير بساطة هذا العلم وتواضع -أو بالأحرى طموح- النبأ سخرية العقول الشامخة المنكفئة على الإعجاب بنفسها. تجرؤ على الحديث عن هذه الأمور إلى عقول راسخة متينة! يا للسذاجة! بل يا للبلادة!

حادة هي أنياب المتشككين.

أما الامتثال الجبان لقيم الغرب وثقافته وأوامر حضارته ونواهيها فسيُقيم حواجز صلبة لصد تيار هذه "الأدبيات الرديئة". إلا إذا انبثق عن الظمإ الروحي وخيبة الآمال التي يعبر عنها العقلانيون اليائسون من العثور على معنى للحياة والموت كائن قادر على التعجب من وجوده، متطلع إلى التحرر من محبسه الثقافي الضيق.

عندئذ لن يبقى للنقد المرتاب أي بريق، وسيكون تبلد الطبائع الصدئة المرتمية في أحضان الوجود الحيواني الذي لا يستفزه أي قلق وجودي المسؤول الوحيد عن استماتة الجهل العنيف في المجادلة.

أما البعبع الإسلامي الذي ترسمه لنا مخيلتنا أو يرسمه جبننا فهو مجرد شبح يحرس مدخل الكهوف المرعبة. والحجة التي تمثلها الحروب القبلية في أفغانستان والمذابح الفظيعة المنسوبة ظلما إلى الإسلاميين في الجزائر هي أهم وثيقة في ملف المتداعين على الإسلام: دعوى مزيفة في محاكم الغرب أمام قاض هو الخصم والحكم، ووكلاء مرشيين، ودفاع صوري مستقيل.ثم يصدر

الحكم النهائي: أن الإسلام هو المدان الأكبر، أن الإسلام تعصب، وظلامية، وإرهاب. وأصون سمع القارئ عن نعوت تصدرها عدالة شوهاء قاسطة.

تُبَرَّأ ساحة الغرب الذي حرك جيوشا عملاقة خلال الحربين العالميتين، والذي أذِن بتشغيل السلاح النووي، والذي يزدهر جزء من اقتصاده بفضل تجارة الأسلحة. وتوجه الأصابع إلى الإسلام –كبش الفداء– تتهمه بالعنف كلما افرنقعت رصاصة في جهة ما من العالم.

المسلمون –سواء كانوا مواطنين في بلدان إسلامية أو أفرادا في قبائل مسلمة– ليسوا أول من يخرق التزاماته، ولن يكونوا آخر من يخون مبادئه. ولست أحاول هنا أن أدافع عن الأعمال الذميمة التي يقوم بها رجل يائس (أو تنظيم يعلن أنه إسلامي) انتفض بعنف ضد وضع جائر واتضح فيما بعد أنه مسلم، لأن العنف –سواء أضفِيت عليه الشرعية أم لا– ليس مبدأ من مبادئنا.

إن عدم استعمال العنف مبدأ لا يناقش في الشريعة الإسلامية، ولا نخجل نحن من إعلانه. لكننا ننبه إلى أن النضال السلمي الذي خاضه غاندي والذي أثبت فاعليته سياسيا، وطِيبَة النصراني الذي يدير ببلاهة خده الأيسر لمن صفعه على خده الأيمن لا يطابقان المبدأ السلمي الإسلامي. فالدفاع عن الرسالة مبدأ مقدس آخر لا يعارض السابقَ، بدليل الحرب التي شنها النبي صلى الله عليه وسلم طيلة ثلاث عشرة سنة على الهياج القبلي، والتي جسدت نموذج اللاعنف الإسلامي. فقد خاض النبي صلى الله عليه وسلم أو أدار بمهارة وإتقان خمسين مواجهة،

مَنَحَنا من خلالها المثال على المدافعة الصلبة لكل اعتداء، دون ضراوة ولا إفراط. وكانت النتيجة أن عدد ضحايا هذه المواجهات بأجمعها لم يتجاوز تسعمائة رجل في المعسكرين سقطوا في ساحة القتال. ثلاث عشرة سنة من الحروب بتسعمائة قتيل!

أما الأسرى فكانوا يطلق سراحهم لقاء فدية أو بدونها. لم يقتلوا أبدا ولم يعذبوا. وكان العفو مصير النساء والشيوخ والأطفال الذين كانوا يعاملون بكل إنسانية. كان النبي صلى الله عليه وسلم ينهى عن عَضْد الشجر وإتلاف النبت، أي بالتعبير العصري إلحاق الضرر بالبيئة.

حقا لم تكن في ذلك العهد قذائف ستالين قد وجدت، ولا الكلاشنكوف الحصادة للأرواح. لم يكن هناك سلاح قادر على تحريق مدينة تسكنها الملايين في طرفة عين. لم تكن هناك أسلحة كيماوية تتلف البيئة لعدة عقود وتترك آثارها المدمرة في مورثات الضحايا. لم توجد في عصر الإسلام التقنية الحديثة التي تستميت زماننا هذا يوما بعد يوم في صناعة الموت.

لكن الذي كان منعدما حقا في قلب النبي الرحيم صلى الله عليه وسلم وقلوب أصحابه هي تلك الحمية الجاهلية التي تحرك اليوم جنون العنف الحديث: فكل عشرين دقيقة تمر اليوم تشهد انفجار لغم مضاد للأشخاص في وجه طفل أو فلاحة من بلدان الجنوب. ألغام يبلغ عددها حسب المختصين أكثر من مائة مليون مدفونة في تربة البلدان الفقيرة الممزقة مثل أنغولا أو الموزنبيق أو الكمبودج،

بينما لا يوجد لغم واحد تحت أرض البلدان المنتجة التي تزخر مخازنها بالملايين المعدة للتصدير منها.

والجنون الأهوج للعنف الحديث مصحوب بالجهل الذي يغشى العقول ويحول الإنسان إلى ذئب بالمرصاد لأخيه الإنسان. فالعلوم الحديثة المنتجة للتكنولوجيا الفعالة –مهندسة أدوات الموت– مسخرة لخدمة الجهل الجاهلي. أما الجاهلية القديمة التي عاصرها النبي صلى الله عليه وسلم فلم تكن تتوفر على الترسانة الضخمة التي يملكها العنف الحديث المبدع.

أمرنا نبينا صلى الله عليه وسلم بلزوم الرفق وأخبرنا في عدة أحاديث كما في حديث مسلم أن "الله حليم يحب الحلم ويعطي على الرفق ما لا يعطي على الشدة".

كلمة "رفق" الغنية بدلالاتها تتطلب ترجمتها استحضار كل مفاهيم القرآن والسنة، إضافة إلى المثال الحي الذي قدمه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في سيرتهم. سيكون من الوجيه إذن أن تلجأ الترجمة المفسرة إلى مقابلة لفظ "الرفق" بالكلمات التالية: الحلم، اللين، السماحة، الطيبة، العطاء، العفو، الشفقة.

ما السبيل إلى أن أعيش كريما

اقتداءً بالرفق النبوي واتباعاً لتعاليمه صلى الله عليه وسلم يجب على الحكومة الإسلامية أن ترسم سياستها في العالم وبرنامجها لإصلاح المجتمع

المسلم وتجميع شتاته. ومع الحزم الضروري لكل تغيير تتكفل الشفقة والتفهم بتليين الحواشي وصيانة كرامة الإنسان. إن الأدمغة المؤهلة المجفلة مما يقع في الجزائر المتداولة سراً وجهراً قد تراودها فكرة لم الأمتعة تحسبا لاعتلاء الإسلاميين سدة الحكم.

في ظل الحكومة الإسلامية يجب أن يجد جميع أبناء وبنات الأمة الإسلامية فضاء محميا تتفتح فيه مواهبهم وتقدر مساهماتهم. وباستثناء مروجي البهتان المغرضين يجب أن يُقَيَّم كل ذي نية سليمة حسب كفاءته وليس حسب ماض وَلَّى. يجب أن يبَصِّرَنا الجهد اللازم للخروج من النفق الضيق بضرورة المحافظة على جميع مواردنا البشرية لأَنَّ المسافة شاسعة بين النوايا المبدئية والعمل المحكوم بالطوارئ.

فالفكرة الأولى التي تسكن النفوس الغازية المنتقمة هي فكرة مطاردة أعداء الأمس تَلبِيَةً لِشَهْوة تُضَرِّم نارَها الأحقاد. وهي فكرة يجب أن يفر منها أصحاب المشروع الإسلامي فرارهم من الطاعون. لذا يجب أن تسطر الصفحة الجديدة بمداد العفو والتجاوز. ويكفينا مثال الرسول صلى الله عليه وسلم حين عَفَا يوم دخوله مكة فاتحا عن الذين آذوه وحاربوه من قبل. لنصابر ونفاوض العقليات المتمردة التي يستهويها العنف وليتمكن كل واحد من تغيير ما به واللحاق بركب التجديد وإعادة البناء.

أما المثال السيِّئ، المثال الشيطاني المتمثل في العنف الثوري البولشفي أو إعادة التأهيل الصينية، فلم يحدد إلى الآن عدد ضحاياهما بدقة، لكنهم تجاوزوا في الإمبراطورية السوفيتية الثمانين مليون قتيل. بالتأكيد.

تبَرُّدُ الأرقام، لكن تعذيب أو قتل كائن بشري واحد لا يمكن أن يعبر عن فظاعته رقم مسطر مهما بلغت ضخامته. فالقرآن الكريم يخبرنا أن قتل نفس واحدة ظلما وعنفا جاهلياً يعدل قتل الإنسانية كلها. نُذكِّر بهذا لندرك مدى بشاعة حمام الدم بالجزائر ومدى منافاته التامة لتعاليم كتابنا العظيم.

كادت مخيمات التعذيب الستالينية أن تكون أخس ما توصل إليه العنف الجاهلي لولا أن فاقتها وحشية معسكرات الاعتقال النازية التي لا يكفي لوصفها نعت "الشيطانية"، إذ لا يمكن أن ننعت عملية قذف كائنات بشرية في الأفران بأي نعت من لغات البشر.

لا يهمنا عدد اليهود الذين ذاقوا الأمرين تحت حكم هتلر لأننا نشمئز من معاناة ضحية بريئة واحدة مهما كان دينُها أو عقيدتُها أو عِرقُها. ستبقى إذن الصورة الرهيبة لمعسكرات الاستئصال منقوشة إلى الأبد في جبين الحداثة الجاهلة العنيفة.

نعم، لليهود -باعتبارهم بشرا- الحق في شفقتنا مثلما لكل مستضعف في الأرض. فرغم أن الغرب يشجع ويدعم الصهيونية اليهودية للتكفير عن جرائمه الماضية وحماية مصالحه الحاضرة والمستقبلية في ديارنا رغم أنفنا، فنحن

ملزمون بأن لا نحقد على اليهودي باعتباره يهوديا، خاصة إذا كان معاديا صراحة وباقتناع للصهيونية، إذ للجمعيات المعادية للصهيونية وجود.

بعد الحرب العالمية الثانية صَدَّرَتْ منظمة الأمم المتحدة برنامجها ببند الدفاع عن حقوق الإنسان. نية طيبة نبيلة لولا أن الممارسة تكذب المبادئ المعلنة. فمنذ البداية سيطرت الدول الخمس الكبرى (أي القوى الخمس التي تملك أعتى أسلحة العنف) على مجلس الأمن الذراع المتحركة للمنظمة. والمسلمون مطالبون بتحقيق التحالفات التي تمكنهم من إعادة تشكيل هذه المؤسسة على أساس توفير قدر أوفر من العدل للدول المحرومة.

تقام الدعوى على الإسلام مطالبة بمحاكمة نياته في مجال حقوق الإنسان: هل ستحترم الحكومة الإسلامية حقوق الإنسان حينما...؟

سؤال استحواذي يوجه دائما إلى إسلام الغد بارتياب، لكنه لا يُطرح أبدا بصيغة الحاضر أو الماضي على الأنظمة القمعية المسؤولة في بلداننا عن الخرق السافر المطرد لحقوق الإنسان.

لا تكفي نصوص القرآن والسنة المدونة لإقناع الرقيب المتصلب المتخم بالأحكام المتحيزة ضد الإسلام، إذ لابد حسب رأيه من أدلة ملموسة. وبذا لا يستحيي الغرب الذي تبدو سوآته لكل ذي عين من تقصي عيوب الآخرين، ولا ينفك يرمي بيوت الآخرين بالحجر، رغم أن بيته من زجاج.

فحين يتعلق الأمر بالنصوص والتصريحات الطنانة يتسربل أعضاء الأمم المتحدة بلباس الوقار، لكن ما تلبث الممارسة أن تفضح الطابع الانتقامي للتطبيق: إذا سقط غربي واحد –خاصة إذا كان أمريكيا أو إسرائيليا– برصاص مقاوم وطني أو إرهابي مجرم أقامت أجهزة الإعلام الغربي الدنيا ورفعت القضية مباشرة إلى مجلس الأمن.

أما في البوسنة فقد تُرِكَ الصرب ليتموا تطهيرهم العرقي وإبادة مئات الآلاف من المسلمين قبل الشروع في عملية تدخل خَجْلَى.

ستظل فضيحة البوسنة وصمة عار في جبين حداثة العنف المتنوع، ولن تمحو فظاعة هذه المأساة القبضات التي تنهال على المنصات –منصات الخزي– لأن الجرائم التاريخية لا تمحى بهذه السهولة. لاتُمْحى بخطَبٍ طنانة في المحافل الدولية ولابالضرب على طاولات الأمم المتحدة احتجاجاً عاجزاً ومنافقاً.

إن حقوق الإنسان في شريعتنا غير قابلة للتقادم لأنها تصدر عن أمر إلهي مقدس ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾[1]. أمر موجه إلى جهلنا لنعامل الرجال والنساء بالقسط، بل بكل التقدير الذي يستحقه كائن يستمد كرامته من أصله ووجوده. ففي زمن النبي صلى الله عليه وسلم مرت جنازة أحد يهود المدينة –الذين دأبوا على خيانة العهود المبرمة مع المسلمين– أمام الرسول صلى الله عليه وسلم وهو جالس مع أصحابه فقام معلنا احترامه لها. تعجب أصحابه وسألوه عن

(1) سورة الإسراء، الآية 70.

سبب قيامه فأجابهم: "**أليست نفسا؟**" ليلقننا بهذا الدرس التطبيقي أن كرامة الإنسان تنبع من كونه إنسانا وليس من اعتبارات أخرى.

أول حق للإنسان أن يعرف مغزى حياته ووجود خالقه أما الحقوق الأخرى فتدور كلها حول هذا المحور. لذلك يجب أولا على كل مسلم يعيش في مجتمع مسلم أن يدعم هذا الحق. ولذلك أيضا كانت الردة العلنية مرفوضة.

فلكل واحد الحرية في أن يغلق على نفسه أبواب معزل كفره الانفرادي، لأن محاكم التفتيش ليست اختراعا إسلاميا، ولأن التنقيب عن مكنونات الضمائر غير مقبول في الإسلام. لكن المطالبة بالحق الذي تضمنه "القديسة لائكية" في الصدع بالمبادئ الكفرية تعني تقويض أسس المجتمع نفسها. كل فرد حر في أن يشرب حتى الثمالة من كأس الكفر المسمومة وهو قابع بين حيطان بيته ما دام الفضاء الاجتماعي –المقدس في الإسلام– محفوظا.

ألا يعتبر كل مجتمع متحضر خيانة الوطن جريمة عظمى تستحق أقسى العقوبات؟ إن المجتمع المسلم لا يقوم على الحق المستمد من الانتساب الدموي أو الترابي بل على ما يمثل في نفس الوقت الحق الجوهري والواجب الأساسي لكل مسلم: أن يخضع لله وينتمي إلى أمة الإسلام. لهذا يصبح كل إعلان صاخب عن عدم احترام الله وشرع الله في مجتمع اختار الخضوع التام لله وقام على شرع الله خيانة عظمى.

كيف أكون مسلما

كيف السبيل إلى كنف الإسلام إذا كنت مسلما بالمواطنة، وإذا كانت الحبال التي ربطتني قديما بعقيدة أبي -الذي كنت أراه منذ نعومة أظافري يصلي- قد اندثرت فلم يبق منها إلا نتف متناثرة؟

كيف السبيل إلى تعلم مبادئ الإسلام إذا كنت وليد مجتمع لائكي لا يبالي بشؤون العقيدة، وإذا كنت أحس بجاذبية غامضة نحو الإسلام تدفعني إلى تعميق معرفتي به، بل إلى محاولة تطبيقي لتعاليمه؟

في ظل المشيئة الربانية المصرفة لشؤون الخلق المنعمة على من اختاره الله عز وجل، لا بد أن تخطو أنت الخطوة الأولى، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يخبرك بموعود خالقك أن "**من أتاني مشيا أتيته هرولة**"[1].

لا بد أن تخصص الوقت الكافي للتأمل العميق لتتأكد أن نداء القلب هذا ليس مجرد شِرَّة شارِدةٍ ونزوة عابرة. هذه الخطوة الأولى في عصر إلكتروني اجتاحه متعدد الوسائط دليل على جدية عملية الاستقصاء هاته.

لا وقت لدي! لا وقت لدي! لازمة ترددها العقول التي أذهلتها اللحظة الراهنة، فأصبحت عاجزة عن التركيز. يجب إذن أن نقتلع ذواتنا من مستعجلات

(1) البخاري ومسلم.

الحياة الزائفة ونخصص الوقت اللازم لتعميق أفكارنا وعواطفنا وإلزام عقولنا بالتساؤل الملح الجدي عن مصيرنا: إلى أين أمضي؟

في هذه المرحلة ستمكننا قراءةٌ للقرآن وإعادة قراءة متأنية له من نفض الغبار الذي أهالته علينا الحياة اليومية الرتيبة. نُصِمُّ آذاننا عن لغط الخطب البشرية ليُلقِيَ القلبُ سمعه إلى الخطاب المقدس. قد تُمِلُّنا متتاليات اللغة العربية والجمل القرآنية المترجمة –غير المنطقية ظاهرا في فهم غير المتمرس– وتحمِلُنا على الصدود، لكن لندع موسيقى الكتاب المقدس تنفذ إلى قلوبنا ونحن نرتله إذا كنا من السعداء الذين يستطيعون تلاوة النص الأصلي. فإذا نفذ صبرنا لجأنا إلى معاشرة طويلة صبورة "لترجمة" أو لعدة "ترجمات" قد تمكننا –بعون الله عز وجل– من التناغم مع الرسالة الإلهية.

ثم من الضروري أن نقطع حبال العشرة الرذيلة مع تحسيننا لمستوى التزاماتنا العائلية والاجتماعية. والأمر ليس دعوة إلى الانعزال في صومعة، إذ يجب التحلي بالشجاعة اللازمة لقطع العلاقات مع عادات المجاملة، دون التخلي عن اللباقة. لكن إنهاء الصداقات المشوبة ليس هينا، لذلك يجب توطين النفس على تحمل سخرية من سيعملون على تثبيطنا وصدنا عن السبيل الذي ارتضيناه.

سنكون ملزمين بالتغلب على تحفظاتنا واقتحام العقبات المعترضة سبيلنا بالتحمل الرفيق لكل أذى وخسارة. وذلك بأن نواجه الناسَ بحقيقة إيماننا وتوبتنا بدل الاحتماء بموقف التهرب خوفا من أن يعتبرنا الآخر شيطانا ويُعَبِّئ الناس

لمحاربته ومحوه من الوجود. سيبدو تصالحنا مع خالقنا خيانة في نظر معارفنا الذين تعودوا من قبل على رؤيتنا بمظهر آخر مختلف عن مظهر رجل أو امرأة أنابا إلى الله. لا بد أن نتوقع معارضة ضارية من أصدقائنا القدامى الباقين على عادات اللهو والتشتت لمبادرتنا إلى هجر صفوفهم.

أخي الرجل! أختي المرأة!

إنني هنا أرسم خط المعاناة النفسانية والاجتماعية الذي سيتبعه كل مرشح للسلوك إلى الله. وأؤكد أن أول خطوة نحو الله مكلفة. لذلك لا تنتظر مني -إذا لم تكن قادرا على دفع الثمن- أن أقترح عليك تعريفة مُخَفَّضَة. إذا لم تستطع أن تواجه وتقتحم العقبات نحو هدفك دون أن تعير أي اهتمام للأذى والمعاناة فلتبك على تفاهتك، ولتكتف بحياة خاملة باهتة لا يعكر صفوها كدر.

لقد عرضت عليك النموذج الثابت لشجاعة الأنبياء وصحابتهم، نموذجاً ستتعرف عليه في القرآن، نموذجاً يصفه لك القرآن ويعيد الوصف ليبلو حقيقة إيمانك وليثبتك.

وبعد أن تجتاز وحدك امتحان الفراق لا بد لك من لقاء. لا بد أن تتجه نحو صحبة أخرى تتخذ لك مكانا بينها. لا بد أن تتكيف مع وسط آخر يتبناك. لا بديل لك حينئذ عن صحبة روحية، لأن الصحبة مفهوم مركزي في الإسلام، ولأن الله عز وجل غالبا ما يهيئ لمن سلك سبيل التوبة أشخاصا ذوي قلوب صافية. والمسجد أمثل مكان للعثور على الصحبة المثلى. فعلى عتبته

نودع سفاسف العالم ونتحد مع عالم المقدس. خمس مرات في اليوم نتخذ لنا مكانا في صف المؤمنين المصطفين للصلاة، صَفٍّ تتفتح فيه نفوسنا لاستقبال إشعاعات روحانية تتنزل في بيت الله. الصلاة عماد الدين وصلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بخمس وعشرين درجة. وصوم رمضان وإيتاء الزكاة وحج البيت واجبات يحرص المسلم على أدائها ليثبت صدق شهادته، لأن شهادة أن لا اله إلا الله محمد رسول الله لا تعني شيئا إذا لم يلتزم الناطق بها بالصلاة خمس مرات في اليوم وكذا بباقي الواجبات.

سيحتج البعض معلنين: "إننا جميعاً مسلمون" رغم أن أحدا لم يرهم يوما يسجدون لله فهل هو نفاق متمرس أم أنه جهل مؤسف بشروط الإسلام؟

يجب أن يعلم هؤلاء أن الإسلام ليس ألعوبة ثقافية يعرضها محاضر "إسلامولوجي" متخصص في مراجعة المدارس الفقهية وفض خلافات الماضي الإسلامي. عليهم أن يعلموا أن الإسلام بالميلاد والمواطنة لا يعفينا من الفروض الإسلامية. من الصلاة أولا خمس مرات في اليوم دائما أبدا. من الذي نخادع؟

إن خلاص أرواحنا من عذاب جهنم رهين بالتزامنا الصادق بواجبات الإسلام، وارتقاؤنا الروحي مشروط بمدى انضباطنا الإسلامي. الصلاة والعبادات الأخرى إضافة إلى الفضائل التي يتحلى بها المسلم الحق كفيلة بتحرير المرء وتطهيره. فإما أن نتمكن من إعادة تأهيل ذواتنا وإما نكون مجرد رخوة تتخذ لها شكلا بشريا.

فالذين استبطنوا نموذج الحياة الغربي يُخضعون أنفسهم لطقوس يومية، وينضبطون بسلوك محدد، مقسمين وقتهم بدقة شديدة. ألا ينشغلون بصحتهم البدنية ومظهرهم الجسدي؟ ألا يسارعون إلى عيادة الطبيب عند إحساسهم بأدنى عرض مرضي؟ ألا يبذلون أغلى ما لديهم لتبقى لهم العافية؟ لم لا يهتمون إذن بصحتهم النفسية والروحية؟ لم يتجاهلون أمراض نفوسهم؟ لم لا يهمهم المصير الأخروي؟ مسلم لا يؤمن باليوم الآخر ولا يصلي ولا يستعد للقاء الله! لِمَ لا يسمَع بعضهم ولا يريد أن يسمَع؟

لأنهم عصريون لائكيون راشدون ملقحون ضد المواعظ المتزمتة!

في المسجد ستجدين أيتها الأرواح الأخوية التي تطالع هذه السطور مجمع المؤمنين. أَجْهِزي على غرورك وتَخَلَّيْ عن تجهمك! امتزجي بالمؤمنين العاديين وإياك أن تنتظري منهم العناية الفائقة إذا كنت من علية القوم! ففي بيت الله كلنا عبيد لله، والذلة لله تكتسب بمخالطة الأذلة على المؤمنين. ابحثي في المسجد عن سلك يوصلك إلى الأرواح المتعطشة مثلك إلى الحقيقة!

الإسلام ارتقاء لا يرضى بالقرار في مقام معين. يبدأ بمنزلة القيام بالشعائر والواجبات التي يحددها الشرع لكل مسلم، ثم ينتقل إلى مقام الإيمان حيث تلازم الاستقامةُ العبادةَ. ليرتقي إلى مقام الإحسان الذي يفتح الباب ليلج بالغُه فضاء الرحلة الروحية الكبرى. في هذه المرحلة يحتاج المسلم إلى مرشد روحي لأن السبيل طويل مليء بالعقبات.

لا بد من مرشد روحي، من ولي يرعى نبتة الكائن الروحي إلى أن يتجذر غرسها ويقوى عودها. تكلمت عن المقامات والدرجات، وكان علي أن أتحدث عن اللبنات والطبقات لأن الصورة الأكثر مناسبة هي صورة البنيان الذي يعلو برفق وثبات. فلا يمكن البناء فوق الفراغ ولا بالفراغ. أي أن التدرج في سلوك سبيل الإحسان الذي يمثله الإسلام هو البناء. والقيام بالفرائض الشرعية –بدءا بالصلاة– هي اللبنات والإسمنت.

واحذري أيتها الأرواح الأخوية من اللقاءات المشبوهة، ففي المسجد، خاصة مساجد الشتات المسلم، ستلتقين بمسلمين متخصصين في الانتقادات. سيحدثونك عن الشريعة وكتبها بلغة جافة خالية من جوهرها، خذي من كلامهم علم الشريعة وأعرضي عن الخلافات العقيمة والتعصب المذهبي الذي لا منتهى له. ستلتقين أيضا بمتصوفة أسكرتهم النشوة الروحية، خذي عنهم ما يسلك بك إلى الله ودعي ما بقي.

ادعوا الله كلما صليتم أن يختار لكم الصحبة–المدرسة– التي تقود خطواتكم وتسند سلوككم إليه، واجتهدوا مستشرفين الأفق الرباني، طارقين بابه دون كلل ولا ملل. فهو وحده أمل الباحثين عن الحقيقة. ابحث أخي، ابحثي أختي. وأقول للمتشكك اللدود: هاقد انتهت الموعظة المتطرفة. فسلاماً!

كيف أكون

هل تستطيع المجتمعات البشرية أن تعدل مسارها وتتحكم في مستقبلها أم حكم عليها بالخضوع للتغيير الذي يفرضه عليها منطق التطور الشامل للعالم؟

هل يخضع المسلمون للحداثة باعتبارها حتمية تاريخية مع ما يصاحب ذلك من نتائج أخلاقية واجتماعية، أم أنهم يستطيعون التخلص من القبضة الحداثية؟

تفرض نظرة الإسلام إلى العالم وإلى الإنسان أن يكون لهذا الأخير مهمة وواجب مناقضان تماما لما تحدده له النظرة الحداثية. فالفرد في المجتمعات الحديثة غاية لذاته، غاية وجود المجتمع أن يلبي رغباته ويشبع حاجاته، وواجب وجوده هو يتلخص في احترام القانون الذي ينظم الحياة الاجتماعية المتغيرة باستمرار.

أما القيم الأخلاقية فليس لها سوى تأثير هامشي -إن لم يكن منعدما- على مسيرة ونظام المجتمعات المتقدمة، بينما يَعتبِرُ النموذج الأمثل للمجتمع الإسلامي الذي علينا أن نبنيه القيم الأخلاقية والروحية محركا وغاية في نفس الوقت للمشروع الفردي والجماعي.

فهل يمكن للإسلام أن ينجح في اكتساب الوسائل الحديثة للتطور والعلوم دون أن يفقد روحه؟ أم ستكرهه الضغوط الاقتصادية والسياسية للعولمة على اتباع مسيرة العالم والتخلي أثناء الطريق عن لب مشروعه؟

حيث إن المرونة وقابلية التكيف مع الجديد تميزان كل مجتمع متقدم، وبما أن التشنج والجمود مرادفان للفناء، فإن علينا أن نحرص ألا ينحرف تغير ظروف الحياة المادية بِوجهة المسلم ويقتل روحه.

يعترف التحليل الاجتماعي الحديث بتأثير الإيديولوجيا على توجه التجمعات البشرية، تأثير تضعف قوته كلما حلت قيم السوق محل القيم الأخرى. أما القرآن فيطرح شرطاً لازما لكل تغيير، نحو الأحسن أو نحو الأسوء: التغيير النفسي والعقلي للناس. وسنحاول أن نلقي نظرة على المفهوم المركزي للإيديولوجية الحداثية –الفرد– وللنموذج الإسلامي الأمثل أي المؤمن المُثبت بَصَرَه على مصيره الأخروي، المُنشغل بالترقي في مقامات الإحسان عبر العمل الصالح.

يستجيب تغيير المجتمع الفرداني بدرجة كبيرة للمطالب المادية للفرد، بينما يجب على التغيير الإسلامي النموذجي أن يقاوم باستمرار الانحرافات المادية الأنانية وأن يُلبي التوقان الروحي للمسلم .

يُعرِّف معجم لوروبير الفرد بأنه: "الكائن البشري باعتباره وحدة وهوية خارجيتين، بيولوجيتين، باعتباره كائنا خاصاً، متميزاً عن الآخرين". فهو إذن يتميز قبل كل شيء بأنه كائن بيولوجي ذو هوية واحدة متميزة، أي أن جوازه في الحياة هو –قبل كل شيء– فردانيته البيولوجية. ذلك أن الفرد اكتسب في المجتمعات الغربية حقوقاً معتبرة، حقوقاً طبيعية لا يجوز التصرف فيها، حقوقاً

مستمدة من كرامة وجوده، انتزعها من المجتمع بعد صراعات تاريخية ضارية وثورات دموية عاتية.

في المجتمعات الغربية، يتمتع الفرد بحقوق يكفلها له العقد الاجتماعي المتمثل في دستور ديموقراطي، فالقانون يمنحه ويضمن له حقوقه السياسية والاجتماعية، مثل الحق في التصويت والترشح في الانتخابات، والحق في الاستفادة من التكافل، والشغل... إلخ.

كل هذه الحقوق انتصارات أحرزها الفرد الغربي عبرَ تغيرات متلاحقة تتمثل في الثورات السياسية والثورات الجنسية والثورات الاجتماعية والنقابية والحروب. الفرد في المجتمعات الديموقراطية المتقدمة يؤطره نظام تربوي يُنتج ويعيد إنتاج المواطن الصالح الواعي بحقوقه، المُنتج النشيط لكل أنواع الخيرات المادية. وهو يتمتع بحماية نظام قانوني يضمن له حريات وحقوقاً فيعيش في أمان (نسبي في هذه الساعة التي أصبحت فيها البطالة والجريمة المنظمة الخبر اليومي في البلدان المتقدمة). يُطالب ويُلزم ويستهلك، مطالبه وأذواقه هي محرك الاقتصاد ومعيار السياسة، رأيه المقدر، المتابع، المُحْصَى، المستقصَى في الاستطلاعات اليومية هو مَعْلَمُ الحقيقة الآنية في عالم مفتقر إلى معالم.

أما المؤمن في المجتمع الإسلامي المثالي الذي علينا أن نبنيه فيجب أن توجه سلوكه السياسي قيم أخرى مناقضة تماما للفراغ الأخلاقي والأنانية

المتشنجة التي تميز الفردانية المطالبة. فالمطلق الذي يهيمن على حياته ومشروعه يلزمه ويستحسن منه البذل السخيَّ.

هذه الشخصية الباذلة تحتاج إلى تربية. فكما أن أنظمة الحداثة الفردانية تتحكم في المواطن الصالح اللائيكي ذي التفكير السليم والاستهلاك الجيد، يجب أن تنسق الأنظمة المدرسية والقانونية والسياسية والإعلامية جهودها في أرض الإسلام ليهيمن النموذج الإسلامي على العقول وعلى القلوب، على الأعراف والعلاقات الاجتماعية، على العمل وعلى تصور مكانة المرأة. لابد من تشجيع الحياة الجمعوية في المجالات الخيرية والإنسانية.

والقرآن يعرض صورة المؤمن الكامل المنتمي إلى الأمة الخيِّرة : ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾[1].

صفات المؤمنين الروحية والخُلقية تبرهن على إيمانهم: صفة بذل النفس والمال، بانتفائها تنتفي شهادة المدعي : ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾[2]. لأن الفضائل العقلية والقلبية، والعبادة والبذل، والتقوى والإيثار كل ذلك ينبع من نية واحدة: ابتغاء مرضاة الله بإعانة كل إنسان. هذه الدمعة التي تسيل من قلب المؤمن حين يدعو ربه تُترجمها في واقع المجتمع خصلة البذل: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا**

(1) سورة الحجرات، الآية 10.
(2) سورة الحجرات، الآية 15.

ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[1].

ميثاق إسلامي

مثل هذه الصفات لايمكن أن تكون إلا نتيجةَ تربية، لِذا تتطلب إعادة توجيه المجتمع المتهاوي الذي تتقاسمه أغلبية بقيت متشبثة بهويتها الإسلامية وأقلية ضئيلة أصابها بِنِسب متفاوتة فيروس التثاقف المستلب استعَادةَ التحكم في مقود التربية وفي وسائل الاتصال. سيكون من اللازم التحلي بالصبر لإقناع ذوي النيات الحسنة وتعبئتهم للقيام بمهمة التعليم ومحو الأمية ونفخ روح التسامح وبعث الحماس في الشبيبة التي أحبطها مثال السابقين المُجهَدين واليائسين. لأن الانتقال من مجتمع متمزق الأطراف إلى مجتمع متصالح مع ذاته يتطلب توافقاً يلتف حوله الشعب المسلم بأكمله.

كثر الكلام في بلدنا هذه الأيام عن التوافق وعن الانتقال إلى الديموقراطية. لكن هذا التوافق وهذا الانتقال لا يتجاوزان عتبة الدواوين، حيث تعقد التحالفات وتوزع الأدوار بين محترفي "ثقافة التوافق": حرفة غامضة لايعرف خباياها إلا الشخصيات التي يرتضيها النظام.

---

(1) سورة الأنفال، الآية 2-4.

أما نحن فما فتئنا، منذ أمد بعيد –ربع قرن– نقترح من الدهاليز والمنافي التي حاصَرنا فيه الفكر الوحيد المُؤَلِيك ميثاقا إسلاميا يُصْلِح بين النخب التي تحتكر السلطة والشعبَ، ويحصل به التناغم بينها وبينه، ميثاق يمكنها من البرهنة على إخلاصها لهذا الدين الذي تدعي أنها الناطقة الشرعية باسمه.

يجب أن يكشف الشعار المُخادع المُهَلهَل "أننا جميعاً مسلمون" عن وجهه ويجهر بما يُسِره. يجب أن يولي عهد النجوى والتصريح المدوي الذي لم يعد يحرك في الشعب ساكنا، ليحل محلهما حوار صريح، علني، يشارك فيه كل حزب سياسي، وكل جزء من المجتمع المدني المتكوِّن، وكل صوت أخرِسَ أيام تسلط التدجين السياسي، ليعبر الجميع عن رأيه دون إقصاء ودون وسوسة سرية متآمرة. يجب أن نعرض على أنظار الشعب المترقب أسرار الخيانة التاريخية التي سلبتنا مواردنا الخلقية والمادية وأطلقت العنان للارتشاء الذي أصبح أسلوبا طبيعيا يسير حياة الإداريين الفاسدين، المدمنين على كل أنواع الاختلاس والموبقات.

يجب أن نعرض بوضوح على رؤوس الأشهاد ما جهدوا لإخفائه منذ أمد بعيد، ليستعيد الشعب وعيه بعد أن كان محجوراً عليه. ثم تنطلق المشاركة الفعالة لقوى شلها ضعف الثقة وتتابع الإحباطات المريرة.

تجندوا جميعا يا من تحتجون "بأننا جميعا مسلمون" لتثبتوا لأنفسكم وللشعب أنكم حقا مسلمون. فلحد الساعة، كانت الحملات الانتخابية التي تسوقونها بالتطبيل والتصفيق هي المناسبات الوحيدة التي تعرضون فيها حماسكم

المتأجج. جربوا إذن أسلوبا آخر: أسلوب التصارح مع الحقيقة في جو تسوده الصراحةوالسكينة.

لنحاول التحدث بصدق في نقاش عام يمنح الشعب فرص الحكم علينا، نحن الإسلاميين، المنبوذين،المقصيين، وأنتم سادة الحفلات الديموقراطية. أما صيغة "المؤتمرات الوطنية" التي ابتكرها الأفارقة والمواثيق الوطنية التي يطبقها العرب بين الفينة والأخرى فلم تنجح إلا في التعمية على الجراح التي تعاني منها بلداننا الرازحة تحت نير أقليات فاسدة مُعَفِّنَة.

لنمنح الشعب فرصة لفهم لعبتنا والتعرف على ما تخفيه مظاهرنا من دخائل، ليشارك في إعادة البناء. بَعد أن يعلم هذه المرة ويثق.

"كلنا مسلمون"؟ حبذا! ومَرْحى!

لنثبت لربنا، لأنفسنا، للشعب، أننا حقاً جميعا مسلمون، بالأعمال، بالوقائع الملموسة بدل الخطب الرنانة الجوفاءِ والإذاعات التي تطالب الشعب بأن يعترف بفضلنا نحن الذين ضحينا في سبيله بربيع عمرنا، نحن المناضلين المخلصين لقضية نزلاء الزنازين الباردة. فالظرف لم يعد مناسبا للاستغلال السياسي لورقة "الشهداء الذين سقطوا في سبيل القضية العادلة"، كما لم تعد هذه الورقة تمثل مشروعا مستقبليا يقوم على أعمال إيجابية.

"كلنا مسلمون"؟ يا حبذا! ويا مَرْحى!

حقا سنكون أول من يهنئ نفسه يوم نراكم منسجمين مع الشعار الذي تصدعون به، لأننا ندرك أنكم –يا من تؤويكم السيدة لائيكية في بيتها– لم تقطعوا جميعا الأواصر التي تربطكم بإسلام آبائكم وأمهاتكم، ولأننا أيضا نحرص على حفظ كل كفاءة قادرة غداً على المساهمة في إعادة بناء المجتمع.

إننا نتبرأ من روح الإقصاء التي تدفع بعضكم إلى مجاملة عَرَّابي الداخل والخارج، مقسمين لهم أنكم لاتزالون مناجل طيعة في أيديهم لحصد المتطرفين. منهاجنا ونوايانا مناقضة تماما لمنهجكم ونواياكم، فنحن نقترح عليكم ميثاقاً إسلاميا يُلزمنا جميعا بالانضمام إلى الحقيقة الإسلامية بثقة ووضوح، إخوانا متضامنين، خاضعين جميعا لله، باذلين جميعا أنفسنا وأموالنا في سبيل الله.

إن الله تبارك اسمه غني عن العالمين، غير محتاج إلى من يدافع عن رسالته. أما نحن، المذنبين التعساء، أبطال المقاومة، السجناء السابقين، المنافحين عن القضايا العظمى، فسنُكَفَّنُ غدا في ثوب أبيض، جثثا هامدة سيمددها المسلمون ويصلون عليها. فمن الذي سيكون هناك غداً ممدداً، عاجزاً، تقلبه يدا المُغَسِّلِ؟ مسلم حق أم منافق سابق، مطارِد سابق للأصوات الانتخابية، كذاب سابق، مخادع لنفسه وللناس؟ إلى أين يعدو مناضل الأمس، شريك اليوم المُدجّن؟ أين تضحياتكم، يا إخواننا الأعزاء، وتضحياتنا في سبيل الصدع بالحق وفضح البهتان؟

كيف أصبحتم يا من ناضلتم بشرف تحت لواء الماركسية؟ كفري عن ذنوبك، أيتها النفوس الأخوية، وارفعي راية الإسلام، مفخرة أجدادك الأمجاد الثقات! ورمز العزة في الدنيا والسعادة في الآخرة.

الجادّة والانحراف

معرفة أخطائنا السابقة والاعتراف بها خطوة هامة نحو المستقبل الإسلامي أما فكرة إمكانية بناء شيء صلب ودائم مع الإصرار على خداع أنفسنا والتشبث بالانحراف عن حقيقة الإسلام وعن واقع شعب مسلم مخلص دائماً لربه فليست سوى خطإ حسابي بل أخلاقي وعقلي. خطيئة!

لايبقى شامخاً إلا ما بني على صخر القيم الصلد، فمجتمعنا ترعاه العناية الربانية بينما تعاني المجتمعات الغربية من "فقدان الأمل". مجتمعنا متمسك بإخلاصه لربه، متشبع بالبعد السماوي، إذا ما استثنينا الهدبة المتثاقفة المشوهة. فنحن لا يراود عقولنا التشكك البئيس، بذا يوقن سياسيونا، ولذا تلوك أفواههم شعارات لايفهمونها، لأن معرفتهم الضحلة بالإسلام لا تمكنهم من التمييز بين المفهوم الإسلامي للدين وبين المفهوم الدنيوي الذي ينسبه الغربيون للدين. وبما أن الدين في المجتمعات غير المتدينة قضية شخصية فإن رجل السياسة عندنا يسارع إلى المقارنة ليستنتج إن إيمانه الفردي مسألة خاصة به وحده مادام يعلن إسلامه مثل باقي الناس وما دام الإسلام ينحصر في حدود الدائرة الشخصية.

إن ميل بعض الناس عن جادة الإسلام بادٍ لكل ذي عينين لا يَخرج عن عُرفه ولايُسند هويته إلى أعراف أخرى. الفعل الإيماني الفردي لا ينفصل في الإسلام عن الفعل السياسي مادام الإيمان الفردي والمساهمة في العمل الصالح الجماعي دليلين يقدمهما الفرد على انتمائه إلى الأمة المسلمة، كما أنهما في نفس الآن لحمة هذه الأمة.

أما الإعراض عن هذه الحقيقة فليس إلا خداعاً متأصلاً في طبع المنافقين أو كفرا متبجحا مستبدا بصاحبه أو هما معا. فهؤلاء السيدات والسادة الذين يزعمون أنهم مثل الآخرين مسلمون يتفضلون بالظهور في المساجد بملابسهم البيضاء أثناء الحفلات الرسمية، مصلين للكاميرات. حتى إذا غشيتهم ظلمة الليل، ألقوا بياض ثيابهم الطاهرة وقفزوا إلى أحدث حانة يعبون ويعربدون.

وفي صباح اليوم الموالي، يطل علينا بجلبابه الأبيض الدكتور جيكيل من نافذة صحيفة حزبه، يعلن للعالم تشبثه بالإسلام قبل أن تستبد به مجددا شياطينه الليلية، فيسلم ريشته في العمود التالي إلى المستر هايد ليبكي الحريات التي يسحقها في حُكمه الإسلام.

لكن إذا كان ديدن السكارى المعربدين أن يسخروا بقيمهم ويخونوا التزاماتهم فإن المسؤولين السياسيين والمناضلين المعارضين يجب أن يكونوا نماذج للفضيلة، حماة للنزاهة الخلقية. يجب أن تبرهن حياتهم الخاصة على أنهم أهل للثقة.

إن الإخلاص لقيم الإسلام لا يتحقق بالتصريحات المدوية وحضور الحفلات الموسمية المبهرجة، بل يتجسد في الأعمال. لهذا يجب أن يتمخض الميثاق الإسلامي الذي نقترحه للخروج من المأزق عن نقاش علني ويكونَ مدخلا لالتزام، تتلوه أعمال ملموسة. فلا السكينة المنبعثة من المسجد، ولا الجبة البيضاء التي يتلفع بها المنافق تستطيعان تأسيس مستقبل الجهاد في سبيل العدل.

إن المستقبل السياسي لكل منافق مظلم في عين كل مستشرف لآفاقه، بل في عين كل مراقب له حظ من الفطنة. أما المصير النهائي لكل مذنب في جنْبِ الشريعة مفرِّطٍ في دينه فهو مصير الشقاء الأبدي. خاصة إذا أضاف إلى تقصيره الفردي خداعه لنفسه والمسلمين برفعه شعاراً متكلفاً. إن صدق الاعتقاد الفردي والاحترام الشديد لقيم المجتمع هما الشرطان اللازمان لتحقق الخلاص النهائي للفرد والنجاح التام للمشروع الإسلامي.

أما الشعب المسلم فيجب أن يكون يقظاً، لأن الأخطار التي تحاصره لايمكن عدها: عولمة تُحِدُّ مخالبها وتوجه الإنذارات إلى "الاقتصادات" الذيلية لتصطف وتعتدل. فقر وظلم اجتماعي، تخلف وحكم فاسد وارتشاء... وتتوالى النكبات.

لاشك أن كفاءة واحترافية المدبرين المطلعين على ما يُنقَض ويحاك في العالم عاملان أساسيان من عوامل النجاح في بلد متخلف عن الركب.

لكن إذا كانت النزاهة تعوز هؤلاء الخبراء، وإذا كان الحكام الذين يقررون ويوجهون لايرعون حرمةً ولاذمةً، فسينزلق المجتمع الذي يحكمونه ويديرونه حتماً إلى الهاوية. فلا أمل في التقدم، ولا فرج يُنتظر مادامت نزوات الربابنة هي بوصلتهم.

إننا نوجه اهتماماتنا المستشرفة للمستقبل وإشفاقنا الخالص إلى أولئك الذين يعتبرون اليوم تَكَلُّمنا -إن سُمِحَ لنا بذلك- تدخلا مضحكا وتطاولا وقحاً على المجال السياسي المخصص للائيكيين المُحَلَّفين. وغدا سيكون احترامنا للحضارة الإنسانية نابعا من الأمر الإلهي: "ولقد كرمنا بني آدم" قبل أن تمليه علينا حسابات المصلحة العامة، لأن المسلم التقي لايمكن أبدا أن يتحمل مشهد امرأة أو رجل -مهما تكن أخطاؤهما أو مبادِئهما- يُعاملان وكأنهما نفاية من النفايات، فالمطلق الذي تنبني عليه قيمنا الإسلامية لايسمح بأن تَهوِيَ الاستهانة بالكرامة الإنسانية إلى دركات احتقار مسلم. ولنا في الانحراف الغربي الحديث العبرة!

هذا أندريه سبونفيل لم يستطع أن يتقبل بسهولة فكرة فقدان المطلق الذي يمثل أساس المعنى والقيم. لنصغ إذن إلى هذا الفيلسوف الغربي الحديث وهو يتأسف على الانحراف الخلقي المهيمن على الغرب الإباحي التصالحي: "بدون أساس مطلق، أي بدون أساس إطلاقاً، لايمكن أن توجد قيمة مطلقة أو معنى

مطلق[...] فالرهان اليوم يكمن في تبني النسبية التي يَنْذُرنا لها تطور معارفنا ومعتقداتنا دون أن نغرق في لجة العَدمية"[1].

تخوفاً إذن مما قد يحدث، وإدراكا لما قد تمليه عقلية متفلتة أو ذهنية طائفية، لا نمل من التأكيد على المبادئ حتى لا تجتاحنا الفوضى حين يحين الموعد. فالمأساة الجزائرية تَمَظهُرٌ لتفلت أخلاقي قبل أن تكون نتيجة لانحراف اجتماعي سياسي.مأساة تفرض علينا -كيفما كان انتماؤنا- استخلاص العبر. أما الذين لا يستعدون للمستقبل فإنهم، حين تباغتهم الأحداث، سيلجؤون إلى الارتجالية ثم التطرف لينتهي بهم الأمر إلى العنف المدمر.

تعبئة

إذا طبقت الشريعة بروح متفتحة واعية بالصعوبات النفسية والموضوعية فلن تُصَدِّر الحكومة الإسلامية قائمة أولوياتها بمطاردة هفوات المذنبين، كما أنها لن تحدد أبداً مواعيد لمناقشة مدى فعالية إلزام النساء بوضع قطعة قماش على رؤوسهن، لأن الحياء والفضيلة -مهما بلغت أهميتهما- ليسا قضية الحكم الإسلامي وحدهُ. فتهذيب الحياة العامة يقتضي تعبئة شاملة سيدعى إليها الرجال والنساء -مُحجَّبات كن أم غير محجَّبات- مع اكتشاف وتشجيع ذوي الاستعدادات الطيبة. حينئذ سيدعى المسلمات والمسلمون ذوو النيات الحسنة إلى المسجد مكان انعقاد اللقاءات البناءة، محضن حياة المشاركة.

(1) La société en quête de valeurs ,Op.Cit, p.p.130-191

لابد من إحياء الدور الشرعي السُّني للمسجد ونفخ روح جديدة فيه. لابد أن يصبح المسجد - محل العبادة وبيت الله المقدس- من جديد مركز انطلاق الحياة النشطة، بدل أن يبقى مَحبِساً تغلق أبوابه فور انتهاء الوقت الضئيل المخصص للصلاة. لابد أن يُحرَّر المسجد الذي أصبح بتدبير من اللائيكيين المتسلطين علينا بوقاً للدعاية الرسمية، فاستحالت خطبة الجمعة قصيدة يترنم بها صوت هرِم رتيب في مدح ذوي السلطان.

لقد دشن النبي صلى الله عيه وسلم عهد الهجرة بالمدينة ببناء المسجد، وساهم في هذا العمل بيديه الشريفتين، حاملا اللَّبِن، غير عابئ بالغبار المتطاير عليه، مما يدل على الثقل الاستراتيجي للمسجد في حياة مجتمع مسلم حريص على مساهمة جميع أفراده في الإنجازات العامة.

وستَرِث الحكومة الإسلامية عدة محلات كانت قد أُمِّمَت من قبل وسُلِّمت إلى موظفين فاترين خاملين. هذه المحلات يجب أن تعود -كما كانت- عيونا تفور حيوية.

فالمسلم الذي يعيش في ظل الواجب الإسلامي يخصص حيزاً من وقته اليومي للصلاة، جماعة في المسجد إن استطاع، دون أن تستنزفه المشاغل اليومية الأخرى لأن ﴿**الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً**﴾[1].

(1) سورة النساء، الآية:103.

ويوم الجمعة -هذا اليوم المبارك- سيكون يوم تجمع عام. فعند ظهر هذا اليوم، لابد أن يحضر المسلمون الحريصون على دينهم صلاة الجمعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1]. يتوقف البيع والشراء في ساعة محددة من الأسبوع استجابة للنداء للصلاة من المسجد. ويعيش المؤمن على إيقاع صلوات خمس محددة في الزمن. هذا الانضباط الزمني الذي لا تستطيع السلطة البشرية أن تفرضه يعبر عن مدى استعداد رجل العقيدة وامرأة التقوى وحيويتهما.

أما الإنسان الحديث فلا يملك وقته: تتقاذفه قيود مواقيت العمل وتستعجله، فيسارع إلى التحرر منها حالما تواتيه الفرصة ليخصص وقت فراغه لإشباع غرائزه والانغماس في لهوه وعربدته.

لكن المسلم الذي يستوطن الزمن ويوطئ أكنافه، يتخلص من ضغوط الحياة خمس مرات في اليوم ليحتضنه الدفء الأخوي في المسجد المجاور، وليلتقي بإخوانه في الاحتفال الكبير، يوم الجمعة. وتبقى أوقات العمل والفراغ يتقاسمهما الأنس بالآخرين والاستراحة بصحبتهم.

والمسلم لا يعتبر العمل والكدح اليومي عبئاً ثقيلا ينوء بكاهله، ولا يستهلك فراغَه الانغماس في اللهو لتناسي نقمة عيش سخيف وحياة لا معنى لها ولا غاية. ذلك أن الإنسان الحديث نادراً ما يؤرقه القلق الوجودي، ولهذا ينهمك في

(1) سورة الجمعة، الآية 9.

الاستمتاع باللهو لنسيان الزمن الذي يعدو ولينذهل عن مأساة حياة يتربص بها العدو المطلق: الموت.

إن المسلم الذي يعيش إسلامه كاملا يتردد على المسجد للصلاة والتخشع، هذا المكان المقدس الذي ينطلق منه المجاهد ليدافع عن قيمه والعامل لكسب قوته. المسجد هو المكان الذي تفيض منه الطاقة المُعَبِّئة الضرورية لشحذ الهمم وإعدادها للمشاركة في إعادة البناء.

لابد إذن من إحياء دور المسجد وتفريغ الوقت الكافي لكي يتمكن المؤمنون مجتمعين من الانتعاش الروحي خمس مرات في اليوم[1]، خمسة مواعيد محددة يجدد فيها المؤمن طاقته، وإلا تشتت في غمرة الغفلة عن الله، وتاه في دروب الزمن السائب، ثم ارتمى في أحضان الارتخاء والغفلة.

إن التعبئة الدائمة والتحكم في الوقت لازمان للْفرد المُنْجمع وللمجتمع اليقظ. بينما يُحدِث فقدان التحكم في الزمن شرخاً هائلاً في بنيان المجتمعات الحديثة، فيجأر بالشكوى ذوو الألباب العاجزون عن حل مشكل "ندرة الوقت" وصُعوبة "استيطان الزمن".

"استيطان الزمن"، ياله من تعبير جميل ابتدعه الفيلسوف جون شيسنو الذي نشر سنة 1966 كتاباً بهذا العنوان المُلهِم. هذا الأستاذ يشكو من هواء الزمن الذي تستنشقه الحداثة والذي يَحرِمِ الإنسان الحديث المُتخمَ بالمُتع المادية

(1) إن التوقيت المستمر للعمل ضروري، وثابت المردودية.

من مسكن بسيط يؤويه في بلدة الزمن، فَ"نحن أيتام الزمن، لكن في نفس الآن مهووسون به. حَرَجُنَا مزدوج حين نريد ممارسة قدراتنا الديموقراطية في مدة زمنية محددة. نحن من جهة مهددون بتلاشي الرابط الأساسي بين الماضي والحاضر والمستقبل، لكننا من جهة أخرى مُكسَّحون، غارقون في مشاكل تدبير الوقت.

"ميزانية الوقت، تقسيم الوقت، البرنامج الزمني، وطأة الوقت، الثوابت الزمنية: كل هذه القيود والتساؤلات المتعلقة بالزمن تضغط بثقلها على مجموع الحقل الاجتماعي وعلى كل الحياة الفردية. ورغم ذلك، لا يزال مجتمع الحداثة يستهويه المنتوج المطروح أرضاً فور استهلاكه، والأغنية السريعة والأجل الصفر، أي أنه يشجع اضمحلال إحساسنا بالمدة الزمنية"[1].

---

(1) La société en quête de valeurs, Op.Cit , p.107

الفصل السابع

المال

عولمة

عدل ومظالم

مأزق الرأسمالية

العاهة الرأسمالية

أية تنمية؟

مقاولة إسلامية محمية

فقر وتكافل

نموذج الحياة الجماعية

تراث مُخَرَّب

عولمة

يُنذر الطابع التهديدي للنظام السياسي الجديد وللعولمة الاقتصادية بانطلاق الهجمة الشرسة للقوة العظمى المهيمنة على البلدان المتخلفة التي ستعاني أكثر من البلدان الغنية. وهذا العدوان السياسي الاقتصادي يفرض علينا أن نعبئ كل قوانا لمواجهته.

ينتمي لفظ "التعبئة" إلى معجم التعزيمات السحرية الشعوذية الذي يستعمله سياسيونا لنَفضِ الخَدَرِ عن الشعب المصر على أن لا يتحرك بعد أن تلاشت ثقته بنخبه المغربة المتبرئة من جذورها. ثم يعاد تشغيله وإدماجه في الخطاب الانتخابي للأحزاب المصطنعة المكونة من عملاء ليسوا نخبا وليسوا مغربين إلا تصنعاً أو استنساخا للعادات السيئة.

كلمة سحرية يُعَزِّم بها محترف السياسة المفضوح: كلمة تعني في قاموس عزائمنا ضرورة عاجلة، واجبا يُلح علينا أن نصل ما انقطع من أواصر الثقة المغتالة ونعيد الاعتبار للوعد الممنوح.

فغداة استقلال بلداننا بلغ الحماس الشعبي مداه: ألهبت الآمال العظام حماس جيل مستعد لبذل أقصى الجهود من أجل بناء مستقبل الكرامة، يحدوه في ذلك مثال طلائع الوطنيين الذين بذلوا أرواحهم في سبيل الاستقلال. شبيبة

شحذت عزمَها الوعودُ الخُلَّبُ فحملت المعاول تبني الجسور وتدك الجبال لتفتح الطريق نحو مستقبل مجيد.

لكن هذه الجذوة المتقدة لم تلبث أن خبت حين بدأت أمارات الخيانات تبدو، وحين بدأت الطبقة المتنفذة تَطأُ تحت الأقدام أحلام الأمس ووُعوده. رفضت أجيال كاملة أن تنحني لحكام الجبر المنافقين وقاومت التسلط فذاقت الويلات.

غير أن الثورات والتضحيات لم تكن تستند إلا إلى الإيديولوجية العدمية، إدْيولوجية الاشتراكية الملحدة. كما أن الثوار لم يكونوا أحسن حالا من الطبقة الفاسدة: هؤلاء يميزهم نفاقهم بينما يصدع أولئك بلائكيتهم، ويستعلنون بممارستهم الإلحادية، ليشترك المعسكران في معاداتهما لقيم الإسلام.

لتصحيح المسار وإرشاد مجتمع حائر بين أطروحتين منحرفتين كلتيهما عن قيمنا ومتساويتين في فشلهما، يجب أن نعيد التعبئة من جديد لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، حتى نتمكن من استئناف المسيرة المجهضة. وبما أن الخسائر بالغة، فمن اللازم الاعتماد على إرادة ماضية منطلقها أخلاقنا ومحركها إيماننا. يجب أن نتوحد على كلمة سواء، كلمة الإسلام، لمواجهة الخطر الزاحف علينا، إذا أردنا أن لا نسير نحو المجهول.

فنحن يطرق أبوابنا قدر سموه عولمة، وبلداننا –مثل غيرها من البلدان المتخلفة– تحكمها نزاعات السياسيين وتذبذباتهم. حكام منهمكون في التقاتل

من أجل السلطة، وفي سبيل الامتيازات التي تمنحها السلطة، مستعدون دائما لتغيير الوجهة. وستكون بلداننا أول ضحية!

سنصغي الآن إلى خبيرين أوربيين يصفان لنا الخطر الذي يُهدِّدُ بلدهما الغني، المتين التنظيم، لنتمكن من قياس وقعه المرتقب علينا ولندرك مدى ضرورة مواجهته. هاهما هانس بيتر مرتان وهارالد شومان، الصحفيان الألمانيان، يعرضان الوضع الحالي والمستقبلي لمجتمعهما ويوجهان أصابع الاتهام إلى العدو المسؤول عما آل إليه.

نفضل دائما أن ندع مجال الإفصاح لأبناء الغرب يحدثوننا عن حداثتهم حتى لا نتهم بالمبالغة، لنبني بعد ذلك وجهة نظرنا الإسلامية على استنتاجات موضوعية وشهادات مباشرة. فعلى من تنقض العولمة إذن؟ لنستمع:

" لم تعد الانتقادات تُوَجَّه إلى المتنَفِّعين، بل إلى طفيليين اجتماعيين فرضيين. هؤلاء أصبحوا يعلنون أن التأمين عن الشيخوخة والمرض وفقدان العمل يجب أن يوكل إلى المبادرة الفردية.

"بل أن الداروينيين الاجتماعيين الجدد في الولايات المتحدة -حيث يعزف نصف المواطنين من الطبقات الشعبية خاصة عن التصويت- فازوا بالأغلبية البرلمانية، وبدؤوا يعملون على تقطيع شعبهم وفقا للنموذج البرازيلي.

"ستكون النساء الضحايا المقبلة لهذا المنطق، ففي ألمانيا، قرر النصارى الديموقراطيون المكلفون بالمشاكل العائلية أن يخفضوا أجور النساء الحوامل المتمتعات برخص المرض. وهو إجراء ينبئ عما ينتظر كل الأُجَرَاء"[1].

قلت: بل ينبئ بما ينتظرنا، نحن المنتمين إلى البلدان المتخلفة: الطامة بكل تأكيد! ما مصيرنا نحن الذين تعيش مجتمعاتنا منذ الآن فصاما اجتماعيا مماثلا لذلك الذي تعيشه البرازيل؟ ما مآلنا نحن الذين تسير مجتمعاتنا بوتيرتين: وتيرة طبقة ثرية تمثلها بورجوازية تتعلم كيف تصارع -لمصلحتها فقط- العولمة الكاسحة، ووتيرة شبيبة عاطلة تعيش في كفالة أسَرٍ تتخبط بدورها في مستنقع الفقر؟ ويقر الشاهدان الألمانيان -الذين يمثل نظام حكم بلدهما نموذج الديموقراطية القوية الراسخة- بحاجة بلدهما إلى حكومة قوية قادرة على مواجهة العدوان الأمريكي، لأن العدو في نظرهما يكمن -حين نتحدث عن العولمة- في الرغبة الأمريكية في الهيمنة. قال الشاهدان:

" لابد إذن من وجود حكومات قادرة بمثل هذه الإصلاحات على التحرك وعلى مواجهة مؤسسة المال الدولية الجديدة دون أن يردعها ترهيب الرساميل.

"الأمة الوحيدة التي تستطيع اليوم -اعتمادا على قواها الذاتية- أن تحدث تغييرا في الوجهة هي القوة العظمى الاقتصادية الأمريكية للولايات المتحدة الأمريكية.

(1) Le piège de la mondialisation, solin-actes sud,P.294-295

"لكن احتمالات قيام الأمريكان حاليا بمبادرة ترمي إلى إلجام قوى السوق لفائدة كل الشعوب منعدمة، بل من المنتظر أن تراهن الحكومات الأمريكية القادمة على حلولٍ (ظاهرية) ذات طابع حمائي، وأن تحاول جلب امتيازات تجارية لها على حساب البلدان الأخرى.

"هذا الأمر يناقض بتاتا العرف الأمريكي. فالولايات المتحدة المنكرة للذات، الساعية إلى مَدِّ يَدِ العون إلى باقي دول العالم لم يكن لها وجود قطُّ، لأن حكوماتها المتعاقبة -مهما كان لونها- تمتثل دائما لما تعتبره مصلحة وطنية لها.

"فقد مضى زمن كانت الحاجة فيه ماسة إلى أوربا غربية مستقرة ومزدهرة لمحاربة "إمبراطورية الشر" في الشرق ومواجهة الشيوعية بوجه الرأسمالية المشرق. أما الآن، فلم تعد واشنطن تحتاج إلى أوربا للقيام بهذا الدور"[1].

عدل ومظالم

لا تستطيع أمة قليلة بنفسها، ضعيفة الإيمان بمبادئها، متخبطة في تناقضاتها أن تخوض المعارك الحاسمة. ولن يستطيع إنقاذَنا إلا تطوعٌ جماعي وتعبئة شاملة لمواجهة قوى السوق العالمية الهائجة. تعبئة إسلامية تمكننا من لم شملنا وإعادة تنظيم

(1) Le piège de la mondialisation, solin-actes sud,P.229

دفاعنا، لنتخلص من طوق الخناق الذي ما ينفك أخطبوط المال الدولي بزعامة أمريكا المتعجرفة يضيقُ رِبقته علينا.

فالفخ الاقتصادي الذي وقعنا فيه من قبل والداروينية الاجتماعية التي خرجت من رحمه يعتديان، وسيجتهدان في الاعتداء، على حياتنا. إنهما لا يهددان فقط سلاما اجتماعيا هشا في بلداننا بل يهددان وجود أمتنا برمته. لسنا طارئين على التاريخ، وضعفنا ليس عاهة ورثناها عن أسلافنا، بدليل تاريخنا الضارب في أعماق الزمن، لكن سنة "تداول الأيام" الإلهية ومنطق التاريخ لن يحابيانا.

فمادمنا لا نطبق الشرع القرآني ونحرف القوانين الإلهية التي تحكم سير البشرية، فسنظل قابعين في الصفوف الخلفية، وسنبقى متخلفين عن ركب المنافسة الضارية التي لم يعد يسترها "وجه الرأسمالية المشرق".

مرضنا يتجسد في أعراض التخلف، وسوء توزيع الثروات والخدمات، وشتى أنواع الظلم والفساد المعمم الذي اعتمدته الأجهزة الفاسدة أسلوبا للتدبير والحكم. لكن هذه الأعراض البالغة الخطورة لا ينبغي أن تحجب عنا جذور الداء. فلا يمكن لإصلاح دستوري جزئي هنا أو قانون انتخابي هناك – يخونه واضعوه فور صياغته– أن يخرجنا من المأزق. نستطيع أن نُشفَى من مرضنا إذا ما هاجمنا الفيروس لتختفي الأعراض بكل يسر. نستطيع أن نصعد من الدرك إذا ما نجحنا في التغلب على القوى التي تشدنا إلى الأسفل. شفاؤنا وصعودنا رهينان بثقتنا بالله ثم بقيمنا.

أي أمل للأعرج الذي يحجل على رجل خشبية في الفوز في سباق مائة متر؟ رجلنا الخشبية المهترِئة هي نظام القوانين الوضعية التي يخرقها مدبرو مجتمعنا قبل غيرهم. فالداء يسري في الجسد كله، ومعاول القيم الأنانية للائيكيين المتشككين المتسلطين على مؤسساتنا والقوانين اللادينية المستورة تجتهد في تخريب مجتمعاتنا.

لابد من عودة إلى الله، لابد من ميثاق تلتف حوله مكونات مجتماعتنا، مشهدة عليه الله، داعية الله أن يكون به كفيلا، حتى تَتَفَتَّقَ الفضائل الأخلاقية والاجتماعية -المنبوذة اليوم- وتزدهر: فضائل النزاهة والاستقامة والإتقان والوفاء بالعهد والعدل.

شرطان ضروريان لضمان الاستقرار الاجتماعي في دولة القانون، هما العمل والحق المضمون لكل فرد. لذا لا بد لأمة الإيمان أن تُؤَمِّنَ الحد الأدنى من العدل حتى لا يتضرر أحد، وحتى يتمكن كل فرد من المساهمة بكل اطمئنان في الجهد المشترك. فالظلم الذي سلط علينا من الخارج ليس سوى العقاب العادل للظلم الذي يمارسه بعضنا على بعض. الإيمان بالله مع ما ينبثق منه من تعظيم لشرعه قادر على إيقاظ هممنا وتثبيت خططنا، لأن الإيمان بالله عز وجل لا ينفك عن احترام شرعيته. بهذين الرباطين المقدسين -الذين تكفلهما تربية المسجد- ستتراص صفوفنا من جديد يدعمها التضامن والثقة، وينير طريقها ويدعم جهودها ثقتها بالله وبموعود الله. بذا سنتقدم واثقين بربنا، مصطلحين مع أنفسنا، مستهدين

بالكَلِمِ الرباني الذي سيمنعنا من التولي أمام زحف العولمة وغيرها من المصائب العظمى الحديثة.

نقرأ موعود الله تعالى في سورة النور: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[1].

الأمر إذن إيمان وإخلاص للواحد الأحد وعبادة له، وقهر للخوف وثقة وأمل. موعود رهين بشرط، والشرط واضح لا لبس فيه ﴿**يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً**﴾. تُفَصِّل هذا الشرَط الوصايا الموجهة إلى المؤمنين المبايعين لله عز وجل أن يخلصوا له أولا ثم يعدلوا. ففي سورة النحل أيضا أمر ووصية بسلوك اجتماعي لا تكمل عبادة المؤمنين إلا به. آيتان تكذبان ادعاء اللائيكية أن شؤون المجتمع لا تَمُتُّ بأية صلة إلى الدين. قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ**﴾[2].

(1) الآية 55.
(2) سورة النحل، الآيتان 90-91.

ميثاق علينا أن نُشهد الله عليه وأن نجعل الله عليه كفيلا. ثم ننطلق لنجتهد في رفع الإصْرِ الذي طالما نَاءَ بكواهل فئات عريضة من الشعب. بصياغة جمعية منتخبة تقترح على الأمة دستوراً جديداً وبتعديل للمؤسسات القائمة يستهدف تحقيق مزيد من النزاهة والعدالة، نستطيع تمهيد السبيل أمام حركية جديدة ونستطيع بحول الله حل المشاكل الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والحضارية المستفحلة.

لا يمكن لبنياننا أن يكون راسخا إذا ما أسس على جُرُف الانحراف الهاري. لن نكون سوى نسخ باهتة للآخرين، نسخ جوفاء ميتة، إذا ما تمادينا في استيراد أفكار الآخرين وقيمهم دون تمحيص.

مأزق الرأسمالية

كل محاكاة لا تبالي بخصوصيات الإسلام وغاياته لن تقود في أرض الإسلام إلا إلى الخيبة ثم إلى الكارثة. وكل جهد –مهما تكرر– يرمي إلى الإصلاح دون تحكيم الأخلاق في الحياة الاجتماعية والعائلية والسياسية سيؤول حتما إلى الفشل. ولنعتبر بالمجتمعات الغربية الرأسمالية التي تعاني مصائب تنبه إلى خطورتها أكثر المفكرين الغربيين نباهة.

عبثا تبحث الديموقراطية الغربية عن وسيلة لإيقاف طاحونة الفساد الأخلاقي والإداري، ففي إيطاليا لم تنجح عملية "الأيادي البيضاء" في قطع دابر أخطبوط

المافيا. وفي فرنسا، سرعان ما انمحت من الذاكرة عملية التلاعب بالرساميل المشبوهة بعدما أصدر تصويت بالأغلبية حكمه بالعفو عن الحزب الحاكم. كأنما الأخلاق معادلة إحصائية، مجرد قضية توازن برلماني!

دعك من المدارس الأمريكية التي أضحت ساحة اصطدامات مسلحة بين حشود أطفال رُبُّوا على عين العنف اليومي المعروض في الشوارع وفي شاشات التلفزة. تتبدد آمال الغرب في استعادة التحكم في التربية المدنية، كما يتبدد حلمه بتحكيم الأخلاق في الديموقراطية.

في هذا الفصل، سنحاول أن نعرض مشاكل التقدم، مدركين أن الارتباط بين الأخلاق والمال هي النقطة الحيوية التي يجب أن نسلط عليها الأضواء، لأن الشح والتعلق بالربح صفتان ملازمتان للفرد الفاسد الذي يقرعه القرآن الكريم، كما أن الخضوع للمال هو لب الرأسمالية التي تعيث في الأرض الفساد.

فلنصغ أولا إلى الحكم الخلقي الذي يصدره القرآن على المستكبرين. لنتدبر مثلهم ثم نتفحص حالة الاستكبار الرأسمالي المتعاظم، المتمثل في "العولمة". قال الله عز وجل: ﴿**أَلَمْ تَرَ** [أيها النبي وكل ذي قلب واع] **كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ**[أمة بائدة] **إِرَمَ** [أمة أخرى حق عليها العذاب] **ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ**

فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[1].

لا اختلاف بين مثال الرأسمالية الحديثة والأمثلة التي يسردها القرآن الكريم عن الأمم السابقة، فكل الشروط متوفرة: الاستكبار، الإفساد، السطوة والقوة، الادعاء. لذلك لن يلبث العقاب الرباني المناسب لفداحة الجرائم المعاصرة أن يصيب المسؤولين عن الفوضى المعاصرة والجور الـمُعَولَم.

وعيد الله عز وجل موجه إلى العالمين في جميع الأزمنة أن يتراجعوا قبل أن ينهار بهم شفا الجرف في الهاوية. فهل تسترجع الرأسمالية المعاصرة وعيها بعد أن انسدت الآفاق في وجهها، وتغير وجهتها قبل أن يحل العقاب بسببها بالبشرية جمعاء؟ وهل هي قادرة على التحكم في ذاتها؟

بعد الفحص السريري الذي أجراه للمريض، توصل الدكتور جاك روبان -صاحب كتاب "تغيير العهد"-[2] إلى تشخيص الوضع المتفاقم للداء، وأعلن أن علاجه مستعص جداً. فلقد جس هذا الطبيب نبض القلب الرأسمالي ونشر تشخيصا متشائما نستنطقه بتمعن لنرسم ملامح المثال الملموس المجسد للنموذج التاريخي الذي يسرد القرآن مأساته المتكررة:

(1) سورة الفجر، الآية 6-14.

(2) Jacques Robin, Changer l´ère, Edition Seuil,1989

"اليوم يمتد اقتصاد السوق الرأسمالية ليشمل مختلف قطاعات الأنشطة البشرية في جميع بلدان الكرة الأرضية -مهما تفاوتت درجات تقدمها- ليقودها إلى وضعيات تضاهيه [الاقتصاد الشيوعي] قساوة، وليصطدم بِعاهاته الذاتية.

"فالسوق لا يزعم فقط أنه يمثل كل الاقتصاد، بل يدعي أنه يُؤَمِّنَ له الضبط الذاتي. وهو ادعاء ينهار عند أول نظرة متفحصة، بل إن الاقتصاديين الليبراليين -الأنجلوسكسونيين منهم خاصة- يظنون أن لهم الغلبة حين يؤكدون بعجرفة أن اقتصاد السوق الذي تقوده "اليد الخفية" يحسن تدبير الإنتاج والتوزيع حسب رغبة الفاعلين. بينما يبرهن على عكس هذه الأطروحة وجودُ عشرين مليون عاطل في الاتحاد الأوربي، وأربعين مليون فقير جديد في الولايات المتحدة، ومليار أو ثلاثة ملايير منكوب في بلدان الجنوب".

قلت: لكن الرأسمالية -الجهاز الذي ينتج ملايين المنكوبين في العالم- لها وظائف أخرى في ديارها:

"فاقتصاد السوق -كما يقول ج. روبان مستنكراً- يخدم أولا الأغنياء والأقوياء، والدول تتعامل مع السوق باعتباره أداة منفذة لاستراتيجيتهما الشاملة، خاصة حين تستعمل التقلبات النقدية. إذ أن عمليات التحكم في الدولار الأمريكي تؤثر على الميزان التجاري العالمي أكثر مما تؤثر عليه اتفاقيات الأوروغواي راوند. وكما يعلم الجميع، تتحكم دول الشمال في الأسعار العالمية للمنتوجات الزراعية الأساسية".

ثم يعرض طبيبنا –الذي ينادي بتعويض العهد الرأسمالي بعهد آخر أكثر رأفة بالإنسانية وأكثر عدلا– أخطر الأعراض التي يعانيها مريضه: "والعيب الثالث أكثر خطورة، فاقتصاد السوق يكتشف اليوم عجزه عن التحكم في التحول الجاري، علما أن الأزمات السابقة لم تجد لها مخرجا سوى العنف والبؤس والحرب.

"أما اليوم، فنحن لا نواجه أزمة عارضة، بل نواجه تحولا تكنولوجيا وثقافيا عميقين، إذ أسفر ضغط التكنولوجيات المعلوماتية عن إنتاج لم يسبق له مثيل للخدمات والممتلكات، مع تقلص متزايد للعمل البشري. كما أننا نشهد تدهور قيمة العمل باعتباره لحمة المجتمع المتماسك.

"وبذا أصبحت السوق عاجزة عن توزيع الثروات الغزيرة التي تنتجها السوق المدبَّرة معلوماتياً، وتحولت العملة إلى أداة للاحتكار. كما تسارع تدهور البيئة بسبب التصنيع، لنعلم يقينا أن اقتصاد السوق هذا الذي يتمدد باستمرار يجرنا إلى وضع مناقض له تماما"[1].

العاهة الرأسمالية

مَن من نخبنا المغربة يتساءل عن المصير الذي تجرنا إليه الحداثة المدبَّرة معلوماتيا، المتسببة في مصائب الغالبية العظمى من البشرية؟ إن انتقاد المبادئ الأنانية ونتائجها

(1) La société en quête de valeurs, Op.Cit.P.P.163-165

المخربة يدلنا على المسؤول المباشر عن هذا الوضع. أما إذا رضينا بتلقي الصفعات التي توجهها الرأسمالية المتوحشة إلى اقتصادنا وتجاهلنا المبادئ التي تحكم علاقة الفرد المسلم والمجتمع المسلم بالمال، فسنبقى مجرد لقم سائغة بل سنكون شركاء في جريمة اغتيالنا.

فما الثمرات الخبيثة التي تولدت عن الرأسمالية المُنتجة للمظالم إلا أعراض للتشوهات الملازمة لاقتصاد السوق. مهما نددنا إذن بالسارق، فلن نمسك به أبدا ما دمنا لم نتمكن من تشخيص العاهة الوراثية المخزية للرأسمالية، عاهةٍ أصبحت بادية لعين كل محلل بصير: الربا وعبادة العجل الذهبي. ففي عرف الرأسمالية لا تعتبر الفائدة ربوية إلا إذا تجاوزت النسب القانونية، لأن القوانين المالية للبنوك المركزية الرأسمالية وللمؤسسات المالية الدولية تعين للمال حدا معينا لا يجوز لنسبة الفائدة تجاوزه حتى تحقق توازن الموازين الاقتصادية الكلية، وذلك يجعل المال يستفيد من المردود الثابت في مأمن تام. لذلك يضطر العامل والمقاول إلى الكدح لأداء الفائدة وتحمل الخسائر المحتملة وحدهما.

أما الحلم الكينزي الكبير الذي كان يقرن التشغيل التام لليد العاملة بنسبة الفائدة الصفر فلم يتحقق ولن يتحقق أبدا مادام الإنسان حبيس ميولاته الأنانية، ومادامت المجتمعات الحديثة لا تحركها إلا الحسابات الأنانية ولاتمتثل إلا لقاعدة الربح الرأسمالي.

في المقابل، تحتوي مبادئنا الإسلامية على الفضائل الفردية المتمثلة في البذل، والأخلاق الاجتماعية المتجسدة في العدل والمساواة. فالقرآن الكريم يندد بشدة بالقرض الذي يجر الفائدة، بينما يبالغ في مدح خصلة البذل. قال الله عز وجل: ﴿**وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾[1]. والقرآن الكريم ينوه بالصدقات السرية والعلنية، لكنه يدين الربا ويعتبره خطيئة لا تغتفر: ﴿**لَّيْسَ عَلَيْكَ** [يامحمد] **هُدَاهُمْ** [إلى الصراط المستقيم] **وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ**﴾[2].

ثم تلح الآيتان التاليتان على خصلة البذل قبل أن تعالجا موضوع الربا، قال الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾[3].

(1) سورة البقرة، الآيتان 270-271.
(2) نفس السورة، الآية 272.
(3) سورة البقرة، الآية 275.

هذه الآية المقدسة تفتح في وجوهنا آمالا عريضة نحن الذين نعيش وضعا مماثلا للفترة الانتقالية التي شهدها عصر النبي صلى الله عليه وسلم. فالربح الحرام الذي سنضطر إلى تحمل رواجه حينا من الدهر خطيئة نسأل الله عز وجل أن يغفرها لنا، إذ سنكون مجبرين على ترك هذه الأرباح تتداول إلى أن تمكنا إعادة توجيه وتنظيم الأنظمة النقدية والمالية في البلدان الإسلامية من الاستقلال النسبي عن مؤسسات المال العالمية، رسمية كانت أم غير رسمية.

لا تزال جهود المؤسسات البنكية الإسلامية التي تشغل الاستثمارات التشاركية –حيث يتحد رأس المال بالعمل بعيدا عن الاستغلال البشع للقرض الربوي– تخطو خطواتها الأولى، قانعة بنتائج واعدة. ثمرات ضئيلة منتزعة من قبضة القوى المهيمنة على السوق المالي العالمي تتعيش بها الأبناك الإسلامية المتسللة بين فجوات النظام العالمي العملاق. لكنها ثمرات لا يستهان بها مادامت تبشر بإمكانية الخلاص وتخطي السبل الموصلة إليه. ويوم يبلغ المسلمون الرشد السياسي واليقظة الخلقية والروحية، سيجتهد مسلمو العالم جميعا لتوحيد خطتهم وتحريك طاقاتهم، المشتتة اليوم، المعطلة. لابد لنا يومئذ من جهد جماعي تحدوه رغبة صادقة في الإفلات من نقمة الله عز وجل الذي يحذرنا من عبادة العجل الذهبي. قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ**﴾[1]. هكذا

(1) سورة البقرة، الآيتان 278-279.

تصور الشريعة الإسلامية فظاعة الممارسة الجائرة. فالمال المتورع المنضبط يجب أن يُرَوَّج في المجتمع الإسلامي باعتباره مساهمة من طرف المدخرين والمقاولين والعمال في رأس المال بدل أن يعدُوَ خلف مكافأة سهلة تمنح لرأس المال. أما البنك الإسلامي فسيكتفي باقتطاع المبلغ الضروري للتدبير دون أن يُسمح له بأن يصبح وسيطا شرها. نسأل الله تعالى الغني الحميد أن لا تكون طريق الخروج من هذه المتاهة الشيطانية طويلة!

أية تنمية ؟

أية تنمية تُلائم حياة جماعية مبنية على قيم التضامن والتكافل التي يحث عليها الإسلام؟ هل لنا الخيار في سلوك سبيل آخر نحو التقدم الاقتصادي غير السبيل الذي تحدده وسائلنا وإمكانيات عصرنا؟ سؤال يناسب وضعنا الحالي.

ففي المسجد نستوطن الزمن الأخوي المطمئن، لكننا حين نخرج إلى الشارع ونعود إلى البيت، نستنشق هواء الزمن الحديث. لذا يجب على المسلم -بعد الخشوع والتضرع- أن يشمر عن ساعده ويكدح لكسب لقمة عيشه. فإن المجتمع المسلم محتاج إلى حد أدنى من الرفاهية المادية ليضمن بالمعاش الكريم الراحة الخلقية والروحية لرجاله ونسائه.

إسلاميتنا لا تجعلنا في مأمن من القاعدة الاقتصادية، والعلة الاقتصادية لا دواء لها إلا الدواء الاقتصادي. لكن الاقتصاد الحديث العهد الإمبراطوري

الخاضع للشركات الدولية العملاقة لا يدع لنا منفرجا ضيقا لنتسلل عبره إلى فضاء الكفاية والعيش الكريم إلا بتركيز جهودنا وتجميع قوانا الذاتية. يبدو أن اليوم الذي ستتمكن فيه الشعوب المسلمة من التأثير على اقتصاد مُعَوْلَم لا يزال بعيدا. فرغم نفطنا وغازنا، ورغم مواردنا المادية والبشرية، لايزال تأثيرنا على الميزان الدولي تافها، لأن وعينا بهويتنا منعدم، ولأننا نفتقر إلى أحد أهم عوامل التنمية: عدل حر، وحرية عادلة.

لن تلبث الحكومة الإسلامية المعلنة عن رغبتها في الاستقلال والمطالبة بالعدل أن تصبح هدفا للاتهامات المعدة سلفا للمشاغبين، لتنهال عليها بعد ذلك سياط الحصار الاقتصادي والعقوبات المالية. أما إذا أضفنا إلى هذه التهديدات الثقل المفرط للدين الخارجي والصدمة التي يحدثها كل تغيير للنظام، فسندرك مدى ضرورة التوكل على العون الإلهي ثم الاعتماد على جميع قوانا الذاتية.

في ديارنا، تكدست ثروات ضخمة جمعت بأساليب ملتوية: مظالم ستجلب على المسؤولين عنها في الآخرة عقوبات مثالية، لكن نظرا لنسبية حاجتنا الحيوية إلى الرساميل ولسهولة تهريب الأموال إلى الخارج، فإنه لابد أن تَغُضَّ الحكومة الإسلامية الحكيمة الطرف عن مصدر الثروات المشبوهة التي جمعها هذا المدلس أو ذلك الناهب. لا بديل عن الاندحار الاقتصادي والإفلاس المالي إلا العفو الاقتصادي، ليفتح العفوُ بَابَ التكفير عن خطايا الماضي بالمشاركة النشيطة النزيهة في تنمية البلد، وحتى يتمكن كل واحد من إصلاح ما أفسده ويقدم

الدليل على توبته بالعمل البناء. ثم لابد من تفكيك جماعات الضغط الاقتصادية الإقطاعية دون تحطيم الجهاز الاقتصادي الموجود. ومع تشجيع القوى المنتجة التي تتحكم فيها البورجوازية النزيهة، لا بد من الضرب على أيدي اللصوص الكبار دهاقنة الأمس الغابر: رهان مزدوج لا سبيل إلى كسبه إلا بالحكمة واليقظة.

قد تكون عملية فصل الغث عن السمين هينة إذا تمت في حقل مُوَظَّب، لكنها لن تكون سهلة وسط أدغال الغابة الرأسمالية. فواجب المحافظة على حياة الناس وحماية المال المشترك وتزويد البلاد بجهاز اقتصادي متين سيدعونا إلى تطبيق سياسة اقتصادية تتناغم فيها الصرامة الأخلاقية مع متطلبات الضرورة الواقعية دون المساس بالمبادئ الأساسية. فنحن لا نؤمن بالمنهج الستاليني في إبادة الإقطاعيين وإهالة التراب على الماضي الكريه، بل ندعو إلى توبة جماعية في جو تسوده الأخوة الإسلامية المسترجعة. لابد إذا من تعبئة وتهذيب الحياة العامة مع التحرز من الرخاوة البلهاء. فرغم أن ركب التنمية لا تقوده الأوامر العسكرية، إلا أن صفحة التسامح الجديدة يجب أن تفهم الجميع أن عهد الاستخفاف بالقانون قد ولى إلى غير رجعة.

ستفرض مرحلة التقشف الضرورية للإقلاع الاقتصادي وركام المشاكل الموروثة عن الزور أن يكون للتعبئة والتهذيب الأخلاقيين –بعد فترة العفو اللازم– الحزم حين اتخاذ القرار. ستضطرنا الحاجة الملحة إلى الاستثمارات

المنتِجَة وتخوف الرساميل الأجنبية النافرة من المخاطرة دون ضمانات قوية -إضافة إلى فضيلة العفو الجوهرية في الإسلام- إلى تحمل الأموال المشبوهة.

لكن إذا علمنا أن الرأسمال الأجنبي والمهارة الأجنبية رغم ضرورتهما لا يمكن أبدا أن يعوضا الادخار المحلي والمهارة البلدية فسندرك مدى الحاجة المطلقة إلى مداراة الرجال والأموال. ولنسترشد بمثال النبي صلى الله عليه وسلم الذي عفا حين دخوله مكة فاتحا عمن عذبه من قبلُ.

سيكون إذن من اللازم أن نرسم إطاراً قانونيا جديدا ونضعه موضع التنفيذ لتبرز الخطوط الكبرى للأخلاقيات الإسلامية في مجالات التجارة والصناعة والاستثمار والأبناك والمقاولة والإدارة والشركات متعددة الجنسيات، وغيرها من المجالات الحيوية. سيكون من اللازم تشجيع الاستثمار الإنتاجي وردع المضاربة العقيمة. سيكون من الواجب على الرأسمال الذاتي، تحرسه عين الحكومة اليقظة، أن ينكب على مهمته الأساسية: تزويد المجتمع بلقمته اليومية ومواجهة الأمواج العاتية للمنافسة الدولية الضارية التي تلوح فوق رؤوسنا بسيف السوق المفتوحة التي يَتحكم فيها قارونات المنظمة العالمية للتجارة.

يزخر محيط السوق الحالية بغيلان مفترسة ستُسيل لعابَها وعود السوق المفتوحة. لذا سيكون لازما على الحكومة الإسلامية أن تضمن حقوق المستثمرين وتهيئ البنيات التحتية الضرورية والمناسبة للتنمية لكنها لن تستطيع غزو الأسواق وإقناع الزبناء إذا لم تلتزم ببنود الاتفاقيات الشاملة.

ستكون الحكومة منشغلة بمشاكل أخرى أضخم، أولها وأعقدها قضية الإدارة الفاسدة، المترددة، البيروقراطية، البطيئة، المدمنة على التلاعب بالقانون المراد تغييره، علما أن اللجوء إلى زخات من القوانين الجديدة -المتقشفة طبعا- لن يثمر إلا إذا سبقه إصلاح عميق للنظام القضائي والجهاز الإداري.

أما ثالثة الأثافي فذات طابع اجتماعي آني: التوفيق بين اقتصاد حر يحكمه قانون التنافسية الغابوية التي تجبر المقاولات على التخفف من أكبر عدد من مستخدميها، وبين الضرورة الاجتماعية الاقتصادية التي تفرض المحافظة على مناصب الشغل الموجودة وخلق أخرى جديدة لمحاربة البطالة وتأمين حد أدنى من العدالة الاجتماعية.

تبقى العقبة كؤوداً: إدارةُ سياسة تعديل عام مقرونة بسياسة تنموية ثم بسياسة اجتماعية تحت سياط قرارات الهيئات المالية الدولية التي تُكره البلدان المدينة على تبني خط سلوكي غير إنساني أهم بنوده إلغاء صناديق الدعم.

موعود الله وحده يمنعنا من اليأس!

مقاولة إسلامية محمية

إذا كان المجتمع الإسلامي الذي ننشد بناءه يقوم على التضامن وعلى حد أدنى من الرخاء الشامل فإن المقاولة العصرية تنبني على أسس أخرى وتستهدف غايات مختلفة: المردودية والبقاء في سوق تحكمه المنافسة الضارية. لا عاطفة

تحكمها ولا نزعة إحسانية تستحثها، مادامت قيود السوق تلزمها بتطبيق مبدإ "مرونة التشغيل" الذي يعني قبل كل شيء فيما يعنيه العمل الجزئي والطرد والبطالة.

ما السبيل إذن إلى جعل المقاولة تقوم بمهمتها الاقتصادية دون أن تتخلى عن وظيفتها الاجتماعية؟ كيف يمكن للحكومة أن تحمي في نفس الوقت المستثمر والمصالح الاجتماعية التي يضمنها الشغل؟ منطقان مختلفان لابد من التوفيق بينهما كما تحاول ذلك اقتصادات جنوب شرق آسيا بمساعدة الحكومات التي تحمي مصالح هؤلاء وأولئك.

فللإفلات من قبضة دركي العالم (أمريكا) وإحباط الخطط التي ترسم في بروكسل وواشنطن لا بد من استلهام نماذج أخرى وتكييف الحكمة الآسيوية لغاياتنا ولوضعنا. لسنا مطوقين تماما بضرورة الخضوع للمعايير الدولية، بدليل نجاح الاقتصادات التي تمكن القزم سنغفورة من الزئير مع الأسود وقذف الذهب في معترك التِّنِّينات.

فلتعلُّم مناهج التدبير الجديدة، لابد لمقاولاتنا أن تتخلى أولا عن العادات السيئة، إذْ عالم اليوم أرض عذراء تنتظر أن يستوطنها مستكشفون من رجال الصناعة العصاميين، المغامرين المحنكين المقتحمين. يجب أن تخلي المقاولة العائلية المكان لتقنيات الإدارة، وتنحني العقليات المتحجرة أمام المديرين الشباب القادرين على مواكبة التطور المتواصل للمعارف ولمناهج العمل.

إنَّ "الرفع من المستوى" الذي يُتَرَنَّمُ به صباحَ مساءَ والذي يُقْتَرَحُ علينا نموذجُه وسنده، لن يتم إلا بتعبئة مستقلة لـ"مواردنا البشرية". أما نموذج "الجودة الشاملة" التي تمثل شرط البقاء في السوق المفتوحة التنافسية فيجب البحث عن نموذجه في بلد كاليابان حيث يتزاوج فن التسويق عند البيع و"المسحة الروحية" عند الإنتاج.

على مقاولة ما بعد الحداثة –ما بعد الصناعة– في المجتمعات المتقدمة أن تكون ذكية مبدعة أو تختفي، إذ لاتوجد مصحات تجبيرية للبطات الاقتصادية العرجاء، أما نحن فنحتاج أكثر من غيرنا إلى الإبداع والذكاء في بلادنا المتخلفة، لأننا سنضطر إلى اقتحام عدة عقبات أهمها النظام المدرسي التكويني المختل والعتيق.

نرجع إلى رحلتنا مع الصحفيين الألمانيين الذين التقينا بهما من قبل لنتعرف على القدرة الشرائية للشغيلة مع تيسير مهمة المقاولات، وهو ما أثار إعجاب الألمانيين باقتصادات الشرق الأقصى. قالا: "لقد راهنت جميع دول الشرق الأقصى الصاعدة على استراتيجية هجرها الغرب الآن: أن تتدخل الدولة بقوة في جميع مستويات السيرورة الاقتصادية. فعوض أن تسلم أعناقها لسكين المنافسة الدولية كما فعلت ذلك المكسيك، طورت تنينات التوسع المسترشد بتوجيهات الدولة –من جاكرتا إلى بيكن– أدوات متنوعة مكنتها من التحكم في

عمليتها التنموية، إيمانا بأن الاندماج في السوق الدولية ليس غاية بل مجرد وسيلة تستخدمها بتحفظ وحذر.

"في البلدان الآسيوية ذات معدل النمو المرتفع، تسترشد عملية الانفتاح الاقتصادي على الأجنبي بمبدإ حاملة الطائرات الذي اخترعه اليابانيون فتفرض رسوما جمركية مرتفعة على الواردات، وتطبق توجيهات تقنية معينة لقطع الطريق على الواردات في كل قطاع اقتصادي يرى المخططون أن الشركات الوطنية تعاني فيه من ضعف يمنعها من مواجهة المنافسة الدولية وتحتاج فيه إلى حماية مناصب شغلها.

"لكن الأمر يختلف بالنسبة للإنتاج التصديري، حيث تسخر السلطات والحكومات كل الوسائل، ابتداء من الإعفاء الضريبي وانتهاءً بالبنية التحتية المجانية الممنوحة لهذا القطاع. كما يمثل التحكم في العملات أداة هامة تستخدمها هذه الاستراتيجية. فجميع البلدان الآسيوية تنسخ النموذج الياباني، وتلجأ إلى عمليات البيع التي تقوم بها أبناكها المركزية لتحافظ اصطناعيا على انخفاض القيمة الخارجية لعملاتها عن المستوى المطابق للقدرة الشرائية الواقعية في البلدان. ولذلك لا تساوي قيمة متوسط الأجور في جنوب شرق آسيا سوى واحد من أربعين جزءا من قيمة متوسط الأجور في أوربا الغربية إذا اعتمدنا في تحويلها على أسعار الصرف ولا تتجاوز حين تبلغ قمةَ قدرتها الشرائية ثُمُنَ المستوى الأوربي.

"لكن مهندسي التنمية الآسيوية لا يتدخلون فقط في أسعار رساميل الأسواق المالية في المدى القصير، بل يخضعون أيضا الاستثمارات المباشرة للمجموعات المتعددة الجنسيات لقواعد محددة. فماليزيا مثلا تنظم مساهمة مقاولاتها المُؤَمَّمَة والخاصة في فروع هذه المجموعات، وبالتالي تتأكد من أن عددا متزايدا من الأجراء المحليين يكتسبون المهارات الضرورية لولوج السوق العالمية، وللرفع من مستوى التأهيل العام لساكنتها، تستثمر كل هذه الدول قسطا هاما من ميزانيتها في بناء نظام تكويني فعال.

"وحين لا يكفي ذلك، تُبرم عقوداً إضافية عبر رخص وشهادات تؤمن نقل التكنولوجيا. وتسهر التوجيهات الخاصة بحصة الشركات الوطنية من الإنتاج الموجه إلى السوق العالمية على أن يبقى قسط كاف من أرباح التصدير في البلد ليشغل في خلق شركات وطنية جديدة"[1].

نسرد طويلا الشهادات الغربية المطرية لماليزيا المسلمة التي لم يعقها طابعها الإسلامي الغالب وتباريها مع التنينات الصغيرة التي تزاحم عمالقة الغرب لنستخلص العبر أولا، ولنبرهن على أن الإدارة الحكيمة للدولة يمكن أن تعبد الطريق أمام تحول مرن لا يضر بالحقوق التي يضمنها الشغل أو بالجهد الإبداعي النشيط الذي تبذله المقاولة.

(1) Le piège de la mondialisation, Op.Cit. p.p.188-190

فقر وتكافل

ثلاث مؤسسات يجب أن تقود مسيرة الاقتصاد وتؤطرها وتحميها وتفعلها:

1. حكومة مقتدرة مخلصة للمبادئ والقيم الإسلامية.

2. حركة نقابية مستقلة عن دواليب السياسة، مهتمة بالصالح العام، وأرباب عمل نشيطون وأذكياء، إذ لا يمكن لفضائل التضامن الجماعي أن تتفتح إلا في ظل ازدهار يتمتع به الجميع.

3. التطوع الباذل لسد الثغرات وتعويض النقص المؤسسي.

ولابد أن تمارس الحكومة سلطتها بحزم حتى يتفرغ كل واحد لمهمته، لأن احتجاجات النقابة المُسَيَّسَة لن تتوقف عن مدافعة مطامع أرباب العمل إذا لم تحسم الحكومة الراعية للمقاولة النزاع وتمتع الشغيلة بحقوقها العادلة، ولأن المزايدة والتعنت لا يمكن أن يقوما مقام سياسة تضمن مصالح الجميع وتستوعبها وتحسن تدبيرها.

إن آلة تفقير الشعوب –أعني بها الرأسمالية الإمبراطورية– لا تدع للاقتصادات الضعيفة إلا هامشا ضيقا تتحرك فيه. لذا يجب أن تنصف قوة العمل. إن إعادة الاعتبار للعمال في جو تسوده الكرامة والتفاهم المتبادل كفيلة بمنع الاصطدامات بين قوة العمل والمقاولة.

ففي ألمانيا حيث يُتَحاكَم إلى التفاوض والتوافق، تندر الإضرابات. أما في اليابان حيث يستمر المضربون كأنهم أعضاء أسرة واحدة، فيتميز الإضراب بطابعه الرمزي، إذ يكتفي المضربون بوضع ساعدة تعبر عن احتجاجهم للضغط أدبيا على الرئيس المتعسف، ومن ثَمَّ تبديد التوتر والمحافظة على السلم الاجتماعية التي توفر الراحة للجميع.

لابد إذن أن نرعى الإحساس بالتضامن لدى أرباب العمل والعاملين لنتمكن من مواجهة التهديدات الخارجية، فإملاءات الهيآت الدولية لا تهدد الاقتصادات الشاملة فقط، بل ترشح كل مقاولة وكل منصب شغلٍ للإفلاس. والشباب في ديارنا، شبابنا العاطل، اليائس من أي مستقبل كريم، عانى طويلا القيود التي يفرضها الممولون الدوليون. وما إجراءات التقويم الهيكلي القاهرة عنا ببعيدة!

لابد من السلم الاجتماعية لتحقيق التنمية المنسجمة، تنمية أساسها إنصاف تعجز السياسات البهلوانية المتأرجحة عن تأمينه للعامل. والعدل والسلم الاجتماعية مرتبطان في المجتمع المسلم المعظِّم لشرع الله بالتوزيع العادل للفائض الاقتصادي.فالزكاة –هذا الركن الإسلامي– صدقة واجبة ملحقة بالنفقات الضرورية لإقامة التوازن الاجتماعي والمحافظة عليه. الزكاة اقتطاع سنوي مفروض على رأس المال النقدي وعلى منتوجات التجارة والزراعة والماشية.

"الزكاة" تعني تطهيراً للمال الجاري الذي يجب أن يتداول، وإلا حلت عليه اللعنة، ونزعت منه البركة. بذا تشجع تعبئة الرساميل وتحفز الزكاة

-التي تقتطع كل سنة قسطا معينا- المدخرين الكبار والصغار على تنمية أموالهم. أما مداخيلهم فتوزع على ثمانية أصناف من المستحقين حددهم القرآن الكريم أولهم الفقراء والمساكين، لأن استئصال الفقر من أهم غايات الزكاة، ومن أبرز أهداف نظام التكافل الأسري والعائلي والإنساني. فقد "كاد الفقر أن يكون كفرا" كما جاء في الأثر. وبما أن الزكاة لا يمكن أن تقتطع من اقتصاد منهار، فإن المعركة من أجل التكافل وضد الفقر تبتدئُ بالتنمية العاجلة.

أما تدبير مداخيل الزكاة فستسند إلى إدارة نزيهة نشيطة تملك من سعة الأفق ما يدفعها إلى تخصيص حصة لابأس بها للاستثمار الإنتاجي بدل توزيع الحصيلة كلها على ذوي المتربة. بحيث تُؤسَّسُ مقاولات صغيرة ومتوسطة توزع الأسهم على الفقراء القادرين بمساهماتهم النشطة على تشغيل المقاولة. وهكذا، سيتمتن النسيج الاقتصادي وتُشَغَّل المقاولات المنبثقة عن أموال الزكاة وسيلة لاستئصال الفقر بمشاركتها في المجهود التنموي العام.

قبل حرب الخليج الثانية، قُدِّرَ المال الذي أودعه قارونات البترول في الأبناك الغربية بألف مليار دولار، مما يعني أن نسبة الزكاة المفروضة سنويا (2,5%) على هذا المبلغ تساوي خمسة وعشرين مليار دولار. لو أن هذا المبلغ المعتبر خصص لاقتصادات التكافل بدل أن يُبدد مال المسلمين في دور القمار والملاهي اللندنية، لكانت كفيلة بتقليص الهوة الفاصلة في مجتمعاتنا بين الفقراء

والأغنياء والتي تمثل مصدر الثورات الاجتماعية، ومنبع القلق النفسي والمادي للمحرومين الذين يتأملون -والحسرة تأكل أكبادهم- مشهد البذخ الذي يعرضه المترفون على أعين الناس بكل وقاحة.

لابد للتنمية التضامنية والتنافسية في السوق العالمية أن تقاوم البطالة بخلق مناصب للشغل والترحيب بالمبادرات الشابة اليقظة، لابد أن تمد المجتمع بالوسائل المادية الضرورية لتأمين المأوى للعالة وتلبية الحاجيات اليومية.

فهل يوجد حل لمشاكل التنمية في بلاد المسلمين لا يقوم على الجهد المتناغم للشعب الذي تعبئه النفحة الروحية النابعة من المسجد، الباثة في كيان المجتمع الإحساس بالأخوة الجامعة والتكافل الحقيقي؟ لابد للفضاء الاقتصادي حيث الجهد ينظم لينسجم مع المستلزمات الحديثة أن يصغي للنداء الخيري وأن يساهم في النشاط الخيري.

إن المسافة الهائلة التي تفصلنا اقتصادياً عن ركب المجتمعات الحديثة تفرض علينا أن نتتلمذ على الآخرين حتى نكتسب مهاراتهم. لكن أين سنعثر على الغذاء الخلقي والروحي الذي يضمن لنا -أفراداً- السعادة الأبدية ويكفل لنا -شعوباً ومجتمعاتٍ- الكرامة الدنيوية؟ أين سنبحث عن غذاء لأرواحنا إذا لم نجده في قرآننا وقيمنا؟

إن العامل البشري والكفاءة البشرية ونزاهة الرجال والنساء ونياتهم الحسنة هي العوامل الحاسمة في التنمية والتكافل. لذا فإن أولى الأولويات في هذا المجال

هو التعليم والتعلم حتى تكون "مواردنا البشرية" على أتم الاستعداد لكسب رهانات المستقبل.

يكمن الحل الإسلامي لمشاكلنا -خاصة منها مشكل التنمية الحاد- في إقناع مُمَوَّلينا وفعالياتنا بأنهم حين يخدمون المستقبل الاقتصادي لبلدهم، يؤمنون مستقبلهم هم بالذات، لأن هجرة الرساميل والأدمغة تمثل نزيفا حاداً يفرغنا من مادتنا الحيوية. لابد من العودة إلى المسجد لتلاوة القرآن من جديد وسماع الموعظة حتى نستعيد الثقة بالله، ونتعاهد بصدق على التجند تحت لواء الإسلام المقدس. أولسنا جميعا مسلمين؟

نموذج الحياة الجماعية

لن نسير قُدُماً، لن نعرف سوى النكسات تتلوها النكسات إذا لم نستمد قوى جديدة من نبع قيمنا الصافي. فالعاطفة الجماعية والخلق الجماعي هما دعامتا التنظيم المثالي للمجتمع الإسلامي المبني على التكافل والبذل.

منذ الصدمة التي أصابت العالم الإسلامي حين احتك قبل قرنين بأوربا الحديثة، لم يتوقف المسلمون عن التساؤل: ما سبب تفوقهم علينا؟ لم هم أحكم تنظيما وأحسن حكما منا؟ لماذا؟... لماذا؟ أوقعتنا مقارنة أنفسنا بالآخرين في حرج عميق دفع بعضنا ممن تربوا في أحضان الغرب فمالوا إلى إصدار حكمهم النهائي: الإسلام هو المصدر الوحيد لمصائبنا !

لكن هذا الحكم العدائي لم يعد له نفس الوزن الذي كان له، خاصة بعد أن تتالت النكسات المريرة، بعد أن صحا الفضلاء منا على ضرورة تفحص أعمق لذواتنا وذوات الآخرين. بل إن الذين استسلموا البارحة دون مقاومة، بدأوا اليوم يفقدون يقينهم أمام إلحاح الأسئلة اللاذعة التي لم تجد لها بعدُ جوابا: مسألة التنمية التي لم يَحُلَّ ركبها بديارنا، وقطار الديموقراطية الذي لم يصل إلى محطاتنا حيث تنتظره أفواه جائعة وشباب معطل وحقوق ضائعة. ننتظره نحن المنبوذين، مشغولين منشغلين بمخادعة أنفسنا حين نعطي ثِقَتَنا لِساسةٍ يُلَوِّحون للشعب بِشَبَحِ "مواثيق الشرف" ليتسلى بالأشباح جمهور مغفل.

إن العودة إلى المسجد وإلى القرآن ستمكننا من الالتقاء بالنموذج المثالي للحياة الجماعية التي غابت عن حياتنا ولم تبقَ حية إلاَّ في ثنايا النصوص وفي قلوب الأتقياء والتقيات. سيتردد النداء الداعي إلى هذا النموذج ليبلغ الآذان: أن هلموا إلى العمل الصالح لإنقاذ أنفسكم، وقوموا لتبنوا مجتمعاتكم، وأقيموا الوزن بالقسط، بالعقيدة والشريعة! فالروابط الجماعية لنموذج المجتمع الإسلامي جوهرها البذل والإيثار وخدمة الغير، والنواة الحية للجماعة هي الأسرة، ليس باعتبارها خلية ضيقة، بل باعتبارها فضاءاً جتماعيا آهلا بالأقرباء الأقربين والأبعدين الذين ندين لهم بحدبنا ورعايتنا.

وبما أن قيمة كل حضارة تتحدد انطلاقا من معاملاتها لضعفائها (الأطفال، المرضى، اليتامى، الفقراء، المسنون، المستضعفون)، فإن الإحصاءات ستكذبنا

إن ادعينا حاليا تحقيق أي إنجاز في هذا المجال. لكن النموذج الإسلامي المبتغى والنداء الإلهي يرسمان لنا الأفق، ويدلان على الطريق الموصلة إلى حياة جماعية أفضل وأعدل في حق هذه الأصناف من الناس.

فالأمر الإلهي يخاطب المؤمنين، يحثهم على تكريم أمهاتهم وآبائهم أولا، وعلى إفاضة الخير على الأقرباء وعلى كل إنسان. أما الملاجئ التعِسة التي يلقي فيها الغربيون بآبائهم وأمهاتهم دون أن يشعروا بأي ذنب فلا تَمُتُّ بأدنى صلة إلى ما يحضنا عليه الله عز وجل من احتفاء مُشِع بالمحبة والامتنان للذين سهرا على رعايتنا وتربيتنا في الصغر. بل إن المؤمنين لا يفترون أبدا عن التضرع إلى ربهم أن يحفظهم من هذه الجريمة الكبيرة –عقوق الوالدين– امتثالا لأمر الله عز وجل: **﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾**[1].

(1) سورة الإسراء، 23-27.

سأتحدث فيما بعد عن التبذير وعن الأخوة الشيطانية للمبذرين، لكن لنلح قبل ذلك على أم الفضائل: الإيمان. لنذكر بأن مهد الإيمان بعد الأم التقية والأب الورع هو المسجد والمدرسة الملحقة به التي تستمد القوة والثقة من المخزون الجماعي.

فالصلوات الخمس مناسبة يلتقي فيها المؤمنون ليتزودوا روحيا وخُلقيا حين يحتكون بجماعة المسلمين، احتكاك بالنفوس المتطهرة لازمٌ للمحافظة على الإيمان، كما أن إعادة التأهيل الدائم والتكوين المستمر ضروريان لكي تتمكن أطر المقاولة من مسايرة عجلة التقدم المتسارعة. مقارنة غليظة بعض الشيء.

وهناك حصص علاجية مصَاحبة للصلوات الخمس تغذي الإيمان وتدعمه، هي الندوات وحلقات الدراسة و"الموائد المستديرة" المُقامة على الحُصُر في المسجد، المخصصة للتذكير بالله والتناصح في الله.

أعمدة الإيمان هذه يوصي بها النبي صلى الله عليه وسلم ليعلمنا أن المتزودين منها تتلاقح أرواحهم باستمرار وتتعطر أنفاسهم. ففيها تتجسد الجماعة المتلاحمة في الدنيا، المتقاسمة في الأخرى عطاء غير مجذود. وفيها يظفر المؤمن بالعافية الخُلقية والسلام النفسي. وفيها يستحم ويتطهر في حوض الحب الأخوي. وفيها يستعد للانطلاقة الجديدة بعيداً عن مستنقع الأنانية والنفاق، مادّاً يد العونِ للبائس والفقير.

ذلك هو الخُلُق الأصيل والكرم الصادق المنبثقان من الإيمان الحق بالله، المتميزان عن "الخلق" السياسي الحديث –خُلق المظاهر– وعن كرم التباهي الذين يحدثنا عنهما الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي جيل ليبوفتسكي، قائلا:

"حين يُهيمن إعلام الصدَقة، يصبح النشاط الخُلقي نابعا من الحسابات الإعلامية بدل أن ينطلق من المبادئ الخُلقية، فيتزايد تحكم وسائل الإعلام في القضايا التي تنجح في إثارة الأريحية وتوجيهها، وتُمَكِّنُ التكافل من التجذر في الشعب، لكنها في نفس الوقت تُحرر الأفراد من الالتزام. فهي تملك القدرة على التعبئة الخيرية. لكنها تحرر القلوب من الشعور بالذنب (ففي مجال استهلاك الصور والاستعراضات الخيرية تمحو كل مأساة سابقتها) وتُساعد على تآكل واجب مدِّ يد العون إلى الآخرين بانتظام"[1].

تصَنُّعٌ إعلامي وتآكلٌ أخلاقي!

لكن المنظمات غير الحكومية ما فَتِئتْ تُحقق إنجازات رائعة تجعلنا نأمل أن يأتي الغربيون يوما ما إلينا لنتعاون جميعا على ترسيم مجالنا الحيوي المشترك المخرب، وعلى التصدي للآلة الرأسمالية الطاحنة للحياة البشرية، لكي لايموت بعد ذلك أيُّ طفل جوعا، وحتى لاتُستنزف طاقته الضئيلة من الصبح إلى المساء مقابل أجرة حقيرة.

(1) La société en quête de valeurs,Op.Cit,p:29

تراث مخَرَّب

يعترف حكماء الغرب الحديث بالتآكل الخلقي الذي يصيب المجتمعات الغربية ويزعزع أسس القيم التي مازالت تستند إليها. لكن آثار الحداثة المنتجة بوفرة للأشياء النافعة والضارة تتعدى كل الحدود، فهي تهاجم التراث المشترك للإنسانية، وتدمر الغلاف الحيوي الذي تخنقه منذ عدة عقود، متكالبة عليه بوتيرة رهيبة في نهاية هذا القرن. ففي عهد هيمنة السلام الأمريكي، تُسَخِّن الغازات الملوثة الكرة الأرضية، وتهدد البلدان المنخفضَة الفيضاناتُ مثل بنغلاديش التي تعاني من الأعاصير الموسمية والمجاعة المزمنة. خُرقت طبقة الأوزون ففقدت البشرية غطاءها الواقي، لِتَبْرُزَ ظواهر مناخية مدمرة (أولها ألنينو) تولدت عن الاقتناع المَرَضي للمجتمعات الاستهلاكية الغربية بمركزيتها وعن تهورها الخطير.

كما أن تفاعلات النمو المفرط الذي تحتكره 20 % من المجتمع البشري تغرق 80 % الباقية في مستنقع البؤس وترفع السد الذي ستصطدم به عاجلا أم آجلا مسيرة النمو الاقتصادي العالمي، والذي بدأت معالمه تتجسد في ظواهر منذِرة لم يتنبه لها –مع الأسف– إلا حفنة من أنصار البيئة المستشرفين للمستقبل.

فرغم استماتة "الخُضر" في إدانة التدمير المُمَنهَج لكوكبنا، ورغم التلوث الذي بدأ يهدد الغلاف الخارجي الملوّث بنفايات العهد الفضائي، لم يَعزِم أحد من الذين يملكون الإرادة السياسية في كبرى البلدان المُلَوِّثة على إيقاف عجلة

هذا الجنون المُدمِّر. فأمريكا ترفض التوقيع على اتفاقية التخفيض التدريجي لغازات البيت الزجاجي كما تمتنع عن توقيع اتفاقية توقيف إنتاج العبوات المضادة للأشخاص.

ويبقى "الخضر" في بلدان عديدة غرباء في مجتمع الاستهلاك غير المحدود، مجرد أقزام خضر خرافية تُصدِر شكاوى خافتة لا تبلغ الأسماع.

أما نحن، المتخلفين عن ركب التنمية، فلا نقدر انطلاقا من ضآلتنا الاقتصادية والسياسية أن نفعل شيئا آخر سوى الاحتجاج مع الذين يُدينون جريمة الاغتيال، اغتيال البيئة، مترقبين ارتطام عجلة النمو المتسارع لهؤلاء والبؤس المتفاقم لأولئك بالسد، متوجسين من الموجة المرتدة التي ستصيب المقتل من أضعف الفريقين: نحن!

فهل نحني الرقاب للتخلف؟

لا! علينا أن نظل واعين بأولوية الأولويات: أن نتفانى في تنمية قدراتنا كما يفعل الآخرون إلى أن تعثر البشرية على مخرج ينقذها من المأزق البيئي القادم لا محالة.

في انتظار ذلك الموعد، لابد أن نحتفظ بتضامننا مع المحتجين، ونحافظ على احترامنا للطبيعة. سنبقى طويلا أول ضحية لعملية التدمير المأساوية، وسنكتفي بالاحتجاج على تصحر بلدان الجنوب دون امتلاك القدرة على التحرك بحرية، إذ كيف يستطيع متخلف مُهَمَّش أن يؤثر على مجرى الأحداث؟

إن خسائر المجال الحيوي مرعبة تتطلب تضامنا ذا أبعاد كونية، وعملا ملموساً لإيقاف المذبحة: إتلاف للغابات في الأمازون، استنزاف للموارد الطبيعية، تلوث للهواء والبر والبحر بشتى أنواع النفايات السامة، إخلال بالتوازنات المناخية، توزيع جائر لمنتوجات التنمية على أقلية متخمة تنعم بِدفْء المساكن الفارهة، وأغلبية تموت جوعاً أو تكتفي بسد الرمق من مزابل الحضارة قابعة في مدن القصدير.

ثم إن العنف الذي تمارسه الحداثة على الطبيعة لابد يوما ما أن يقترن بالعنف الذي يمارس على الإنسان. فضحايا تشرنوبيل لن يحصروا في عشرات الألوف الذين أصيبوا مباشرة في الانفجار، بل ستظل أجيال متلاحقة تحمل سمة اللعنة النووية كما وقع لأحفاد الذين ألقيت عليهم القنبلة في هيروشيما وناغازاكي.

إن الحضارة البروميثية ترمي إلى ترويض الطبيعة وتسخيرها لتلبية شهوات الإنسان الحديث الذي لا يرتوي، لكنها لا تفلح إلا في تلويث هذه الطبيعة وحرمان الأجيال المقبلة من الانتفاع بها. ذلك لأَن الهجمة الشرسة على المجال الحيوي للإنسان هي في الواقع هجمة مباشرة على هذا الإنسان. ولأن تمزيق الطبيعة يعني نقض الميثاق البيولوجي الذي يجب على كل واحد أن يحترمه إن كان من الذين يريدون الخير لجميع الكائنات الحية. والقرآن الكريم يقرع الذين يفسدون في الأرض، ويخصص خمسين آية للحديث عنهم. بل إنه يتوعد الذين يعيثون في الأرض الفساد بما توعد به الظالمين والمعتدين: ﴿**وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ**

عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[1].

في انتظار أن يلحق الذين يسعون في الأرض الفساد بسوء الدار ليخلدوا فيها، بدأ العقاب الرباني يَحيقُ بهذه الدار. فبسبب خطيئة المسممين، هاهو السرطان يسري في أوصال الكوكب الذي كان من قبل مخضوضراً هاشا: اتسخ وجه الأرض، تزايد توقف الدورات الطبيعية، تداخلت الفصول، اختلت التوازنات البيئية، اضطربت آليات الطبيعة. أما الأمطار الحمضية والكبريتية التي تسقط على المراكز الصناعية في الغرب، أما طبقة الدخان الأسود السميكة التي تلف العواصم المترفة فليست سوى مقدمة لما ينتظر الإنسانية التي ستدفع ثمن الإفراط المستهتر لمجتمعات الاستهلاك.

هاهو الغرب الحديث العجول الذي يستفزه صَخَب الآلة الإشهارية يفرط في إنتاج كل شيء، حتى إذا ما أشبعت الحاجيات الطبيعية، انبعثت بفعل الجلبة الإشهارية حاجيات أخرى تحث على المزيد من الإنتاج، على المزيد من الاستهلاك، على المزيد من التلويث.

وهكذا يَصرِف الإفراط في الإعلام، في الإثارة، في التحريض، الناسَ عن النبإ العظيم، نبإ العاقبة والمآل، ليكون ذلك في نظرنا أخبث مظهر للجريمة النكراء، أشدَّ فتكاً من المخدرات، أفدح ضررا من الأذى يصيب صحة البدن.

(1) سورة الرعد، الآية 25.

ويبقى العمل الشيطاني الذي يستنكره القرآن -تبذير الأموال الخاصة- مجرد هفوة لا تقارن بالحملة الشيطانية الضارية على روحِ الإنسان.

مسؤوليتنا إذن كبيرة، نحن الذين علينا أن نواجه المبذرين لمال الإنسان، الحاضر منه والمستقبلي. خاصة بعد أن أصبحت التقنيات الوراثية تهاجم الكائن البشري مباشرة، تهاجم إرثه الإنساني، كرامته التي تميزه عن غيره من الكائنات، فتحاول تعديلها والتلاعب بها، بتشغيل تقنيات الاستنساخ ومضاعفة عدد الأفراد حسب الطلب. ولا ضير! فالإنسان في نظر الحداثة المجنونة لم يعد يتفوق على "دولي"، النعجة التعِسة في شيء.

سنكون فعلا حملانا وديعة تساق إلى المجزرة إذا لم نركز جهودنا -نحن الشعوب المسلمة- بعد اقتحام عقبة التخلف على انتقاد الأسس الخلقية التي تسمح بمثل هذه الجرائم الحديثة.

واجبنا بعد أن نمتلك أزِمَّة العلوم الحديثة، أن نعيد النظر في التكنولوجيا وفي وسائل الدمار الناتجة عنها. حينئذ، سيكون علينا صياغة تصور مستقبل آخر للإنسانية، يقوم على السلام والكرامة !

الفصل الثامن

الحكم

ابتكار مستقبلنا

تحديث الإسلام

الدولة القومية، سجننا

"الجبهة" الداخلية

تغيير

الديمقراطية؟ أية ديموقراطية؟

شورى

مسطرة ومؤسسات

دعوة وأمة

ابتكار مستقبلنا

لا ينبع سخطنا على الانتهاكات التي تمارس على الطبيعة من كونها ذات قيمة جوهرية ذاتية، بل من اهتمام الإسلام بتأمين مسكن صحي آمن للإنسان عساه يتحرر من القيود المادية التي تستعبده. أما الغرب فيعاني تعصبين اثنين: أحدهما يتفانى في تدمير الطبيعة، والآخر يعبدها من دون الله، ويعتبرها قيمة مطلقة بدل أن يكتفي بمصادقتها والدفاع عنها كما يفعل "الخضر". فالمحيط الحيوي عند أنصار علم البيئة العميق معبدٌ آهل بأصنام وقيم عليا تمثلها الكائنات الحية من حيوانات وأزهار ونباتات. وهذا المذهب الصنمي ينصب الطبيعة والأحياء سلطات معيارية، فيقلب النظام الذي أراده الله حين خلق كل نوع حي وسخره للإنسان الذي أوجب عليه أن يشكر الخالق المنعم فيعتدل في استعمال ما تفضل به عليه دون إفراط ولا مغالاة وثنية.

يجب أن لا تميل علاقة الإنسان بالطبيعة –مثلها في ذلك مثل علاقته بالمال– إلى المبالغة في التملك ولا إلى مذهب الجمالية الطبيعية، وإلا مسه الحيف إن هو قلب الأدوار فحول الطبيعة إلى معبود، حرم الإنسان من التمتع الكامل بنعم الله عز وجل. إن السكينة البدنية والصفاء الخلقي والطمأنينة الروحية طِلْبَةُ الوجود البشري في الدنيا، ولذا يجب أن تسخر كل الجهود لتوفيرها، بضمان البقاء البيولوجي أولا. وهو ما لا يتم إلا بالتنظيم الاقتصادي والسياسي الجيد للمجتمع.

لكن علاقة الفرد الحديث والمجتمعات الحديثة بالطبيعة تركز على النفعية المتمتعة، فلا تبتغي المؤسسات السياسية والاقتصادية الحديثة ولا القوانين الحديثة إلا الراحة المادية للإنسان، فلا تعرف ولا تعترف إلا ببعده البيولوجي.

لِذلك يجب أن يكون لمستقبل المجتمع الإسلامي الذي علينا أن نبتكره استراتيجية مختلفة تكيف وسائل الحداثة لأهداف الإسلام المتميزة. ونحن نعلم أن النفوذ السياسيَّ هو الذي يحدد بنسبة غالبة مستقبل أي مجتمع: اقتصاده وتطوره وقدرته على بلوغ غاياته والتغلب على انحرافات الواقع. لأن السياسة -بما تملك من سلطة- قادرة على التأثير في كل مظاهر الحياة العامة والخاصة.

يجب إذن أن تلتحم السياسة الاجتماعية والصناعية والزراعية والتربوية والإعلامية بالبحث العلمي وبخطط التنمية والاستثمار، لتندرج في استراتيجية شاملة تحدد الأولويات وتقيس الحصيلة بالمعايير الأساسية للفعالية المقترنة بطمأنينة الإنسان الروحية، طمأنينة المؤمن بالله واليوم الآخر، تخدُم راحتُه في الدنيا هَمَّهُ الأخروي.

لابد للانطلاقة الجديدة -إذا أرادت أن تتم تحت لواء الإسلام- أن تبني تصورا جديداً للحكم وتنظيماً جديداً للسياسة. لابد من نظام جديد يلائم الطموحات الجديدة. لابد أن يرحل المجتمع التقليدي المكون من ذرات حيَّدتها قبضة الحكم المطلق المتقمص بذلة الديمقراطية لتحل محله أمة حية مشاركة. وهذا التحرر والانبعاث لابد أن يسنده الحكم الإسلامي.

إن الحداثة المؤَلِيكة بالغة التعقد، لأنها تستلهم إيديولوجيات مختلفة لا يربط بينها حبل من حب الناس، أو الإخلاص لله، أو هم إقرار العدل في الأرض. حداثة تحتمي بظلها نخبنا المغربة، محاولة عبثا أن تكون مجتمعا مدنيا (صرعَة هذه الأيام). لكنها لا تنجح إلا في تعميق درجة التشرذم السياسي وتنفير الشعب الذي يدرك أكثر من هؤلاء السادة والسيدات أبعاد الرهان السياسي والأدوار الموزعة على اللاعبين.

لتحقيق الانطلاقة الجديدة وتطبيق السياسة الجديدة لابد من نسج رباط اجتماعي جديد يتجسد فيه الإيمان بالله والأخوة في الله. لابد من منح الفرصة للصدق ليعوض الكذب، والبحث في حنايا النساء والرجال المتطهرين جسداً وروحاً، الساجدين لله خمس مرات في اليوم، عن صفاء النية وشفافية القلب بدل السياسات الكثيفة المعتمة والنوايا الماكرة.

لكن هذا لا يمنع من تثبيت الرجل المناسب في المكان المناسب إذا صحت توبة الجميع وصلحت نوايا الجميع. لأن الإسلام ليس مذهبا انتقاميا غايته التشفي من أعداء الأمس. يجب إذن أن تمد الأيدي إلى كل الذين كانوا يبحثون عن معنى لحياتهم، سواء تعلقوا بروح حضارية بالية، أو بوطنية عتيقة، أو ثقافة غربية مُسكرة، حتى يبرهنوا عملياً عن تبرئهم من نظام بائد متجاوز، وعن براءتهم من الوصولية والمصلحية حين قرروا تغيير وجهتهم.

إن الله عز وجل يفرح بالتوبة الحق، ويوجب على كل مسلم أن يبتهج باستقبال التائب. لهذا لن تدشن الانطلاقة الجديدة للحكومة الإسلامية بطرد الأُطُر الاقتصادية والإدارية للحكم الجائر، ولا بالإجلاء التام للمستخدمين السياسيين والإداريين والثقافيين للحكم البائد ولو كانوا من قبل عبيداً مسلوبي الوعي والإرادة وآلات مأجورة، مشحمة مبرقعة.

يجب ألا نكون أقل حكمة من نلسون مَنْدِلاَ الزعيم الإفريقي الذي حارب ببسالة نظام التمييز العنصري وعانى في السجن ما عانى سبعا وعشرين سنة. هذا الرجل العظيم الذي أصبح حراً وأضحى رئيساً لجمهورية جنوب إفريقيا يقود الآن الأغلبية السوداء في بلده إلى سياسة حكيمة حتى ينسيها عشرة قرون من القهر الذي مارسته الأيدي البيضاء العنصرية. فتح مندِلا عهداً جديداً من المصالحة يتميَّز بالشفافية، ليقف البيض المؤهلون والمتعلمون جنبا إلى جنب مع الأهالي السود، يساهمون في خدمة الأمة، بينما كلفت لجنة "الحقيقة والمصالحة" بالتحقيق في ماضي السفاحين، مغضية الطرف عن صغار المذنبين، كل ذلك حتى يتمكن كل واحد من التكفير عن ماضيه واستئناف عمل صالح يمحو به سيئاتٍ.

لكن تفادي الفخاخ المزروعة في طريق كل من عزم على الانطلاق دون استئذان دركي العالم محاولةٌ محفوفة بالمخاطر، لولا وعد الله العلي القدير بمباركة خطوات عباده المخلصين. والوعي المتزايد الملاحظ في كل

الأرجاء أمارةُ مستقبل قريب وبشارة معركة جديدة : معركة سلمية من أجل السلم.

سترِثُ الحكومة الإسلامية فوضى سياسية ثقافية عليها أن تعالجها بلباقة حتى نتمكن من مواجهة المستقبل، بل من استقباله ونحن مزودون بكل مؤهلاتنا. وبما أن مؤهلنا الأساسي هو العنصر البشري، فلا يمكننا أن نشيد البناء الجديد بالخطب السياسية أو بالقَفْزِ على الحواجز الثقافية التي يقبع خلفها رجال ونساء مستلبون، منهكون، معادون للمشروع الإسلامي.

تحديث الإسلام

يجب ألا نغفل عن الموعود الإلهي إذا أردنا أن نكتسب الشجاعة والحزم الضروريين لاقتحام متاهة التعقد الخارجي بخطى واثقة، وفك العقدة الداخلية. فنحن لا ننطلق من نظرة مثالية تبتسم ببلاهة، ناسية أن الساحة قد شغلها الغرب المستعمر منذ أمد بعيد، وأنه يرفع منذ القرن التاسع شعارا واحدا: تحضير الشعوب المتَخلفة.

اليوم بعد أن ولى عهد الاستعمار الرسمي، يبرز الشعار الاستعماري على لسان النخب المغربة: تحديث الإسلام. ففي عهد الاستعمار المباشر والوجود العسكري والإداري للأوربيين الحاملين للرسالة "المحررة" لم يكن لنا الحق إلا في الخضوع والسكوت. أما اليوم، بعد أن ولى الدخيل، بعد أن أصبحنا "جميعا

مسلمين" لم يعد العنف العسكري وحده كافيا لإسكات وإخضاع المتطرفين المدعين الذين يريدون تسليم الحداثة.

لذا يشهر السلاح الثقافي الغربي ليسند السلاح المادي ويمنحه المشروعية، فتستعين القبضة البوليسية بالتربية المضللة والإعلام المخادع.

وبما أن الوجود المادي للمستعمر القديم قد اندثر، وبما أن الدخيل رحل عن ديارنا، فلنحارب الإسلام باسم حرية التفكير، باسم التعددية الديمقراطية، بعيدا عن كل معيار إسلامي، باسم حق الاختلاف الذي يمنح الفرد الحق في ادعاء الإسلام دون الاقتناع به. ولنقترح بل لنفرض نماذج العقلانية الملحدة والتقدم المادي واللائيكية المتجهمة في وجه كل ما يمت إلى الدين بصلة.

هكذا، أضحت المفاهيم التي كان الغرب يغرسها في أذهان تلامذة المدارس الاستعمارية مكسباً ثمينا، حوضاً تسبح في مياهه بمهارة تلك السمكة التي كانت صغيرة والتي تحاول الآن أن تغرق الشعب المتشبث بإسلامه في لجة الحداثة اللاييكية المناهضة لكل دين.

ما هي المعايير التي سننطلق منها إذن لتنفيذ مشروع مجتمعنا الإسلامي، علما أن التوتر الحاصل بين اللائكيين والإسلاميين ليس سياسيا فقط بل هو ذو طبيعة ثقافية ضاربة الجذور في الأعماق؟ وما هي المفاتيح التي علينا أن نديرها لفتح الأبواب المقفلة العديدة والولوج إلى مستقبل الاستقرار؟

يجب أولا أن نكون واثقين من أن الغرب لن يفتح ذراعيه لأية حكومة إسلامية مادام قادرا على منعها من الوصول إلى الحكم. لن ينشُر الغرب البساط الأحمر ليستقبل لجنة مكونة من إسلاميين، بل سيحاول- إذا ما تهورت الصناديق ومنحت الفوز للإسلاميين- أن يزرع الألغام ويدعم العمليات القذرة المستوحاة من الطريقة الجزائرية، ليفهمنا - نحن الشعوب المتخلفة- أننا لا نعرف كيف نصوت وكيف نختار حكامنا. لكنه سيدرك حتما، بعد أن تُعييه الحيلة أن حسابات المصالح المستقبلية البعيدة لن تكون إيجابية إلا بالتعاون مع هؤلاء الإسلاميين.

تتكبكب الشعوب الإسلامية في هوة التفقير، وتتضاعف الإحصاءات شاهدة على التدبير السيئ لزبناء الغرب اللائكيين، "المسلمين جميعا" المتمرغين يوما بعد يوم في حمأة الفساد، المجهزين على البقية الباقية من ثقة الشعب بهم. ستفهم الشعوب يوما ما -بعد أن توقظها الحركة الإسلامية من السبات- أن لا ملجأ من الفساد المعمم، من الفقر الكاسح والتخلف، من الحكم السيئ والظلم الصارخ إلا إلى الله وإلى شرع الله. حينئذ سيصوت بكثافة على الحكومة الإسلامية كما وقع في الجزائر. فهل سَتُستَخلَصُ العبرُ من الدرس الجزائري، من النتائج الفظيعة التي أثمرها إيقاف المسلسل الانتخابي، أم أن التاريخ سيعيد نفسه لتستأنف نفس المأساة؟ وإلى متى؟

إن الذين يقبلون مشورة من ينصحهم بتحديث الإسلام أي بتأليكه وتفريغه من قيمه مخطئون، لأن الإسلام ليس إيديولوجية تتلاعب بها نزوات الرؤوس المحشوة بالمعارف المتنافرة.

ليس الإسلام أمرا يسهل تخطيه بترك الشعوب الإسلامية المسلوبة الهوية تجتر المرارة في استسلام. الإسلام رسالة الله عز وجل، و"تداول الأيام" موعود الله سبحانه وتعالى. سنرتقب ساعتنا، صادعين بحقيقتنا رغم أنوف الذين تذكرهم لفظة "الحقيقة الإسلامية" بهمجية عصر ما قبل العقل، وتحرضهم على مهاجمتها. سننتظر ساعتنا، مطمئنين، مسالمين، معلنين في كل مكان وكلما سنحت الفرصة أن الشمس ستشرق وأن مستقبلاً إسلامياً ينتظر البشرية جمعاء.

بعض الإسلاميين الشباب يستعجلون الوصول إلى الحكم، كأن الاستيلاء على السلطة يمكن أن يحُل محل بناء ذات الفرد والمجتمع.ولا يدرون أن الحركية المستعجلة التي تدفع تنظيمات تحتضن الشباب اليائس نحو التعصب والعنف لن تنجح إلا في تأجيل قدوم الغد المشرق، لا يعلمون أن سنة "تداول الأيام" الإلهية لا تتحقق في عام أو عامين، لان المدة الزمنية تمثل أحد أهم أبعادها.

ففي كل العصور، كان الخطاب الموجه إلى الأنبياء ثم إلى المسلمين جميعا يطمئنهم ويحثهم على الصبر والمدافعة، دون أن يعني ذلك الانحناء الدائم أمام كل أنواع الإهانات والإغْفاءة المستسلمة الحالمة بقدوم الإمام المخلِّص.

ترقُّب الساعة يعني الاستطلاع اليقظ للمشهد السياسي كيلا تفاجئنا الأحداث، لأن الشركاء السياسيين اللائيكيين في الداخل لن يتفضلوا يوما ما بمنحنا مكانا تحت الشمس، كما أن الغرب الذي يُجمع اليوم على رفض الحركة الإسلامية لن يتراجع بغتة إلى مواقف أكثر حكمة من مواقفه الحالية.

لكن للغرب مصالح استراتيجية دائمة في البلدان الإسلامية برغم تنبؤات نذر الشؤم، أمثال هنتجتون. مصالح استراتيجية دائمة لا تصمد في وجهها الحسابات المصلحية القصيرة النظر التي تحاول عبثاً أن تمدد أجل فزع الغرب من الإسلام. فقد بدأت أوربا وروسيا منذ الآن تقوي روابطها الاقتصادية بإيران الناهضة، الغنية بالنفط والأسواق الخصبة. بل إن الأخ الأكبر الأمريكي -الشيطان الأكبر حسب تعبير الثورة الإيرانية- لا يفتأ يوجه الإشارة تِلْوَ الإشارة إلى عدو الأمس حتى لا يفوته ركب المنافسة الأوربية. وهكذا تستدير باخرة الديبلوماسية الأمريكية مولية وجهها شطر إيران.

ونحن، رغم كل العوائق، نملك رأس المال: وعد الله. ونمسك مفتاح المستقبل الإسلامي: الإيمان والعمل الصالح.

الدولة القومية، سجننا

لابد لمن أراد أن يؤثر في مسيرة المجتمع أن يحدد أولا موقعه ويعرف خط وجهته.

فحدود كل دولة قومية تمثل في اعتقاد الحركات الإسلامية التي تنشط داخلها أسوار سجنٍ تُقَيِّدها وتضيق أفقها. يصطدم التحليق الوجداني والطموح إلى وحدة البلدان الإسلامية بواقع التجزئة الموروثة التي تَنَزَّلَ عليها التقطيع الاستعماري. يحتفظ المسلمون بذكرى باهتة لوحدة الأمة، ويسكن لحظات يقظتهم حلم يحن إلى عهد جديد. لكن أعينهم تكتحل بالمرارة حين تتفتح على واقع التمزق والاضمحلال والتشرذم المتفاقم. وتنفخ شياطين القومية –الشكل الحديث لِلْعصبية القبلية– في القلوب لتغذي بغض الأخ لأخيه. أصبحت الدولة القومية –المؤسسة الغربية التي أثمرتها الحروب الأوربية في القرن التاسع عشر والتي فرضتها علينا الخرائطية الاستعمارية– مسكننا، أضحت الهوية القومية كرامتنا، والكيانات الجغرافية المجزأة عنوانَنا. والتاريخ المحلي الصغير إطارَ وجودنا.

مهمة الإسلاميين إذن هي تحريك القلوب لتخفقَ بإيمان جديد، وإقناع العقل، وإشراكُ الإرادات في جهاد لَمِّ الشعب وتوحيد الكيان. طموح مشروع وواجب مقدس وحركة ضرورية لتعبئة الشعوب المسلمة حتى تتبنى مشروع التوحيد وتتجاوز يوما ما ضيق محابس الدولة القومية.

تتجمع في الجبهة الاقتصادية حيث تدور المعارك الحاسمة فيالق مسلمة، عارية، حافية، مشتتة، متخلفة، تقدم عساها تحرز نصرا خياليا بعيد المنال. أماني جوفاء!

لابد أن نضع على السكة قطارا جديدا. لكن العقبة كؤود والسكة التي تقود إلى التنمية –أولى الأولويات– تخترق حقولا مليئة بالحفر والألغام. ونحن الذين نرنو بأبصارنا إلى أفق عالمية الإسلام، يجب أن لا نغفل عن ما يدور تحت الأقدام.

التنمية أولوية كل حكومة واعية بمسؤولياتها، وتضامن الحكومة الإسلامية مع هذه الدول القومية التي يزخر بها عالمنا الإسلامي ضرورة ملحة. لامناص إذن من قبول هذه الضرورة والتعاون الهادئ مع الدول والمؤسسات المسلمة دون مهاجمة مشروعية المُخَلَّفات القبلية هنا أو الجَبْريات المتعاظمة هناك. ذلك أن الغرب الذي يتقن توزيع الأدوار يعرف كيف يقنع ديموقراطياته بالتحالف مع الشيطان إذا ما هُدِّدت مصالحه الكبرى. ولا أدَلَّ على ذلك من مثال المَحْمية الأمريكية في فلسطين المحتلة –المدعوة إسرائيل– حيث الظلم الصارخ والنفاق الفاضح.

يجب أن لا تنعزل الحكومة الإسلامية –الخارجة لتوها من رحم العدم– عن الدول والمؤسسات المسلمة، فالغرب متربص بها، مُعادٍ لها، إلى حين تتراجع فيه الدبلوماسية العملاقة عن مواقفها. فإذا لم تستطع التعاون المنسجم مع

الدول الرازحة تحت الوصاية، فعليها أن تتجنب إثارة الخلافات الثانوية معها. يستطيع التيار الإسلامي المعارض أن يجهر بإدانة الأنظمة المتعفنة في بلاد المسلمين متى أُتيحت له الفرصة، لكن حكومة مسؤولة يحاصرها الأعداء وتثقل كاهلها الأعباء لا يحق لها ذلك.

ففي بداية عهد الثورة، جرفتْ إيرانَ قفزات نظامٍ حديثٍ قليل الخبرة، لكنها بعد تجربة ثمان عشرة سنة، تعلمت كيف تبحر بمهارة في المياه العكرة للدبلوماسية الدولية، واستقبلت في نهاية هذه السنة (1997) قمة منظمة البلدان الإسلامية. خاب فأل الدولة العظمى التي لم تنجح في فرض العزلة على وطن الإمام الخميني.

هكذا صافح خليفة الإمام الإيراني الأمير الوهابي متحديا أمريكا التي تشهد عاجزة تجاوز حلفائها الأوربيين لها في سباق التصالح مع إيران. وتطوع الأمير السعودي بالوساطة بين دبلوماسيتين لم يبد عليهما لحد الساعة أي ميل إلى المهادنة. تطوع الأمير امتثالاً للإشارة الخفية التي أرسلها بدون شك حليفه الأمريكي.

إن الغاية الطُّهْرية الكونية للإسلام المثالي ينبغي ألا تنسينا أن سطح الأرض مليء بمستنقعات تضطرنا إلى التشمير كيلا نتدنس، لكنها تجبرنا أيضا على العبور: تلك هي تبعات المسؤولية.

قد نخطئ مرة أو مرتين، لأننا بشر، لكننا سنكون عميا وحمقى إذا ما كررنا أخطاء الآخرين. فمن الحكمة أن نتظاهر بنسيان خلافات الحاضر مهما بلغ عمقها لتأمين المستقبل. ومن الحنكة أن نرتب الصعوبات ونترك المجال للزمن ليفعل فِعلَه. ألم يهوِ ذلك الرئيس المتعاظم على أم رأسه يوم أن استبد به شيطان العجَلة فتعلق بالثورية الدولية وبدد أموال المسلمين يمنة ويسرة؟ والرؤساء المتعاظمون الهاوون في الحفرة يوماً ما ليسوا قلة في بلاد المسلمين.

لابد أن تقود الحكومةَ الإسلاميةَ الكفاءةُ التقنيةُ يصحبها الإيمانُ والنزاهة، لكن يجب أيضا على الحكام أن يكون لهم من النضج العاطفي ما يُمَكِّنُهم من إدراك القيمة العظمى للاتزان والصبر على الثمرة حتى تنضج. فلكل موسم حقيقته.

على الحكومات الإسلامية التي ستظهر هنا وهناك، بطريقة أو بأخرى، ألا تخاطر فتستعجل وتتشنج، لأن تشنج أي حكومة ستعقبه خسائر فادحة في مجال الاقتصاد. على هذه الحكومات أن تعتبر الجبهة الاقتصادية للبلدان المسلمة أهم موقع لها، وأن تستعد كل واحدة منها لاستقبال مستقبل المسلمين. فالمخلفات العتيقة ستتلاشى كما سَتَكسِفُ الشموس المزيفة لتنبعث الأمة الإسلامية، حاملة الرسالة الكونية.

لكن كيف السبيل إلى حكومة –أو حكومات– تتحلى بالتؤدة حين يثور الغضب حتى تتم هذه النهضة في انسجام؟

"الجبهة" الداخلية

أضع لفظة "الجبهة" بين مزدوجتين حتى أُبَدِّدَ كل أمل في أن يرانا عدوُّنا نرتكب يوما ما الخطأ السياسي الذي نعتبره خطيئة أخلاقية وخرقا لالتزامنا بمبدإ اللاعنف، خطأ التمكين لحرب أهلية شبيهة بتلك التي تأتي على الأخضر واليابس في الجزائر.

هل الإسلاميون هم الذين أشعلوا الفتيل في الجزائر؟ هل كانوا يريدون تلك المأساة؟ طبعا لا! لم يرتكب الإسلاميون سوى جريمة واحدة لا تغتفر: شعبيتهم الكاسحة التي منحتهم الفوز الكاسح في الانتخابات، وتهديدُهم بذلك سمعة "أبطال" الحزب الواحد الذين كان البلد ضيعتهم الخاصة طيلة ثلاثة عقود بعد الاستقلال.

كذلك نحن، سنصبح غدا أو بعد غد الملجأ الأخلاقي والسياسي الوحيد. سيصوت الشعب بكثافة لنا، بعد أن تنهكه الدسائس الحزبية التي أوصلت البلاد إلى الباب المسدود. إن التاريخ لا يعيد نفسه كما يقال، والأوضاع لا تتشابه ودعوتنا إلى التروي والحكمة ستلقى عاجلا أم آجلا آذاناً صاغيةً.

إننا ندعو إلى الوضوح، إيماناً مِنا بأن اللصوص هم الذين يخشون ضوء النهار، ونعلن أن الطبقة المتسلطة في ديارنا فاسدة، وأن الوقت قد حان لكي تَلُمَّ أمتعتها إلى حيث تجتر خزيها. لكننا في نفس الوقت نمد إليها يدنا حتى يتم

انسحابها في سلام. إننا نعلم يقينا أن الصناديق -هذا الاختراع الفاعل الذي ابتكرته الديموقراطيات الغربية- ليست في بلداننا سوى مظهر خداع، لكننا نأمل منها أن تكف عن شهادة الزور وأن تبوح بنتائج الاقتراع كيفما كانت.

لقد أحرجت الصناديق الشفافة التي نطقت بالحق في الجزائر شيوخَ "التكتل" العسكري الحزبي، ففضلوا أن يحتفظوا بالسلطة ولو ضحوا بالشعب كله. هذا الشعب الذي لايزال في نظر جلاديه ربيبا قاصرا في حجر الدولة السارقة، ستؤدي أجياله القادمة -بسبب المجرمين الذين أوقفوا المسلسل الديموقراطي- الفاتورة المؤلمة للخطيئة التاريخية التي ساهم الغرب فيها دون حياء.

تجاهلت الطبقة السياسية في بلدنا يدنا الممدودة إليها منذ مدة ليست بالقصيرة.

لا تريد أن تتخلى عن الوهم الذي يخيِّل إليها أنها قادرة على إقصاء الإسلاميين من المشهد السياسي. لا تريد أن تعترف باستحالة تحقق الديموقراطية إذا لم يشارك فيها هؤلاء "الظلاميون أعداء الديموقراطية". لكن يدنا الممدودة لن تبقى دائما مُتَجَاهَلَةً، والشعب -بعد أن يُعييه سلوك النفق المظلم الطويل الذي يقوده فيه جنون انتقال لا ينتهي- سيختار طريقا أخرى لن تروق طبعا لهؤلاء السادة المتربعين على الأرائك المغتصبة.

أما اقتراحنا فواضح بسيط: نقاش عام يشارك فيه الجميع دون استثناء أو إقصاء بدل المؤامرات السرية التي يحيكها في الدهاليز السادة "الأسياد" لنصارح الشعب بما ينبغي أن يعرف: ما معنى التصويت؟ ما معنى أن يكون المرء مسلما

دون أن يُحَكَّم أي معيار إسلامي؟ ما هو هذا الدستور الذي يُعَدَّلُ بين الفينة والأخرى ؟ ولماذا يُعَدل؟ أي جدوى "لميثاق شرف" يُستند إليه دون حياء لتمرير لعبة التوافق المأساوي الملهاوي؟

لابد أن يعلم الشعب الذي أغرقته سياسة "أولياء نعمته" في مستنقع الأمية حقائق ما يجري. لابد من التوضيح. لا بد أن تُعْتَقَ صناديق الاقتراع -هذه التُّحف الصغيرة التي وضعتها الديموقراطية- لتنطق بكل حرية حتى يتمكن الشعب بعد أن يدرك الخفايا والأبعاد من الاختيار.

لِيُقنِع اليمين أو اليسار اللائيكيان الناس بالتصويت "للاختيار الصائب" اللائيكي. وعندئذ سننحني أمام اختيار الشعب المسلم، فنحن لا نستعجل الوصول إلى الحكم، إيمانا منا بأن المخاطرة السياسية -خاصة في ظروف الاختناق الحالي والأزمة العامة- تعني الانتحار المحقق، فالحِمل ثقيل جداً، والالتزام المتهور في مثل هذه الظروف سيزيد المغامرة خطورة.

لسنا من هواة سياسة الكارثة، لكن الأمور تزداد سوءاً سنة بعد سنة، والشعب أصبح يزداد إيمانا بأن المسؤولين عن معاناته يجب أن يرحلوا.

ونحن نؤمن بان التزاما مبكرا -متهورا ومستعجلا- منا لن يثمر إلا نتائج مخيبة للآمال. نحن نعلم أن المقاولة التجارية حين تفلس يلزمها القانون وتجبرها السلطة القضائية على عرض حصيلتها. أما في مجال السياسة، فالصناديق الاقتراعية هي التي تنطق بالحكم. لكن ما العمل إن لم تُوجَد سلطة تُنفذ، وتمنع

التزوير الممارسَ بانتظام؟ إننا محتاجون إلى سلطة محايدة لم تتدنس بلعبة التزوير الانتخابي ولا تعجز عن إجبار الأطراف المتنازعة على احترام القانون.

فحين توجد هذه السلطة وتبرهن عمليا على جديتها وحيادها، يمكن أن نبدأ التنافس، علما أن التفويض الذي يمنحه الناخبون للمرشحين السياسيين لا يقوم إلا على الثقة أو التوجس الذي يشعر به الناخب ويبديه لهؤلاء الذين يخطبون وده. لكننا نلاحظ أن الأرضيات الانتخابية التي ما فتئت الأحزاب السياسية تهيئها ليست سوى إعلانات إشهارية ينادى بها في سوق يتدافع فيه البائعون، ويَخدع فيه الجميعُ الجميعَ، وخاصة الناخب، الزبون المغفل الذي تسوقه في الغالب أميته، والذي لا يدرك الأهمية القصوى للورقة الصغيرة المدسوسة في يده ليرميها في صندوق مُقفل تحيط به هالة من التعازيم والترانيم.

إن المقاولة الجادة تحترم دفتر تحملات الزبون، وإلا تكون ظالمة وتكون مجبرة على تعويض الخسائر الناتجة عن تقصيرها. لابد إذن من سلطة نزيهة خلقيا، أمينة سياسيا، تضمن احترام العقد الأخلاقي الذي بموجبه يمنح الناخب المصدق للوعود تفويضه لممثله. وإنها مهمة لن تنهض بها إلا سلطة لم تكذب أبدا على الشعب، سلطة لم تخن أبدا ثقة الشعب ولم تنهب ثرواته أبدا.

هذه السلطة يجب أن تحرص باعتبارها ضامناً حَكَماً على أمرين اثنين: أولهما أن يُوضَّح الشعار المَلُوك -"نحن جميعا مسلمون"- ويُفَصَّل في برنامج قابل للتطبيق، منبعه الوحيد الإسلام، حتى لا نكون متناقضين مع أنفسنا.

ونحن، الإسلاميين، نطمئن مواطنينا الذين كانوا من قبل لائيكيين والذين خضعوا لمنطق شعارهم أننا سنحترم التداول على السلطة مادامت شفافية صناديق الاقتراع مضمونة ونتائجها محترمة.

يبقى أن لكل واحد الحرية في التبرؤ من الشعار المُجتر واقتراح برنامج بديل، وللاقتراع العام القولُ الفصل!

تغيير

ليست طموحاتنا محدودة بموعد انتخابي أو تناوب على السلطة، لأننا نعلم أن تغيير حكومة أو دستور معين لا يكفل إلا حل أزمة عرضية إن كفل وهيهات! ولا يستطيع إلا تهوية الجو السياسي ريثما يدفع تآكل النظام فرقة أو حزبا معينا إلى الانسحاب في مستراح المعارضة الحزبية ليُلمِّع صورته.

إن تغيير وجهة المجتمع الذي ننشده لا يمكن أن يقتصر على سياسة موسمية هدفها التناوب على السلطة أو على إصلاحات قصيرة المدى ينفذها تناوب ديموقراطي حقيقي أو "توافقي" مزيف يقوم على نفس نظام الفكر والقيم الذي أوصلنا هذا الدرك.

أفقنا التغيير العميق الذي لا يمكن أن تبنيه وتقوده بعون الله إلا حركة مباشرة متواصلة. الأحزاب السياسية مُشَكَّلَة بصورة تجعلها لا تندفع إلا كلما لاح في الأفق موعد انتخابي، بنيتها وتجمعها يرميان إلى أن تقوم بدور

أغلبية حاكمة تتربص بها لتنقلب عليها أقلية. أما تشكلنا وتنظيمنا نحن فلهما غايات أخرى. فأفقنا أوسع ورؤيتنا أبعد!

إن نظرتنا غير محدودة بنطاق الدولة القومية التي تخنق أنفاسنا، لأن غايتنا مهما طال الزمن هي توحيد الشعوب الإسلامية في كيان واحد. واجبنا توحيد الأمة. قد يبدو هذا حلما أجوف وأمنية فارغة، لكن قرآننا -كلمة الله الحية- يأمرنا بأن نكون أمة واحدة موحدة، والزمن يدفعنا -كما تدفعنا الضرورات الاقتصادية- إلى التقارب. ثم إن هذا الذي يبدو اليوم مجرد حلم أجوف لن يلبث أن يصبح واقعا يوم أن يَأْذَنَ الله وتتفق الأمة على شكل التنظيم الوحدوي الملائم، وبعد أن تمهد السبيلَ جيلاً بعد جيل تربيةُ المسجد.

حرفتنا التربية. هي وسيلتنا لتغيير الإنسان حتى يتبنى موقفا ونظرة وإرادة تتعالى على الظرفيات التاريخية، وتتجاوز الحدود الجغرافية الضيقة التي تحيطنا بها سياسة المنزل الإقليمي الصغير، وذهنية الهوية التجزيئية.

نظرتنا وحرفتنا اللتان نجتمع عليهما وننتظم، تميزاننا عن الأحزاب السياسية التي لا يتعدى طموحها المدى القريب، ولا غاية لأعضائها إلا الحقيبة الوزارية. مشروعنا بعيد المدى، والتغيير العميق الذي يتم بواسطة التربية والإقناع لا يمكن أن يعاش إلا بعد مخاض عسير. لكننا اليوم نعيش منافسة حادة مع الأحزاب السياسية التي لا تهتم إلا باللحظة الراهنة والمكان الحاضر. ولذا يجب أن نخوض

المنافسة فنبدأ سباق المسافات الكبرى من الكيلومتر الصفر. ذلك بشروط فصلناها.

إن الحركة التربوية وتغيير الذهنية والسلوك لا يرتجلان، كما أن ابتكار المستقبل وشكل النظام لا يقومان على أرضية انتخابية أو برنامج حكومي. وإنما يقتضي الأمرُ مَشروع عُمرانٍ واضح الخُطَّة ونظرة بعيدة تبني مشروع مجتمع يستجيب للحاجات الدائمة التي تفتقر إليها الشعوب الإسلامية، ويُؤَمِّنُ العدل والسلام الذين تتوق إليهما. لابد لهذا المشروع أن يصاغ وأن يجسد في إرادة عامة. لابد أن ينطلق من دستور حازم لا يميل مع الأهواء كما يميل الغصن مع أدنى هبة ريح. سنجيب الأحزاب السياسية إذا ما وضحت موقفها من الإسلام، من الشريعة على وجه الخصوص، هل تعتبر الأحزاب السياسية شريعة الإسلام والداعين لتطبيقها مجرد إرث مسموم لا يصلح إلا للإلقاء في البحر؟ إننا نُطَمئِنُها مُسْبَقاً أننا لن نحتفظ أبدا بالسلطة رغم أنف الناخب.

بدل الرضا بدستور ممنوح، سيكون من اللازم انتخاب جمعية تأسيسية بواسطة التصويت الشعبي عقِبَ نِقاش طويل لا تُستثنى منه أية تشكيلة سياسية أو شخصية مستقلة. ولكي لا يكون الدستور المناقش في الجمعية والمعروض للاستفتاء مجرد ورقة تتلاعب بها الرياح، لابد من تغليق قانوني يحول دون اللجوء إلى لعبة المراجعات كلما ألهبت تقليعة جديدة المخيلات، لتتمكن السلطة الحارسة للدستور من ضمان الاحترام الدقيق للدستور.

أعنى بالتغليق القانوني الرفع من نسبة الأغلبية البرلمانية الضرورية لإصلاح الدستور. هكذا يمكن لكل حزب -بعد أن يطمئن إلى أن القانون الأساسي لن يخترق- أن يبرز قدرته ومهارته في تدبير الدولة حينئذ لن تظل الشعبوية الإسلامية والنخبوية العلمانية مجرد قوى مندفعة، منهمكة في المزايدة الديماغوجية. أين النتائج يا من كنتم قديما تتبجحون بكفاءة طبقتكم الراقية؟ وأنتم أيها الصاعدون حديثا إلى خشبة المسرح السياسي المفتقرون -في نظر أصحاب المقام- إلى التجربة، ما موقعكم من إعراب الماضي والمستقبل؟

حينئذ سينتهي السجال بين الإسلاميين واللائيكيين عندما يصل الجميع إلى الباب المسدود، ويفقد كل طرف المبرر السهل الذي كان يشهره حجة دامغة في وجه خصمه، ليلتقي الإسلامي الذي كان البارحة يصب اللعنة على الآخرين بمثقَّفِ المجتمع المدني في ورشة العمل، وليضطرا إلى التخلي عن أحكامهما الجاهزة، حتى تتضح القيمة الحقيقية لكل واحد منهما.

نتمنى هذا اللقاء بكل صدق، ونعتبره نتيجة ضرورية للحركية التاريخية التي تحمل في مَدِّها الحركة الإسلامية الشابة والشعبية الواعدة بمستقبل سياسي مشرق. بإذنه تعالى وتوفيقه.

إن الطبقة السياسية العجوز تدير معركة خلفية غايتها إفشال كل تغيير، لكن الشعب المخلص لدينه رغم جهله الطامي يتبرأ منها. هذه الطائفة السياسية العجوز لا تدرك أنها تقطع الطريق على الأجيال الجديدة التي تفوقها تكوينا

وأهلية لخدمة مصالح الشعب المسلم. هؤلاء السادة المسترخون على أرائكهم، المستسلمون لصفعات السنين، الممتلئون زهوا، هؤلاء المسؤولون عن النزيف الذي يمتص دماءنا لابد أن ينصرفوا لكي يتغير المجتمع.

الديمقراطية؟ أية ديموقراطية؟

الديموقراطية! اللفظ السحري، اللفظ المفتاح، اللفظ الذي تنحل به جميع المشاكل! الديموقراطية هي الجريمة في الجزائر: أجهِز على الديموقراطية رحمة بها أن يهينها أعداؤها، أولئك المتعصبون، تلك النساء ذوات الزي الغريب.

يوجه الديموقراطيون اللائيكيون (أقول: الديموقراطيون اللائيكيون لأن هناك لائيكيين ليسوا بديموقراطيين) سؤالا بسيطا حادا إلى الإسلاميين: أنتم مع الديموقراطية أم ضدها؟ فتكون الإجابة انفعالية، تبسيطية:"نعم" مع بعض التحفظات أو "لا" مع الجزم!

أما نحن فنؤمن بأن الديموقراطية، ذات الجوهر والنشأة اللائيكيين، تستحق جوابا أكثر تحفظا من طرفنا، دون أن يعني تميزنا هذا أننا نرغب في التهرب من السؤال. لا نعارض السؤال بسؤال، كما يحدث في الجدالات الحامية التي تنقلها وسائل الإعلام. وأنتم أيها اللائيكيون: هل أنتم مع الإسلام أم ضده؟ فالمناقشة الجادة والحوار المتفاوض الذي يهدف إلى تحقيق تفاهم متبادل يجب أن يطرح السؤال بكل ثقة وفي سكينة تامة.

نعلم أن الإسلامي الذي يملك حظا من الفطنة لن يقع في الفخ بإنكاره أهمية الديموقراطية باعتبارها نظاما ومسطرة يكفلان تدبير الصراعات الاجتماعية. كما أن اللائيكي الذي يريد كسب الناخب المسلم لن يخرق مركبه بإعلان معارضته للإسلام. بل قد يجيب اللائيكي المعتدل صادقا أنه مع الإسلام أي أنه مع دين من بين الأديان، والدين في عرفهم قضية شخصية لا دخل لها في السياسة.

إذن، بدل أن ننفخ في تصريحات إسلامي مندفع أفقدته أجواء الجدال الساخنة تؤدته ونعتبر ردوده الانفعالية أحكاماً قطعية، لنطالب الإسلاميين أن يوضحوا لنا بهدوء كيف لا تنسجم الديموقراطية مع المطلق الإسلامي. بدل أن يستسلم الديموقراطي لسحر الديموقراطية –ذلك الطائر الأسطوري الذي يحلق في أجوائنا بعد أن ضاقت عليه سماء بلده الأصلي– عليه أن ينفتح بديموقراطية على الآخر، لا أن يفرض مطلقه على الآخر، فكرته الوحيدة على الأخر.

ولنبدأ نقاشنا بالإصغاء إلى شهادة ديموقراطيين أصلاء يتحدثون عن النموذج المثالي الديموقراطي وعن الحالة التي أصبح عليها.

يحدثنا بول تيبو، المدير الأسبق لمجلة "فكر" عن الديموقراطية –"النسبية" في نظره– ويصف لنا تدهور النموذج المثالي الديموقراطي. قال: "لقد وصف بيير مانون بكل براعة هذه النسبية الحديثة، وأوضح كيف بدأت بتحطيم الدين لتعمل حاليا على تدمير السياسة، بحيث لن يبقى بعد حين من هذه الأخيرة

سوى شكلها المنحط المسمى تدبيراً، مجرد تدبير لا علاقة له بالقيم، بل لا يهتم بتقويم الوقائع والطلبات والقدرات، بذا تكون السياسة التدبيرية نتيجة لتدهور مقام الحقيقة في المجتمع الديموقراطي"[1].

ديموقراطية أصبحت في ديارها مجرد مهارة تدبيرية: "فالديموقراطية ليست متشككة لأنها ذات أساس أخلاقي متين، لكنها تميل دائما إلى تجاهل أساسها الأخلاقي وتحتوي آلية تدفعها إلى تجاهل أساسها الذاتي"[2].

لا ننوي هنا محاكمة الديموقراطية، بل نكتفي بالتنبيه إلى أنها منذ ولادتها تتحرر من كل مطلق غير مطلقها، وتعادي كل الأخلاقيات المعادية لأخلاقياتها. هذا التشبث الراسخ المتستر بالتسامح الديموقراطي والتعددية الديموقراطية...إلخ، آلية فتاكة تدفع الديموقراطية إلى معارضة نفسها وإلى تدمير أساسها الأخلاقي الذاتي.

هكذا تحولت الديموقراطية إلى مجرد إجرائية تدبيرية، وأصبح وجودها بعد تآكل آلياتها مهدداً في عُقر دارها بعد أن فقدت أخلاقياتها. اختفت الهالة التي كانت قديما ترصع جبينها، ولم يبق لها وجود إلا في مخيلة عشاقها الجدد من بني جلدتنا.

(1) La société en quête de valeurs, Op.Cit, p.200

(2) نفسه، ص 201.

لِنُصغِ إلى الأستاذ جون ماري جيهينو وهو ينتقد الديموقراطية التي لم يبق لها أي وارث في موطنها، والتي يتهافت الأحفاد المتثاقفون في أوطاننا على تركتها، دون أن يعلموا أن الجدة العجوز التي يحسبونها ثرية أصبحت خاوية الوفاض: " لا داعي للعجب إذن إذا علمنا أن الناخبين في الديموقراطيات "المتقدمة" أصبحوا يصوتون بنسبة أقل، وأن معظم السياسيين يفقدون احترام مواطنيهم، بدء باليابان التي تتقدم قافلة الحداثة في هذه المسألة كما في غيرها.

"لقد كان على رجل السياسة الذي رسمت صورته مخيلات فلاسفة الأنوار أن يسهل ميلاد حقيقة المجتمع[...] لكن لتحقيق مثل هذا الطموح -البحث الجماعي الديموقراطي عن المصلحة العامة- كان لابد من المراهنة على قدرة كل واحد أن يحمل في ذاته الحقيقة ثم أن يتعرف عليها"[1].

إن البلدان الديموقراطية تخلو من كل حقيقة بما فيها المصلحة العامة الاجتماعية. فقدت الديموقراطية التي شكلت شخصية المواطن الأناني مقامها باعتبارها الحقيقة السياسية العظمى، ومن ثم لم تعد تستحق احترام المواطن لها.

لكن ناقدنا الذي ينذر بنهاية الديموقراطية يبحث عن وسيلة لمد أجلها باعتبارها مجرد حقيقة صغيرة نسبية تجاور عدداً كبيراً من الحقائق الأخرى. إذْ لم يعد مقام الحقيقة المطلقة والخلعة المهيبة التي يريد الأحفاد خلعها على السيدة العجوز يناسبان وضعها المتدهور: "نفهم كيف أن اليابان –باعتباره أمثل نموذج

(1) La fin de la démocratie, Op.Cit. p.54

في هذا العالم الذي تعوض فيه القاعدةُ المبدأَ- يقدر على تشرب الحضارات الأخرى دون الذوبان فيها[...] لأنه يقبل بكل سهولة "حقيقة" الآخرين، مادام غير ملزم بالتخلي عن حقيقته. والحق أننا يجب أن نتحدث عن مناهج بدلا من الحقائق، عن أساليب للاستعمال[...] فكل قاعدة "تشتغل" تستحق الاهتمام.

"لقد فقدنا، حين قبلنا ببدهية مبادِئَ الأمة والتراب الوطني أرضيةً تُكَوِّنُ منا مجتمعا. ولا يمكننا الآن على أكثر تقدير إلا أن نأمل -مثل اليابانيين- أن نعثر في الذاكرة والطقوس على شعاع باهت لمجتمع لم يعد له وجود"[1].

هكذا لم تعد الحداثة الديموقراطية الناقدة لمبادئها ولوجهتها تعترف بالفضل إلا لما "يشتغل" جيداً ويثمر نتائج جيدة.

هل يمكن إذن لأسلوب الديموقراطية في العمل أن يستجيب لحاجتنا إلى تدبير السلطة دون أن يفقدنا روحنا وينحدر بنا إلى مستوى المجتمعات الحديثة "المتقدمة" التي تبحث عن بضع نتف من الحقيقة لتطمئن إلى أن انحدارها الأخلاقي لم يبلغ بعد مداه؟

(1) La fin de la démocratie, Op.Cit. p.55-56

شورى

الشورى اسم "ديموقراطيتنا". ما الذي علينا أن نفعله حتى يفهمنا الفرنكفوني الذي لا معالم له إلا ثقافته الغربية المنغلقة على نفسها، الرافضة لكل فكرة ولكل لفظ لهما جذور مخالفة لجذورها؟ ما الذي علينا أن نبذله لكي تفهمنا عقول موهت عليها واستلبتها طوعا أو كرها ثقافة لائيكية؟ ثقافة استوعبها البعض فأصبحت أساس بنائهم الثقافي؟ وأصبحت كل فكرة وكل مفهوم لايستقيان من لائحة الضلالات اللائيكية في نظرهم مجرد هذيان تفرزه عقول مخبولة.

تبقى الشورى إذن "ديموقراطيتنا" في انتظار تعبير أفصح، بل في انتظار برهنة التجربة على بطلان المحاولات المجهظة لتكييف الديموقراطية الغربية اللائيكية في محيط ربي في ظلال الإيمان. ما الذي علينا أن نفعله حتى نمحو آثار سطوة التغريب الذي تمارسه الحداثة اللائيكية الكاسحة؟

حين نستنطق علم الاشتقاق نكتشف أن الاختلاف بين مصطلحي "الديموقراطية" و"الشورى" جذري. فَديموس وكراطوس هما الجذران الإغريقيان لكلمة "الديموقراطية". وهما يعنيان بالتوالي "الشعب" و"الحكم". والديموقراطية تعني في الأصل حكم الشعب، أي قدرة المنتخبين الممثلين للشعب على التشريع دون الخضوع لأي وصاية عليا. أما "الشورى" فهي الكلمة التي يستعملها القرآن للدلالة على "الاستشارة"، أي الجهد المبذول

للتأويل والتكييف والفهم من أجل تطبيق الشريعة المنزلة التي لا يحق للبشر أن يعدلوها.

فالشورى والديموقراطية تنتمي كل واحدة منهما إلى مرجعية مختلفة جذريا عن الأخرى. والخط التاريخي للديموقراطية باعتبارها لفظا وممارسة إغريقيين مباين لخط الشورى.

فالأولى بدأت في أثينا اللائيكية وانتهت في المجتمعات الحديثة "المتقدمة" متخذة شكل ممارسة لائيكية، ملحدة وغير أخلاقية. بينما برزت الثانية في المدينة المنورة وبقيت معطلة أربعة عشر قرنا تقريبا. وهي اليوم ضرورة حيَوية للمسلمين، وأمر إلهي حاضر في المشروع الإسلامي، ينتظر تطبيقا يسير بمسطرة علينا أن نبتكرها أو أن نستعيرها من حكمة الشعوب.

لِممارسة الشورى يجب على الشعوب المسلمة والمكرهة على استهلاك منتوجات الآخرين -بما فيها المنتوجات الثقافية- أن ترفضَ الخضوع الذليل للمعايير الحديثة المستوردة لتعانق المبادئ المعيارية للشريعة الإسلامية.

تاريخ طويل من الجبر، مضاف إليه القهر الذي يمارس حاليا على المسلمين، يثقلان كاهل الضمائر، ويسحقان الحياة اليومية السياسية والاجتماعية. تنوعت أشكال الجبر عندنا من ملك وراثي عاض إلى أنظمة "تقدمية" قريبة العهد، إلى قهر حديث يمارس باسم ديموقراطية تجميلية. لم يعد العالَم الصغير السياسي اللائيكي قادرا على تسويق السلعة الديموقراطية المغشوشة رغم حفلات التنكُّر

البهلوانية التي تعرفها الحملات الانتخابية. لقد ساهم تكرار هذه المهازل والمبالغة في المزايدات الكاذبة في تنبيه الشعب إلى عظم الفِرْية الشوهاء، فأصبح منذ الآن قادرا على فك رموز اللعبة المنافقة التي تمارسها طبقة سياسية فقدت كل مصداقية. لعبة تُرقم في أوراق دعايتها شعارات جديدة كلما سنحت فرصة إصلاح دستوري قزمي.

لا أحد يجرؤ على انتقاد "الديموقراطية" الممنوحة، لأن الجميع يرزح تحت ثقل الأمية والبؤس. والشعب المستضعف يخضع ويسكت. أما المجتمع المدني فلا يحاسب "الدمقرطة" إلا فيما يخص الاستحقاقات، مستعجلا حلول فترة انتقالية تقود إلى سراب الجنة الديموقراطية. أما الإسلاميون فيعانون من صعوبة إقناع الديموقراطيين اللائيكيين بأن قاعدة اللعبة الديموقراطية التي يحاولون فرضها على الشعوب المسلمة لن تغرس أبدا جذورها في أرض الإسلام مادامت منحرفة عن الشريعة الإسلامية. إذا كيف يمكن إفهام اللائيكيين من بني جلدتنا "المسلمين جميعا" أن الديموقراطية الغربية لا يمكن أن نستوردها معزولة عن المسار التاريخي الذي شهد ميلادها وتطورها؟ بأي لغة ينبغي إفهامهم أن الشورى –المعطلة لحد الآن– لا يمكن أن تجرد من سياقها القرآني؟

ففي سورة الشورى لا تنفصل السياسة عن الحياة الاجتماعية التي تمثل جزءاً لا يتجزأ من الفضاء الديني. وبذا ندرك غفلة اللائيكية التي تريد أن تفرق بين الحكم وتنظيمه وبين الاهتمامات الدينية. إننا حين نلاحظ تعجب العقل الناشئ

في كنف اللائيكية من "الخلط" الإسلامي، نستغرب من الفرية التي تفصل الحياة الخاصة عن الحياة العامة والمسجد عن البرلمان.

في السياق القرآني للشورى، نلاحظ التمفصل العضوي للواجبات والفضائل الشخصية والاجتماعية والسياسية، واجبات وفضائل متحدة ملتحمة. والسياق القرآني للشورى تحدده هذه الآيات: ﴿**مَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ**﴾[1].

أدرجَ "التشاور" بين تسعة فضائل واجبة تميز تفكير المؤمن وعاطفته وسلوكه، وكذا تفكير وعاطفة وسلوك المجتمع المسلم. فالإخلاص لله عز وجل لا ينفك عن اتباع أوامره، والامتناع عن المنكر ملازم للتسامح والعفو، والنداء الذي يرفعه المؤذن خمس مرات في اليوم والتلبية التي يرددها المؤمن المتجه إلى المسجد واجب وفضيلة لهما من المرتبة ما للشورى، كما أن البذل والاقتصاد يحفظان توازن المسلم الغيور على حقوقه، المتأهب دائما للدفاع عن نفسه ومقاومة الظلم. الكل مترابط متلاحم، والشورى لا يمكن عزلها عن سياقها الخلقي والروحي. أما الديموقراطية فلا تنفك تعلن على لسان أشد أبنائها إخلاصاً لها أنها

(1) سورة الشورى، الآيات 36-39.

في أمس الحاجة إلى التخلق. ولا عجب فقد ولدت عارية من كل كساء خلقي، خالية من كل حقيقة روحية. لذا كان لزاما أن تصيبها يوما بعض الطفيليات وتقضي عليها.

نُقِلَت "الديموقراطية" الملَكية التوافقية وغرست في تربة غريبة عنها -مجتمعاتنا- تتنازعها ثقافتان متناقضتان: فهي ترفض مد جذورها رغم كل المحاولات المستميتة، رغم "ميثاق الشرف" الذي هللت لتوقيعه الأبواق، ورغم الإصلاحات المستعجلة والدساتير التي تَكَفَّلَ بصياغتها المنظرون الغربيون. هذه الأسمدة المستوردة عاجزة عن تحسين طعم النبتة الديموقراطية في عالم لا يتذوقها إلا بطرف لسانه، ولا يعرفها إلا شعارا يستهلك موسميا كلما حلت "الاستحقاقات"... "الاستحقاقات" تميمة تعلق وتنزع بكل سهولة، كأن الألفاظ الجوفاء يمكنها أن تحجب الحقيقة! فنحن حين ننقل لفظة "الديموقراطية" من فضاء إلى فضاء، ومن زمان إلى زمان، محاولين أن نوازي بين الديموقراطية والشورى، نساعد طائرا محتضرا على التسلل إلى جو غريب عنه فنقضي عليه بذلك. حينما نقارن الشورى مع الديموقراطية نحكم عليها بالنفي إلى منبذ يسوده التشويش وينعدم فيه الوضوح، في مُحاولة المنافقين أن يمكنوا في ديارنا لمسخ "ديموقراطي". بينما يمكننا التعلم من المسطرات الديموقراطية والتتلمذ على المعلم الديموقراطي، لو كانت المدرسة مسطرة فقط ولو لم تكن الديموقراطية واللائيكية وجهين لعملة واحدة.

مسطرة ومؤسسات

يمثل مبدأ "احترام المسطرة" البريطاني ضمانا لصواب كل عملية، خاصة إذا تعلق الأمر بصراع قانوني أو سياسي. والمسطرة حسب معجم لاروس تعني "منهجا أو سيرا ينبغي اتباعه للحصول على نتيجة". بل هي في مجال القانون "مجموعة القواعد والأشكال التي ينبغي التقيد بها لاتخاذ قرار ما والأمر بتنفيذه".

فهل يمكن حصر الديموقراطية في مسطرة تهدف إلى الحصول على نتائج ملموسة وإلى تدبير أوضاع الصراع التي يعرفها الحكم؟ ذلك ما يعلنه ناقدو الحداثة "المتقدمة" ونظام حكمها.

وهل يمكن للشورى -باعتبارها مبدأ عاما ذا أصل إلهي- أن تخضع للأشكال الديموقراطية دون أن يفرغها القالب الشكلي من مضمونها الخلقي والروحي؟

بتعبير أوضح: هل يمكن لنظام الحكم الإسلامي الذي علينا ابتكاره وتكييفه لحاجيات المجتمع الحديث أن يستعير من الديموقراطية بعض قواعدها ومناهجها التدبيرية والمؤسسية دون أن يقطع الصلة بمنبعه الإلهي ودون أن تخل متطلبات الشكل بمضمونه؟

لا يسعنا إلا أن نعترف بالحقيقة الوظيفية الفعالة للمسطرة الديموقراطية في ديارها، برغم كل الانتقادات الموجهة إلى الديموقراطية التطورية التي بدأت

أنفاسها تخبو في المجتمعات "المتقدمة". لامناص من الاعتراف بأنها الطريقة الأقل سوءاً في تسيير الشأن العام. فهل يمكننا استعارة وسائل المنهج الديموقراطي لتسيير شؤوننا؟ وهل نحن مخولون لفعل ذلك؟

لنستنطق أولا كتاب الله عز وجل حتى نعلم هل يسمح لنا باستعارة وسائل الديموقراطية، ولنستفهم الآية المذكورة آنفا، التي تحضنا على ممارسة الشورى باعتبارها واجبا فاضلا مرتبطا بواجبات أخرى. هذه الآية تتحدث عن "أمرهم"؛ والتعبير يعني أولا أن كل أمورنا يمكن بل يجب أن تستفيد من التشاور، ويعني ثانيا أن أمورنا السياسية والاجتماعية متروكة لتدبير نجتهد في ترويضه ليخدم أهدافنا. فالله سبحانه وتعالى يمنحنا حرية اختيار أفضل طريقة لتدبير شؤوننا حسب الزمان والمكان، بشرط أن لا تُمتهن المبادئ المعيارية للإسلام، وألا تفصل الشورى –باعتبارها أحد الواجبات الإسلامية– عن سياقها.

في النظام الديموقراطي تفوض المسؤوليات الحكومية وتنظيم المؤسسات حسب معيار الكفاءة والنزاهة التي يفترض أن يقيِّمها الناخبون الديموقراطيون. أما في النظام الإسلامي الذي علينا ابتكاره، فلابد أن يتحلى النساء والرجال الذين سيمارسون الحكم ويسيرون المؤسسات –فضلا عن الكفاءة والنزاهة– بالفضائل التي تجعل المسلم مسلما حقا. ويبقى التصويت الشعبي دائما هو الحكم.

لقد سارت الأمور في أول حكومة (أستعمل الألفاظ المستحدثة مكرها) إسلامية عشر سنوات بإشراف الرسول صلى الله عليه وسلم وتدبيره. كانت الشورى تمارس في حياته صلى الله عليه وسلم وفي خلافة الأربعة الراشدين من بعده دون مراسيم، إذ أن الأمور العامة في مجتمع قبلي ذي اقتصاد قروي ورعوي لم تكن تتطلب التنظيم والقدرات التي تطالب بها الدولة في مجتمعاتنا الحديثة أو المرشحة للحداثة.

لكن بعد عصر النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الأربعة، سقطت الشؤون العامة في يد الحكم المطلق ليمتد عُمر الجبر إلى عصرنا هذا.

اليوم، تحاول الأنظمة المطلقة التي يمسك بأزمتها في بلدنا لائكيون تتفاوت درجات عداوتهم للإسلام أن ترتدي الأقنعة الديموقراطية. فتارة تُفَرِّخ أحزاب سياسية فورية، ذات شعبية معجزة سريعة الذوبان، وتارة يقسم الحزب الوحيد إلى تشكيلات صغرى توهم بوجود التعددية (عنوان الديموقراطية). وتارة أخرى تنظم انتخابات ينتج فيها التزوير والرشوة وجميع أنواع التلاعبات غرفا برلمانية مطبوخة سلفا. وللظهور بمظهر الديموقراطية، لا يتردد هذا النظام أو ذاك في تفصيل دساتير مقيسة يصوَّت لها بنسبة % 100، أو في "إعادة انتخاب" الرئيس بنسبة % 99,99 قبل أن ينتخب رئيسا مدى الحياة.

إننا، بدلا من هذه الديموقراطية المخرفة، هذه الواجهة المزينة التي تستر مزبلة عفنة، نطمح إلى تطبيق شورى حقيقية تعصمنا أصالتها وتقوى القائمين عليها

من الغش، وتحمينا من التشوهات التي يمكن أن تحدثها مسطرة لم تحسن التكيف مع روحنا.

ولنعد إلى وسائل الديموقراطية نستعرض منها ما يمكن أن نستعيره دون المس بعقيدتنا:

- لقد امتدحنا من قبل الصناديق وأحكامها مادامت تنطق بحقيقة الاقتراع العام وتمثل جزءا من عملية شفافة أمينة يسهر عليها حكم نزيه غير ذي مطمع.

- ضرورة الدستور الذي يعبر بوضوح عن الشريعة ويفسرها.

- لا يتعارض مبدأ فصل السلط الذي تعتبره الديموقراطية من أسسها مع أي من التعاليم الإسلامية.

- للقضاء على الرشوة والزبونية والمحسوبية والصفقات السرية، يجب على السلطة الضامنة في الفترة الانتقالية وعلى السلطة الناتجة عن الشورى، أن يستندا إلى فعالية واستقامة جهاز قضائي مستقل ونزيه. فالرسول صلى الله عليه وسلم حين ينذر القاضي الفاسد بأشد العذاب يحذرنا من الشطط في استعمال السلطة حين يمارسه الجهاز القضائي بمنحه القاضي سلطة مطلقة.

بل إننا لا نخطئ القول حين نعلن أن الجهاز القضائي الذي يسهل على الفساد اختراقه هو مقتل كل نظام. وكل تحكُّم لا يخضع لمراقبة أو تخترقه الخوارق يحمل في خلاياه فيروس الفساد، ومرضه الوراثي:

ف"الحكم -حسب اللورد أكطون- يفسد، والحكم المطلق يفسد بإطلاق".

وبما أن القاضي الذي يتخذ قراراته بكل وعي دون أن يحاسبه أي رقيب يمتلك سلطة مطلقة، فإن الحكومة الإسلامية مطالبة بالاحتياط الشديد حين انتقاء قضاتها.

إن القضاة في الولايات المتحدة يخضعون للرقابة الشديدة من طرف جمهورهم، ويعزلون حين يخلون بواجبهم دون أن يعترض أحد على ذلك! وهو مذهب يستحق الاعتبار والتأمل.

- ❑ حتى ندرك مدى وعورة الطريق، نذكر بأن فصل السلط لا يزال غاية تسعى الدولة الديموقراطية إليها.

- ❑ حرية التعبير إحدى أهم المؤسسات الديموقراطية، فلا غنى عن صحافة حرة متعددة يديرها محترفون نزهاء يسعون إلى فضح الشر وإدانته، صحافة إسلامية متحررة من رقابة تردعها وتعزلها في ظل حكم الأنظمة اللائيكية، صحافة يجب أن تقوم بالمهمة التربوية والأخلاقية والروحية، إضافة إلى الوظيفة السياسية والإعلامية التي تضطلع بها كل صحافة ديموقراطية. فالتطور المذهل لوسائل الاتصال من أقمار اصطناعية وطرق معلوماتية يفتح الآفاق حتى يبلغ صوت الإسلام الآذان البعيدة وتعرض الحقيقة الوجودية للإنسان. إذ لابد من استعمال هذه الوسائل التقنية

لتبليغ الرسالة الإسلامية إلى كل الأصقاع ولعرض النبإ العظيم نبإ البعث بعد الموت ونبإ الجنة والنار بأسلوب لبق.

- لابد من ذلك لتكميل وتدعيم وتعميق حقوق الإنسان التي تمثل عقيدة الديموقراطيات الغربية (وسلاحها لتدمير الآخرين إن كان لهم تصور آخر للإنسان وحقوقه).

- تدبر المسطرة الديموقراطية الحكمَ بواسطة الموازنات، فلكل سلطةٍ سلطةٌ مضادة تراقبها وتحاسبها. وفي الحكومة الإسلامية، يجب أن تمأسس آليات المراقبة كما هو الشأن في الديموقراطية المسطرية. لكن قبل تكليف شرطة آداب أو محكمة ما بردع الغش والمحسوبية، لابد أن يهتم المجتمع الإسلامي أولا بتربية الفرد ذكراً أو أنثى. لابد أن يربى كل واحد على تمييز المنكر من المعروف دون أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيلةً يُنَفِّسُ بها المرء عن غيظه، أو ينتقم من خصومه. فالفوضى والفتنة أكبر منكر تَجب محاربته.

ضخمة هي التحديات التي ستواجهها الحكومة الإسلامية، هامة هي الدروس التي يمكن للحكومة الإسلامية أن تستخلصها من المسطرة الديموقراطية. فالسعي العلمي إلى التنمية وتعديل الاقتصاد ليتمكن من مباراة التنافسية العالمية، وتعليم شبيبة عاطلة وتكوينها ثم تشغيلها، كل ذلك يتطلب وجود حكومة منظمة لخدمة الشعب، وليس نظاما مستبدا يرخي للفساد العنان.

والأشكال والمناهج الديموقراطية المطبقة بحكمة وتبصر لا يمكن أن تضر بالشورى، بل تحتاجها الشورى لكي تتحقق في العصر الحديث. أمَّا الوجه الآخر للديموقراطية -الدين اللائيكي- فمرفوض.

أظن الآن بعد كل ما قيل أن القارئ سيفهم جيدا أن المرء لا يمكن أن يكون حقا ديموقراطيا إلا إذا كان معاديا لكل قانون يستلهم مصدراً آخر غير اللائيكية الديموقراطية. كما لا يمكن أن يكون مسلما لله وهو يرفض حكما واحدا من شرع الله. النتيجة المستخلصة هي أنَّ تسليم الحداثة يعني الاختيار الحاسم بين دينين: إما الإسلام التام لله عز وجل دون قيد أو شرط، وإما التذبذب بين الموقفين، والاكتفاء بالإعلان "أننا جميعا مسلمون"! تسليم الحداثة لا يمنع من الاقتباس من حكمة الشعوب مادامت عاقلة، أي غير مُشاقَّة لشرع الله تعالى.

تبقى الأسئلة الجوهرية: ما مصير الأحزاب السياسية حين يحكم الإسلام؟

هل سيحتفظ النظام الإسلامي بالتعددية الحزبية؟

ليس لأحزاب المعارضة أو للأحزاب المصطنعة المدجنة في ظل الحكومة اللائيكية و"الديموقراطية" سوى دور "معارضة"كالَّةٍ رَوَّضَها النظام على المصادقة والتعبير عن موافقتها "التوافقية". وضع مريح يمكن صاحبه من إدانة الإسلاميين دون خوف من عقاب، خاصة إذا قاوموا نداء أبواق "التوافق" ورفضوا أن

يطأطئوا الرؤوس. الإسلاميون هدف سهل للذين يتمترسون بالنظام الوصي ويهاجمون الضحية الموثوقة اليدين، المكممة الفم. أي مكان سيكون لهؤلاء في التشكيلةالإسلامية؟

تنبني لعبة التوازن في النظام الديموقراطي على وجود المنظمات السياسية والنقابية النشيطة التي يضبط نشاطها الانتقادي وتناوبها على الحكم إيقاع الحياة السياسية. ويمثل الحوار العلني والصحافة التعددية الحرة الواعية بمسؤوليتها واحدة من أهم الوسائل التي علينا استعارتها من الديموقراطية.

على تنظيم الحكم الإسلامي أن يتعلم الكثير من الطريقة السلمية التي يدبَّر بها الاختلاف في الديموقراطية. ولابد أن تبقى التعددية محيطا طبيعيا على الشورى أن تتحمله، بل عليها أن تشجعه باعتباره وسيلة ضرورية للحث على التسابق إلى خدمة الشعب.

يبدو أن الانحلال والفساد رذيلتان ملازمتان للديموقراطية. لكن الحق أنهما ميلان طبيعيان تتصف بهما كل طبقة سياسية، لأن الحكم مهما كان شكله ذو طبيعة إفسادية. لذا لا يمكن لتعددية انتقادية شفافة إلا أن تخفف من حدة الداء.

لكننا ننبه أننا حين نقترح منذ البداية ميثاقا إسلاميا يمكن كل تنظيم سياسي من تحديد موقفه وتوضيح خياره وعرض تصوره للإسلام، فإننا لا

نبتغي إقصاء أي طرف من الأطراف مادام اختيار كل حزب وبرنامجه كفيلين بتحديد مصيره السياسي.

الميثاق الإسلامي دعوة للجميع إلى المساهمة في مشروع إعادة التسليم، وهو بالتالي مناقض تماما للإقصاء. لكن إذا حدث أن زعم أحد من الذين هم "جميعا مسلمون" أن الشعب يجب أن يختار لتمثيله سياسيين لا إيمان لهم، فليقم وليعلنها بصراحة.

سيبقى واجبنا نحن خلال كل مراحل الانتقال وبعدها أن نكشف النفاق ونعري الزيف. وسيظل سلاحنا الوحيد -مادمنا قد التزمنا باحترام إرادة الشعب المعبر عنها بحرية- هو الكلمة، هو الحقيقة، هو الشفافية.

دعوة وأمة

الدعوة صدع بالحقيقة الإسلامية ونداء الناس للإيمان بها. الدعوة رسالة الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ووظيفة المؤمنين. أما الأمة فتلاحمُ مجتمع تسوده وتحكم حياتَه الشعوريةَ والإراديةَ قيمُ الأخوة والبذل والحلم والتكافل. مجتمع صوره الحديث الشريف أحسن تصوير: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطُفهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[1].

(1) البخاري ومسلم.

وللجماعة الإسلامية المثالية محور تدور حوله كل الأنشطة التكافلية، وتعقد فيه الاجتماعات، وتتوثق به عرى المحبة الأخوية: المسجد الذي يتوسط الحارة ويشع على فضائها، المسجد الذي يجب أن يكون المؤسسة المركزية الحاضرة في العمارات، والإدارات، والمدارس، وأماكن العمل... إلخ.

في ظل الأنظمة المطلقة، تنحصر وظيفة المسجد في دائرة ضيقة لأن هذا الاستثمار الجغرافي للفضاء الحيوي لا يمكن طبعا أن تقبله مثل هذه الأنظمة التي تعتبر المسجد وتربية المسجد سلاحا في يد "المتعصبين، أعداء العقل، المجرمين".

أما المسجد في المجتمع الإسلامي فيمثل بالأنشطة التي يديرها المؤسسة المركزية التي يجب أن تخدمها خلقيا وروحيا كل المؤسسات الحكومية. فعلى الحكومة إدارة الحياة المادية للناس، وعلى المسجد توجيه وتغذية حياتهم الروحية.

بذا سيمكن التكامل الضروري بين وظيفة الحكومة ووظيفة المسجد حيث يجتمع المؤمنون المشتتون المنشغلون طول اليوم بهم المعاش لاجئين إلى محضن يسود فيه الأمن والخشوع.

يجب أن توازَن قوى السوق والمفاوضات الظرفية وصخب الحياة اليومية بالقوى الجادة للخشوع الروحي والصلاة الموقوتة خمس مرات في اليوم. وإلا فقد المؤمن وسط الضوضاء اليومية كل معالمه. لكن يبدو أن هذه اللغة لم يبق لها أي معنى في عُرفِ حداثة فقدت كل معنى.

يقلب النموذج الإسلامي سلم القيم الحديثة، فيعطي الأولوية للقيم الخلقية والروحية بدل القيم المادية المتمثلة في الثراء والجاه. النموذج الإسلامي المتمثل في الإنسان المترقي خلقيا وروحيا، الفاعل النشيط والضمير الحي، يقابل النموذج الحديث الذي يجسده الفرد، المواطن المرقَّم المبرمج، المُنْهَك.

فالحداثة تحرم الفرد من أقدس حقوقه: معرفة الله عز وجل والاستعداد للقائه، وتغرقه في سيل لا ينقطع من المنتوجات الاستهلاكية المتجددة، إذا كان مواطناً في بلد غني ديموقراطي أو تَغطِسُه في مستنقع البؤس والهم إذا كان مجرد "شيء" يستعبده نظام جبري متخلف.

تُلاَزِم الديموقراطية التي يبدو أنها استوطنت البلدان الغنية في الشمال مستوى معينا من العيش والتعليم، مستوى ماديا راقيا. كل ذلك تحدوه ثقافة انحلالية لا تنفك عن مستوى الحياة المادية، والتمتع بالحقوق الديموقراطية، ولا تنفصل عن الانحطاط بالإنسان عبر دغدغة غرائزه البهيمية بواسطة الفلم والأغنية والملاهي، ليصبح النداء الوحيد الذي يبلغ الأسماع في عصر الحداثة هو النداء الدوابي، ولتنحصر الروابط الاجتماعية في العلاقة المهنية العابرة في المدن الأخطبوطية الصاخبة التي يلفها الضباب الأسود الملوث.

فالإقامة في التجمعات السكنية الضخمة الملوثة ماديا ومعنويا، والإدارة الممركزة البعيدة لا يعينان على تحقيق الدفء الجماعي حيث تترعرع وتزدهر الفضائل الخلقية والحياة الروحية.

أما في المجتمع الإسلامي المؤمن فتتكفل التواصلات الجهوية، والحكم الجهوي، والإدارة المحلية القريبة بتلبية متطلبات الحياة الجماعية.

لكن روابط التكامل والمودة لا يمكن أن تترعرع وتزدهر وتثمر إلا في المسجد. لأن الوشائج الروحية الحقيقية لا يغذيها إلا الاحتكاك المتواصل الحميم بواسطة المساهمة والمعاشرة، الأمر الذي يعمق التلاقح الفكري والروحي.

هذا الانسجام الجماعي يمنح الأمان أيضا حين يهَب مع البذل المادي والعاطفي السكينة للنفس: ثمرات عاجلة للأخوة الدائمة التي يعقدها المؤمنون في الدنيا متطلعين إلى تقاسم السعادة الأبدية في الجنة،يوم النظر إلى وجه ربهم عز وجل.

لكن تغيير مراكز اتخاذ القرار لا تكفي لحل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية، لأن إصلاح النظام السياسي وفك تمركزه، لا يمكن وحدهما أن يضمنا الشغل للشباب العاطل إذا لم يصاحبهما إصلاح عميق للذهنيات وتحسيس تشارك فيه بقوة السلطة السياسية الإدارية والمؤسسة المركزية المتمثلة في المسجد.

خاتمة

خاتمة

نِيَّتِي في هذا الكتاب أن أطرق جميع مَنافذ الإدراك البشري، بما فيه الخطاب المباشر القوي، أملا أن ينتبه غافل أو تنشحذ همة فاترة.

لقد مُنحَت لنا فرصة واحدة بها كنَّا، فأي غاية ستستهلك هذا الوجود؟ بل ما معنى هذا الوجود أصلا: وجودي، وجودك، وجود الكون؟

وفيم سنستثمر حياتنا، طاقتنا، مالنا، علمنا، حتى يبلغ مردودها أقصى ما يمكنه البلوغ؟ حياتي رأسمال لايُعوَّض، والتدبير السيئ له لن يقود إلا إلى الإفلاس الأخروي. تلك هي لغة القرآن الذي يعبر عن الحياة الشخصية بمصطلحات من قبيل العمل الصالح بإخلاص، والحساب، والجزاء، والخسران. فيصبح أخسر الخاسرين من ضَيَّع نفسه بإفناء حياته في الغفلة عن المصير، وطاقته في سفاسف الأمور. خطاب الحسابات هذا يتوجه إلى اهتمامات الإنسان المطبوعة بالأنانية، علَّه يثير لديه الهمَّ الأسمى والسؤال الجوهري: "ما معنى حياتي؟".

درجة أساسية من درجات اليقظة الروحية هي همُّ المصير بعد الموت، خطوة في الاتجاه السليم، حركة كفيلة -إن غُذِّيت بالتأمل والعبادة- بتمكين الإنسان من التعالي على العادة التي تغرقه في دوامة الحياة اليومية الرتيبة، والتخلص من الخَدَر المنبعث من وتيرتها المترددة.

هكذا، ترتقي روح العبد المؤمن وتنفتح أمامه آفاق لم تخطر له من قبل على بال، تتلون حياته بلون آخر، تكتسي حركته أهمية أخرى، يصبح لمشاركته في عمل الجماعة والأمة معنى آخر. تتغير نظرته للحياة والموت، تَقود غايتُه وطموحُه هِمَّتَه المتجددة نحو العمل المقتصِد أولاً، المدرِك لأهميةِ التزاماته. لتصبح حركته بعد ذلك لله وحده، لا يبتغي بها سوى وجهه، حَمداً خالصاً له واعترافاً بمنِّه، همُّه الله وحدَهُ وحقيقته شرع الله وحده.

فكل عمل توجّه لغير الله استثمار خاسر، بينما دين الإسلام يحتاج اليوم إلى المؤمنين به أكثر من أي وقت مضى، محتاج إلى تفانيهم، إلى اقتحامهم، إلى علمهم، إلى جهودهم المتكاتفة حتى تتقدم الشعوب المسلمة على درب الخلاص الجماعي. خلاصي الفردي رهينٌ بالجهد الذي أبذله لكي تعلو راية الإسلام وتزدهر الأمة الإسلامية.

أخاف بعد بلوغي خاتمة الكتاب أن أخدع القارئ المؤمن بالله إن أغفلت تذكيره بالشرط الذي بدونه لن يكون لعمله مهما بلغ نفعه للمسلمين أي وزن في حسابه الشخصي: الإخلاص التام لله عز وجل. قد تكون النوايا الخسِّيسَةُ مناسبة لحَرَكيَّةٍ قِبلَتُها صنم إيديولوجي ما، أو طموح أرضي محض لكنها أبداً لا يمكن أن تكون مناراً يهدي السائرين في طريق الله.

* * *

ما السبيل إلى التزود من أجل تطهير النفس؟ كيف يمكن أن نستنشق هواءً نقياً، أن نحس بلمسات أشعة الشمس الحانية، أن نشم أريج ربيع الروح، أن نغتسل بماء الحياة المتجددة؟

لابد أن نهجر عش العناكب، أن نخرج من الزنزانة، أن نلقي عنا أسمال السجن البالية. لابد أن نَرِدَ من العين. فكما أن ماء المستنقعات الآسن لم يبعث في أحد أبداً هواية السباحة، لا يمكن لصحبة ذوي الطبائع الخسيسة أن تشحذ هِمَّتَنَا أو تقوي عزمنا على فعل الخير.

منبع الحقيقة هو القرآن. هذا الكتاب الذي ابتدأ بدعوة القارئ إلى فتح دفتي المصحف وسماع كلام الله، هو الذي يختم بنفس النداء. والقراءة المتدبرة لكتاب الله كفيلة بإنارة طريقنا إذا كان دافعنا إليها هم المعرفة والعمل وليسَ الفُضول القاعد.

تنصح سورة الكهف رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصاحبة صنف معين من الناس وبالصبر على صحبتهم، وفي هذا عبرة لمن يعتبر. قال الله تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً**﴾[1].

(1) سورة الكهف، الآية 28.

يشير القرآن الكريم إلى المسجد حيث يُذكَر اسم الله تعالى، وحيث تفور عين الخشوع لتسقي قلب من يستطيع أن يصبر. وينصحنا ملحاً بنبذ صحبة السوء التي تغل أعناقنا وتخضع رقابنا لتفاهات هذه الحياة. قال الله جل وعلا : ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً**﴾[1].

كما يدعونا القرآن الكريم إلى التأمل في مغزى وجودنا، ويحذرنا من مكر الشيطان الذي يهدد مسيرتنا. ينادي الإنسان أن يلتفت إلى نفسه، فيتعجب من هذه التحفة الرائعة التي تنطوي عليها جوانحه. قال الله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ**﴾[2].

* * *

ثم يخبرنا كتاب الله بالتفصيل خلال سُورِهِ المائة والأربع عشرة عن الآخرة فيَسبق النداءَ الموجه إلى الإنسان أو يلحقُه التذكير بالوضع البشري. يقول الله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ**

(1) سورة الحديد، الآية 20.
(2) سورة الانفطار، الآيات 6-9.

مُّبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[1].

كما يخوِّفنا اليومَ الآخر فينادي: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ**﴾[2].

هذا اليوم الذي يرحل إليه الإنسان مكرهاً.قال الله جل وعلا: ﴿ **يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً وَيَصْلَى سَعِيراً إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ بَلَى !**﴾[3]. هذا اليوم، نهايةُ هذه الحياة العابرة فوق الأرض لا تُؤَرِّق إلا قليلاً من الجفون، لأن أغلب البشر مشغولون بالكدح لكسب لقمة عيشهم في الجنوب أو لإشباع نزواتهم في الشمال، لا وقت لديهم ولا علم لهم بما بعد الموت.

(1) سورة يس، الآيات 77-79.
(2) سورة لقمان، الآية 33.
(3) سورة الانشقاق، الآيات 6-15.

ففي الشمال مثلما في الجنوب، لا يدري الناس شيئاً عن النهاية المحتومة التي تنتظر العالم. بل إن الخوف من فناء الكون يمثل في هذه الأزمنة الحديثة عرضاً مرضياً. أنصار البيئة يخشون على الكرة الأرضية من الغازات المُسبِّبَة لمفعول البيت الزجاجي التي قد تخنق الحياة، ومن الكارثة النووية التي قد تجعل الأرض غير قابلة لإيواء الحياة.

ويحدثنا القرآن عما يشبه طامة كونية تضع حداً للحياة فوق الأرض، يحدثنا بإسهاب عما بعد الطامة، يكشف الله الذي خلق الحياة وخلق الكون الذي يؤوي الحياة لمن شاء أن يؤمن من بني البشر عن مصير الحياة حينئذ ومصير الكائنات الحية. قال عز من قائل: ﴿**لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ**[...].

﴿**كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ**﴾[1].

* * *

(1) سورة القيامة، الآيات 1-25.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم. وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين. إنك حميد مجيد. آمين يارب العالمين.

الفهرس

الفصل الثالث: مقاومات، نموذج الجزائر

الفصل الرابع: الجرح الفلسطيني

الفصل الخامس: المعرفة

الفصل السادس: كيف أكون

الفصل السابع: المال

الفصل الثامن: الحكم